رواية

حسن علي طوبتاش

حتى الطيور تذهب إلى عزائه

ترجمة: جلال فتاح رفعت

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

حتى الطيور
تذهب إلى عزائه

رواية

Author: **Hasan Ali Toptas**
Title: **hata altuyur tazhab ila azayih**
Translated by: **Jalal Fattah Rifaat**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**
P.C.: **Al–Mada**
First Edition: **2018**

اسم المؤلف: حسن علي طوبتاش
عنوان الكتاب: حتى الطيور تذهب إلى عزائه
ترجمة: جلال فتاح رفعت
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: **2018**

تيدا
برنامج دعم الترجمة والنشر في تركيا

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Hasan Ali Toptas through
Barbaros Altug's Istanbul Copyright Agency

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة
t.me/soramnqraa

حسن علي طوبتاش

مكتبة
t.me/soramnqraa

حتى الطيور تذهب إلى عزائه

ترجمة : جلال فتاح رفعت

هذا الطريق يؤدي إلى (باسين)
ثم يلفّ ليرجع إلى العكس
هنا قضى غريبٌ نحبه
حتى الطيور تذهب إلى عزائه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-1-

كان الصوت الذي يتصادى رجعه في داخلي قد انسحب إلى بعيد. لهذا السبب لم أستطع أن أكتب ولا كلمة واحدة خلال الأشهر المنصرمة. إذ بقيت طوال الوقت متسمِّراً هكذا، جالساً خلف الطاولة. وفي الحقيقة لم أعرف أي هراء أفعل. ثم خُيّل إليَّ أن صوتي كان يراقبني عن كثب. يتأمَّلُني. وقد أدرك أنني أنادي عليه بكلمات تكوّنت من تلقاء نفسها إثر حركات بسيطة لا أدري كيف قمتُ بها. أخرجت قلم الحبر ذا اللون اللازورديّ من علبته. فتحت غطاءه ثم أخذت أسحب الحبر إلى داخله رويداً رويداً. رفعتُه إلى أعلى كي أتأكد إن كان خزّان الحبر قد امتلأ أم لا. بعد ذلك التفتُّ إلى دفتري الذي تركته مفتوحاً، وهو باقٍ على حاله هكذا منذ عدة أشهر. وجَّهتُ قلم الحبر باتجاه نصاعة ورقه، فتأكدت من امتلاء الخزان بالحبر. تماماً في تلك اللحظة رنّ تلفوني. فوضعت القلم جانباً وقمت من فوري. وبخطوات سريعة هرعت إلى الركن القصي من الصالة.

سمعت أمي بصوتها الرخيم، المحمّل بروائح بلدتنا تقول:

– ألو! كيف حالك يا ولدي؟ هل أنت على ما يرام، قالت وكأنها تهمس في أذني.

غادر صوتي إلى بعيد، على بعد أربعمئة وستين كيلومتراً، خيّل إليّ أن محدثتي تقوم بتقليد صوت أمي. نظرت بخواء إلى الحائط وسماعة التلفون بيدي. كرَّرت أمي سؤالها:

– ألو، ماذا تفعل هناك يا ولدي، هل أنت على مايرام؟

هل بالإمكان أن تجدي اِمْرَأً على ما يرام في هذه الساعة على وجه البسيطة؟ أشعر وكأنني غائطٌ يا أمي. بل وأسوأ من ذلك.

بالطبع لم أقل لها هذا الكلام بل قلت لها:

– لا بأس بي. أنا جيد – قلتها بصوت واهن متيبِّس، على الرغم من محاولتي للظهور بمظهر القوي المتماسك.

– أبوك قادم إلى هناك! قالتها أمي.

– إلى أنقرة؟! سألتها وكأن كلمة (هناك) هي رمز يطلق على أماكن عديدة.

قالت بشيء من البله:

– أي نعم إلى أنقرة! توسلت إليه، قلت لا تذهب في هذا البرد القارس، فلم يُفِد ذلك في شيء، لم يسمع كلامي. وقبل شقشقة النهار استيقظ من نومه وذهب في طريقه إليك. ثم أردفتْ أمي قائلة وكأنها تلوك الكلمة في جانب من فمها: حين خرج من البيت قال إنه سيذهب إلى محطة القطار. أخشى عليه أن يضيّع طريقه يا ولدي. أفضلْ شيء تقوم به من أجلي هو أن تذهب أنت وتستقبله بنفسك!

– حسناً سأذهب بنفسي لاستقباله – قلت: هل قال لك في أيّ ساعة سيركب القطار؟

قالت أمي:

– كيف يقول!؟ هو الآخر ليست لديه أية معلومات عن مواعيد انطلاق القطار...

أغلقتُ التلفون وتهيّأتُ من فوري، أخذت لفافة الرقبة ومعطفي وانطلقت إلى الخارج. في أول الأمر فكرت أن أذهب إلى الكراج بعربتي الخاصة. ولكنني غيّرت رأيي لما رأيت الأرجاء كلها في محيطي قد غطّتْها الثلوج. الشوارع والحارات والأرصفة. فقد كان الموقف في

غاية الصعوبة بالنسبة إلى العربات التي ليس فيها إطارات جديدة. ثم إنّ العربات التي لا تستخدم سلاسل حديدية على إطاراتها كانت تتزحلق على سطح الشارع الذي صار مثل الزجاج. أما الناس فقد ازرقّت أنوفهم من شدة البرد. تراهم يتزاورون عن الطريق رافعين أيديهم، يحركونها في الفراغ لئلّا يتزحلقوا على سطح الجليد. استدرت ويمَّمْتُ وجهي صوب موقف الباصات الواقع على يمين العمارة التي نسكن. وبعد انتظار استغرق بضع دقائق جاءت حافلة تتدلّى من دعامَتَيها الأماميّة والخلفية ثلوجٌ مطيَّنة. زجاج نوافذها مغطًّى بطبقة من البخار. ركبت. لم يكن هنالك أحد غيري ينتظر في الموقف ولكنني لمحت طفلاً صغيراً صعد إلى الأوتوبيس معي. كان قلقاً. كيف جاء هذا الغلام إلى هنا؟ من أين خرج؟ لا أدري. ومن ساعة صعوده إلى الأوتوبيس راح يدور هنا وهناك، ثم حشر نفسه بين الزحام من الركّاب الذين كانوا يرتدون ملابس سميكة. لا أدري لِمَ ظلَّ الولدُ ماثلاً في مخيّلتي. ربما لأنه كان يرتدي معطفاً أخضر داكناً، ولم يمرّ وقتٌ طويل حتى نسيته، ومُسِحَ من خاطري. تشبَّثْتُ بواحد من السيور الجلدية المتدلّية في الأوتوبيس، وأدرت وجهي صوب زجاجة إحدى النوافذ. رحت أفكر في أبي. لأنني أعرفه حق المعرفة، وأعرف كم هو عَنُود! فمن المحتمل - إن كان قد نزل من القطار الآن - أنه ركب رأسه وسار في اتجاه ما، لا على التعيين. أي اتجاه. ربما نظر يمنة ويسرة ثم اختار وجهة ما، وراح يغذّ السير فيها دون دراية إلى أين تفضي به الطريق. ولهذا السبب كانت نفسي تتآكلني طوال الطريق إلى المحطة.

في الحقيقة لم تكن مخاوفي في محلّها. عندما وصلت إلى المحطة وجدت أبي في الكابينة الثانية عند القطار المتوقف. أبي الذي اشتعل رأسه شيباً، كان يلوي عنقه ويميل برأسه قليلاً إلى جانب ما. يتأبط عكازته، متحاملاً عليها، مسترسلاً في سيره مع سيل الركّاب المتوجهين إلى السلالم المؤدية إلى الخارج. حين وجدني أمامه ابتسم. توقف فجأة

في أول درجات السلم. ربما قد فرح حين رآني ولكنه بذل ما بوسعه كي لا يُظهِرَ ذلك. وتصرَّف على نحو عادي وكأننا لم نلتقِ لأول مرة في حياتنا في محطة قطار (أنقرة) وحسب، بل وكأنّنا اعتدنا اللقاء هنا يومياً كل صباح ومساء.

عندما تقابلنا وصرنا وجهاً لوجه تذكّرْتُ معطف الولد الذي رأيته في الأوتوبيس. وبالاخضرار الداكن العالق في ذهني من رؤية الغلام انحنيت أمام أبي وقبَّلتُ يدَه:

– مرحباً بك قالها أبي، ثم رفع تلك اليد التي قمت بتقبيلها قبل قليل وأشار بها إلى القطار الواقف عند المنصّة وأردف قائلاً: هذا لا يختلف عن بغلة (خليل الطحان) بشيء. تكسّفت أحوالنا. منذ الصباح الباكر نحن على الطريق.

– أما زالت هنالك تحويلة في محطة (أسكي شهر)؟ – سألتُه.

– أي نعم! وتلك كارثة أخرى – قال بنبرة يائسة.

امتنع أبي عن الكلام لمدة طويلة بعد وصولنا إلى البيت وتناولنا طعام العشاء. واكتفى بدفن رأسه بين كتفيه وظل يجول ببصره في محيطه. وبعد مرور بعض الوقت سألني:

– هل هنالك أية مشكلة؟!

– لا – قلت.

أومأ برأسه بإشارة تدل على الرضا. ثم أردف قائلاً:

– أتدري يا ولدي! ولا واحدة من الأطراف الصناعية التي جلبناها لاءَمتْني. قالها وهو يشير بيده إلى ساقه اليسرى: الأرجاء تعجُّ بالمحتالين. لا أدري كيف يحصلون على عنوان المرء وبأي وجه يقومون بزيارته في بيته، متجشِّمين عناء السفر من (دنيزلي)، من (أزمير) أو من (أوشاك). وهل من المعقول أن تطرد من جاء إلى بيتك؟ هنالك تقاليد وأعراف. فلا يمكنك طرد ممثِّل الشركة المصنِّعة الذي جاء إليك، ولا تستطيع أن تقول له ارجِعْ من حيث أتيت. أما هو فإنه يفتح حقيبته ليعرض عليك

كتالوجات الشركة التي يمثّلها، ويدّعي أنهم أحسنُ مصنعي الأطراف الصناعية في البلد، وليس هنالك أفضل منهم في هذا المجال. يأتون عن يمينك وعن شمالك حتى يقنعوك بأن تضع توقيعك على بعض الأوراق التي لا تدري ما هو مضمونها. وفي الحقيقة إنهم يبهرونك عندما يأخذون مقاسات ساقك، وتهيم إعجاباً بكلامهم الذي يقطر عسلاً. بالطبع سوف تبلع السنارة وتتصوَّر أنهم سوف يعملون المستحيل من أجل خدمتك.

صمت فجأة وطأطأ رأسه. ضمَّ ساقه اليسرى وأخذ يفركها فركاً ثم اتّكأ إلى الحائط بخفّة وتنهَّد بعمق:

- وفي نهاية المطاف فإن الوعود التي قطعوها على أنفسهم كانت مجرد ثرثرة فارغة. سوف تجد أنَّ الساقَ الاصطناعية التي قاموا بتجهيزها لك شيءٌ عاديٌّ وتافه، كأنها قطعة من الحطب عولجت في ورشة نجارة. وبمجرَّد أن يسلِّموك بضاعَتَهم يغيبون عن الأنظار. أي إنّك لن تراهم بعد ذلك إلى الأبد. حتى إذا فكّرت أن تتَّصلَ بهم على الأرقام نفسها سوف تجدُها خارج نطاق الخدمة. ولو جرَّبت حظَّك للمرة الخمسين فلن تستطيع الاهتداء إليهم. ولنقل إنك لم تتَّعِظْ من كل ما حصل لك، ولم تفهم أنك تعرَّضت لحالة نصب واحتيال، وقرّرتَ تهيئة نفسك والسفر للبحث عن عنوانهم فسوف تُصدَم بأن العنوان الذي أعطوك إياه، ما هو إلا عنوان وهمي. ستجد في مكان العنوان دكانة حقيرة. وفي أحسن الأحوال تجد أن العنوان هو مجرّد مقهىً صغير يقدّم الشاي ليس إلّا.

راح يفرك ركبته بحنان ورأفة كأنه يمسك قلبه بيده:

- بعد ذلك سوف تجد أنه يصعب عليك استخدام قطعة الحطب هذه. قالها وأخذ يحدق في عينَيّ:

- آه هنا تؤذيني، من هناك تؤلمني وتظلُّ تدعس خرقاً بالية من الأقمشة هنا، أو نسالات من القطن من هناك. قصر الكلام لقد ضقت ذرعاً بهؤلاء المحتالين، وهذه النفايات التي يبيعونها. لذلك رميت نفسي إلى تهلكة الطرقات وجئت إلى هنا.

قلت:

- لا تقلق يا أبي! سوف نوصي لك بواحدة.

جاءتنا (سحر) بالشايات. أما ابنتي (آيبري) فكانت ساكتة طوال الوقت، ومن مكانها حيث تجلس كانت تحدق في ساق جدِّها المبتورة.

- قولي لي يا (آيبري) كم تبلغين من العمر؟ - سألها أبي.

(آيبري) لَمْ تَحِرْ جواباً. يبدو أنها ظنت أن الصوت كان قادماً إليها عبر الساق اليسرى لأبي. فما أشاحت ببصرها عن الساق الاصطناعية، بل كانت تنظر وتبلع ريقها باستمرار. فقمت أنا بالإجابة عوضاً عنها:

- بلغت الخامسة من العمر.

أومأ أبي برأسه على مهل، فلمحتُ شعاعاً رقيقاً من الضوء مرّ عبر اخضرار عينيه، كأنه محضُ خيال عابر. قال:

- أنا سألت وتحرّيت.

قالها ثم مال عليّ وكأنه يهمس بسرٍّ ما في أذني:

- سمعت أنه يوجد هنا مَن يجيد الصنعة، يدعى البروفيسور (اسفنديار مرجان)، مكانه قريب إلى جامع (قوجا تبة). علينا أن نذهب للعثور عليه بدلاً من تضييع الوقت، والوقوع كالعميان في أفخاخ الذئاب الذين يلبسون ربطات عنق. يجب أن نعثر على البروفيسور ونوصيه لينفِّذ العملَ لنا.

- ليكن قلبك مطمئناً يا أبَتِ! أينما أردت نوصيهم بعمل ذلك.

في اليوم التالي وبعد الفطور الصباحي مباشرةً انطلقنا معاً باتجاه الموقف القريب إلى البيت، فجاءتنا من هناك حافلة مهلهَلة، مضعضَعَة الأجزاء. جوفها بارد. ركبنا ومضت بنا وهي ترتجف وتهتزّ حتى وصلْنا إلى (سوق صحيّة)[1]. قال أبي:

1- صحية: منطقة شعبية في أنقرة. تُعدّ مركز المدينة حيث تلتقي فيها خطوط الأوتوبيس وأنواع مختلفة من حافلات الأجرة - المترجم.

– لا داعي للتبذير لِنتمَشَّ.

ولكنني في تلك اللحظة أوقفت واحدة من سيّارات الأجرة. رمقني بنظرة تعبِّر عن خجل صاحبها. ركب السيارة وجلس إلى المقعد الأمامي، واضعاً عكازته في الفراغ الموجود على يمينه. طوال الطريق لم ينبسْ ببنت شفة، واكتفى بالنظر بطرف عينيه إلى السائق تارة، وإلى لوحة مؤشرات السيارة تارة أخرى.

– أهذا المسجد هو المسجد نفسه الذي وصفته لك، قالها أبي حين همّ بالنزول من سيارة الأجرة.

– نعم هو! – قلت.

وضعنا جامع (قوجا تبة) على شمالنا ثم بدأنا نغذّ السير صوب سينما (قزل ايرماك) ونحن نشقّ صخب المدينة. بدأت أسير بالقرب من أبي خشية أن تزلَّ قدمه – أو بالأحرى عكازته – فيقع على الأرض المغطَّاة بالجليد. ولهذا السبب كنت على أهبة الاستعداد أكثر من ذي قبل لتقديم المساعدة. ولم أضع يدي في جيب معطفي قطّ برغم البرد القارس الذي كان يحرق روح البشر. وهكذا مضينا في طريقنا بصمت مخلّفين سينما (قزل ايرماك) وراءنا، إلى أن وصلنا إلى موقف سيارات الأجرة في زاوية الشارع. ومن ثَمَّة سلكنا جهة الشمال، وأخذنا نصعد باتجاه زقاق (أولكونلار) فازدَدْتُ قلَقاً لأن الصعود كان أكثر حِدّة. ولأنني أعلم جيداً أنّه سوف يرفض أية مساعدة، ودون وعي مني تصورت أنه سوف يقع فانطلقت إليه بهدف تقديم المساعدة فارتدَّ إلى الوراء قليلاً لأنه ربما توقع أنني مقدم على مَدِّ يد العون إليه.

نظر إلى وجهي بقسوة وقال:

– ألا ترانا نمشي يا هذا! لا تحاول أن تُمسك بي.

بعد أن قال كلامه هذا تسمّر في مكانه متّكِئاً على عكازة الإبط، رافعاً إحدى كتفيه، خافضاً الأخرى. ثم ضيَّق ما بين أجفانه وأخذ ينظر إلى العربة التي رُكِنَتْ في جانب الرَّصيف، أمام محل للشاورمة، رُفعت

في واجهته لوحة كبيرة كتب عليها عبارة (وسيلة رزق) أما الواجهات الزجاجية الجانبية للعربة فكانت تغطيها الثلوج والسقف قد تجمّع عليه الصقيع. يجلس أمام مقودها رجل لا يستطيع تحريكها على الرغم من بذله مجهوداً كبيراً. كانت إطاراتها تدور في مكانها مصدرةً ضجيجاً يصاحبه صفير البرد الذي أذل كل الأرجاء. ظلت السيارة على حالها، ناشبة في الوحل، تحت أنظار المارة الغادين والرائحين. كلما ضغط سائقها على دواسة البنزين دارت إطاراتها وتزحلقت أكثر. أما مؤخّرها فكان يترنَّح يمنةً ويسرة. وعندما يرفع السائق قدمَه عن دوّاسة البنزين تتوقّف الإطارات عن الـدوران. استطعت أن أقرأ ذلك في وجه أبي بأن هذه الأحداث التي كانت تدور أمامنا قد بدأت تزعجه. حينما كان يحدق بالسيارة كانت شفتاه تنفرجان قليلاً تارةً، ويزمّ عليهما تارة أخرى فتنغلقان كما لو كانتا ظلفتا كمّاشة. حين يزمّ أبي على شفتيه تظهر نقطتان مقعرَّتان على خدَّيه كأنهما تجويفان مظلَّلان، يتحركان مع اهتزاز السيارة في مكانها. وفي نهاية المطاف فقد صبره فالتفتَ إليّ قائلاً: هيا تعال معي!

– ماذا جرى يا أبي، إلى أين؟ سألته.

قال بجدٍّ واضح:

– هيا تعالَ معي، لندفع هذه السيارة.

كانت مخاوفي تزداد مع كل خطوة يخطوها، وأخشى أن يتزحلق ويقع أرضاً في هذا البرد القارس والشتاء الموحل (من أين أخرجْتَ لنا هذه المسألة يا أَبَتِ! ما شأننا وشأن تلك السيارة المغروزة في الوحل). بالطبع لم أجرؤ على قول هذا الكلام، ولكنني بدأت أتوسَّل إليه، قلتُ:

– أرجوك أَبَتِ! مالنا نحن وهذه المشكلة. فالسائق لا بد سيجد حلّاً لمشكلته.

وهكذا واصلنا الصعود من جديد ونحن نمشي جنباً إلى جنب. كان قد انشغل تفكيره كلّياً بالسيارة، حتى أنه كان يتوقَّف بين الفينة والأخرى وينظر إلى الوراء بألم وبعينين حزينتين، وكأنه ينظر إلى إنسان يتنازع

الرّوح. وفي كل مرّة يردّد مع نفسه مغمغِماً: هل نحن في غابة؟ هل نحن على قمة جبل؟

على الرغم من مغادرتنا لزقاق (أولكونلار) الذي كان يعجّ بالفوضى وانعطافنا إلى زقاق (بارداجك) وابتعادنا، إلا أن أبي ظل يتلفَّتُ إلى الخلف ويسترق النظرَ عسى أنْ يرى تلك السيارة. وبعد أن ابتعدنا نحو خمسة وعشرين خطوة أو ثلاثين مدَدْتُ يدي وأنا أشير إلى اللوحة الكبيرة قائلاً:

– ها هي ذي (مرجان ميديكال) للمستلزمات الطبّية.

كان أبي يمشي في المقدّمة وأنا أتبعُه. دخلنا عبر الباب. بعد أن انتظرنا قليلاً في الرواق استقبلَتْنا فتاةٌ رائعة الجمال، بدَتْ أنها تسبح في عالم الخيال. رافقتْنا إلى غرفة (إسفنديار مرجان) التي كانت تحتوي على أثاث مصنوع من الجلد الأسود، وتنسدل على شبابيكها ستائر زرقاء ذات أشرطة سميكة. وفي بحر ساعة تقريباً تمَّ فحص الساق المبتورة ومراجعة جميع التقارير، كما تمَّ التطرُّق إلى أدقّ تفاصيل المسألة. ثم تداولنا مسألة جودة المواد المستخدمة. بعد ذلك تمَّ عمل تقييم للتكاليف فأعلنوا السعر النهائي. وبعد أن خُصِمَتْ النسبة المئوية التي يترتَّب على الدولة دفعُها حسب قانون التأمين الصحّي اتَّفقْنا على نسبة التخفيض، فكانت ٪2. والأهم من كل هذا هو أنهم في نهاية المطاف وبصوت مفعم بالثقة بالنفس قطعوا عهداً على أنفسهم، أنهم سوف يصنعون لنا طرفاً اصطناعياً لما تحت الركبة. قال السيد (اسفنديار):

– ولكن ينبغي عليَّ أن أوضح هذا الأمر منذ البداية. (يبدو أنه قد تأكد من كون أبي هلوعاً، متسرعاً). قال: نحن لا نصنع الطرف الاصطناعي ثم نعطيك إيَّاه ونقول لك اذهبْ إلى حال سبيلك! بل يتوجب علينا أن نبقيك هنا، من أجل تدريبك وتعويدك على استعمال الطرف. قد تستغرق التمارين وعملية التعويد أياماً عديدة. ولا أستطيع التكهُّن كمْ يوماً ستستمرُّ التمارين! كل ذلك بحسب الموقف. علينا أن نطمئنَّ نحن

مثلما تطمح أنت أيضاً أن يطمئن قلبك. فهذا الأمر في غاية الأهمية. أظنّ أن الفكرة واضحة، أليس كذلك؟ في الواقع سوف نختبر مشيك. وإذا توجَّب أن نضيف بعض التغييرات أضفْنا، حتى وإن كانت بقدر ميلِّليمِترات. كما أود القول إنَّ جميع من دخلوا عبر بابنا هذه بكراسي متحرِّكة ذات عجلات خرجوا من هنا وهم يمشون على أقدامهم. لا تقلق أبداً. أريدك أن تتحلَّى بالصبر. فإذا صبرتْ سوف تخرج من هنا دون الاستعانة بعكازاتك. أرجو أن تصدّق كلامي هذا وتؤمِنَ به. ماذا تقول يا سيد (عزيز) هل اتفقنا؟

- اتفقنآ - قالها أبي وأومأ برأسه عدة مرات والفرح بادٍ على وجهه.

بعد يومين اكتمل صنع الطرف الاصطناعي وحان أوان التدريب.

نحو الظهر ركبنا الأوتوبيس من (أريامان) فأخذ يخضّنا خضّاً حتى أوصلَنَا إلى (سوق صحية) ومن ثَمَّة أخذتنا سيارة أجرة إلى (مرجان ميديكال) وما إنْ صِرْنا في الداخل حتى برقت في عينَي أبي التماعةُ شَغَفْ. انطلقَ إلى الصَّالة الواقعة إلى شِماله، وكانت تغصّ بمعاقين آخرين - هذا فقد ذراعه وذاك بُتِرَتْ ساقُه - وبدأ بممارسة تمارينه. أما أنا فانزويتُ في ركنٍ قصيٍّ غير بعيد عنه لكي يشعر بوجودي إلى جانبه، كمصدر قوة وثقة. في بعض الأحيان كنت أذهب خارج الصالة لأدخن سيجارة. وفي الغالب كنت أجلس على كرسي بلاستيكي جنب الباب في قسم معزول بطبقات من الخشب المضغوط. فلم أكن أرى المتدربين في أثناء مزاولتهم التمارين ولكنني كنت أسمع أصواتهم وأنفاسهم. كان الواحد منهم يشرح لصاحبه كيف فقد جزءاً من جسمه. على مدى يومين لم أسمع صوت أبي يتحدَّث عن إعاقَتِه، سوى أنه أخبر أحدهم قائلاً:

- كان حادثاً عادياً.

وفي اليوم الثالث حين وصلنا إلى باب (مرجان ميديكال) ونزلنا من سيارة الأجرة توقف أبي فجأة. رفع إحدى كتفيه وهبط بالأخرى ثم طأطأ رأسه وخفض بصره إلى الأرض.

– تسببت لك بالأذى يا ولدي. تبهدل حالك مثلي. قالها ثم أردف: اذهب إلى عملك. اجلس ودردشْ مع أصحابك. اذهب الآن وارجع إليّ في الخامسة مساءً لتصطحبني.

لم أعد أعرف ماذا ينبغي عليَّ أن أقول له، ولكنني رحت أحدِّق في وجهه دون أن أتفوَّهَ بأيَّة كلمة.

– فيما أنا منهمكٌ في الداخل بمزاولة التمارين وتلقِّي التعليمات تقضي أنت وقتك في التسكُّع هناك. قالها ورأى حيرتي ثم أضاف قائلاً: ما الداعي لذلك؟

– حسنٌ، أنت أعلَمُ يا أبي – قلت له بهدوء.

انتظرتُ أن يعود أبي إلى الداخل فوضعت يدَيّ في جيبَيْ معطفي وهبطت المنحدر المغطى بالجليد باتجاه زقاق (كونور) وفي الحقيقة لم يكن هنالك أي مكان يمكن أن أذهب إليه في هذه الساعة، وليس هنالك في الجوار أي صديق يمكن أن أذهب لأقضي الوقت في الدردشة معه. فكرت أنني أستطيع قضاء بعض الوقت لدى باعة الكتب في تقليب المجلات وبعض النشريات، ثم الجلوس بهدوء في زاوية أحد المقاهي لِكَرْعِ أقداح من الشاي الثقيل. دخلت مكتبة (ايمجة) وسألت الفتى الأسمر الذي يجلس أمام الحاسوب إن كانت الطبعة الثالثة من كتاب (حياة السيد تريسترام شاندي وآراؤه) قد وصلت إليهم أم لا؟ كنت قد ضيّعت نسختي من الكتاب وكانت من نسخ الطبعة الأولى. بعد أن ضيّعت الكتاب وصار مكانُه في مكتبتي فارغاً. كان ذلك يحزّ في قلبي أكثر من أي شيء آخر. مال الفتى على الحاسوب ودقَّق النظر إلى الشاشة، ثم عاد إليّ وأجابني مثلما كان يفعل في الأيام الماضية. ألقيت نظرة خاطفة إلى الرفوف ثم هرعت إلى الخارج. دخلت مقهى ما في طريقي، اخترتُ ركناً هادئاً، جلست فيه بالقرب من مدفأة كهربائية لها أرجل، وشربت ثلاثة أقداح شاي، إلا أن الوقت كان يمرُّ ثقيلاً. حينما انتهيت من كَرْع الشاي انتابتني حالةٌ غريبة من السأم، لم أجد لها تفسيراً. دفعتني إلى أن أشدَّ

أزري من جديد وألقي بنفسي خارج المقهى. وبخطوات سريعة وجدت نفسي أقف أمام (مرجان ميديكال) خُيِّل إليَّ أن الجو كان ساكناً إلى تلك اللحظة، كأنه ينتظر مني أن أنهض من مكاني لكي يريني مدى قسوته. فما كان من السماء إلا أن تغيّرت، والغيوم التي كانت تتلبّد خلفَ العمارات الشاهقة وأمامها اتَّخذَتْ وضعاً مختلفاً. حتى أن ذلك الفراغ الرصاصي الذي يحاصر المدينة كان قد خرج من مكمَنِه بخِفَّة، وصار يُرى بالعين المجرَّدة. وقبل أن أقطع شارع (المشروطية) بدأتْ الثُّلوج تتساقط، ثمَّ أخذَتْ تشتدّ شيئاً فشيئاً. من بين مئات السيارات وأصوات التزمير التي كانت تصمّ الأذان ومن بين زحام البشر حاملي المظلات الواقية من المطر أخذت أشقُّ طريقي حتى وصلت إلى باب (مرجان ميديكال) وقفتُ لدى الباب. نفضتُ نديف الثلج المتجمع على كاهلي ثم ضربت قدمَيّ على الأرض بشدّة كي أوقع ما علق بهما من ثلج ووحل. حين دخلت المتجر تقابلتُ مع تلك الفتاة الجميلة. كانت قد أسندت كتفها الأيسر إلى الحائط، تنظر صوب الباب. حينما رأتني انتابها قلقٌ ليس في محلِّه. قالتْ لي: أيّها السيد! أبوك قد غادر قبل نصف ساعة.

ظننت أن كلَّ الثلوج التي كانت تهطل في الخارج جاءت برمَّتِها وتكدَّسَتْ على صوت هذه الفتاة.

تسمَّرتُ لدى الباب. سألتُها بصوت مرتجف:

- ألم يقل لكِ أين هو ذاهب؟

فأومأت الفتاة برأسها راسمة علامة النفي.

بالطبع لم أفهم لماذا غادر في الثانية والربع بعد الظهر، في حين أنه أوصاني أن آتي إليه في الساعة الخامسة عصراً. عدتُ أدراجي وقد توقَّعت أنه لا بدَّ ذهب إلى موقف الأوتوبيس الذي نزلنا منه، فخرجت من المتجر مسرعاً، ورحت أعدو في شارع (مدحت باشا) نازلاً عبر منحدره باتجاه (سوق صحية). كنت أفكر أنني لا شكَّ سأعثر عليه لأنه يمشي على عكازة، وأنا أركض. إلا أنني لم أجدْه. وصلت إلى

(سوق صحّية) وجُلتُ ببصري في الجوار فلم أجده. عدت أدراجي إلى (مدحت باشا) من جديد ولكنني عبرت إلى الجهة المقابلة، وبدأت أمشي على الرصيف المقابل، حتى بدأت أتنفّس بصعوبة. وحينما وصلت إلى دائرة بريد (يني شهر) كنت منهكاً لا أقوى على نقل خطوة أخرى. وقفت هناك لألتقط أنفاسي وأسندت ظهري إلى الحائط بالقرب من كابينات الهواتف المنصوبة عند مدخل الدائرة. نفضت ما تجمَّع من الثلوج من على رأسي وكاهلي، وارتجفت كأني عصفور مهدَّد بالموت. نظرت يمنة ويسرة وارتجفت فزعاً. وفي أثناء ذلك كانت الثلوج تهطل بشكل جنوني، تتساقط على المدينة وكأنها ستائر سميكة.

مشيت على طول الرصيف ثم دلفت إلى شارع (يوكسل) ومن ثَمَّة وبخطوات سريعة عبرت من تحت بضع أشجار كانت منتصبة هناك، ونزلت باتجاه الشارع المشجر، ومن هناك وصلت قبالة (سوق ظفر) بوثبة واحدة. صعدت عبر السلالم التي كانت في جهة اليسار وطلعت إلى شارع (مدحت باشا) من جديد، ولم أجد أبي. كنت أشعر باليأس، أكاد أنفجر باكياً، ولكنني كنت أتمالك نفسي بصعوبة بالغة. وفي هذ اللحظة لو قابلت شخصاً ما أعرفه لقمت ببثّ همومي، وشكوت له قِلَّة حيلتي وبكيت بكاءً مريراً. كنت أنتظر هناك تحت رحمة الثلوج وهي تهطل كأنها ستائر سميكة تهبط من السماء. أقف مكتوف اليدين لا حول لي ولا قوة، أقلّب وجهي ذات اليمين وذات الشمال. وفي أثناء ذلك رنّ هاتفي الجوّال فمددت يدي المبللة إلى جيب معطفي وأجبت على الفور.

– ألو! أتصل بك من محل (قرطاسية أوزدمير) في زقاق (سزينلر) أيّها السيد، والدك ينتظرك هنا في محلّنا. قالها الصوت على الطرف الآخر من الخط. ومن شدة فرحي كدت أتلقّى صاحب الصوت بالأحضان وأقبّله. فلو كان الشخص المتكلِّم موجوداً أمامي لاحتضنتُه وطبعت قبلةً على خدّه. ولا أتذكر إن كنت شكرته أم لا! ولكنني ركبت سيارة أجرة على الفور وطلبت إلى السائق أن يستدير إلى الاتجاه المقابل نحو شارع

(نجاتي بيه) ومن هناك إلى زقاق (سزينلر). كان هذا الزقاق أشبه بغاليري للسيارات منه إلى زقاق عادي لكثرة السيارات المركونة فيه. في الطابق الأرضي من العمارة الثالثة كان محلّ (قرطاسية أوزدمير) قائماً بلوحته الكبيرة. طلبت إلى السائق أن يتوقف. وقبل أن يركن السائق سيارته في مكان مناسب ترجَّلْتُ وسط الزقاق. لم تتسنَّ لي رؤية المبلغ على لوحة العدّاد إلا أنني حين نزلت من السيارة انتبهت إلى حركة ماسحات الزجاج الأمامي حين مدّ السائق يده ليأخذ الورقة النقدية التي دفعت بها إليه، ثم هرعت إلى خارج السيارة على عجل.

وفيما كنت منطلقاً صوب المحلّ، أمرُّ من بين السيارات المركونة على الرصيف خرج أبي من باب المحل على مهل وهو يتوكَّأ على عكازته. نظر باتجاهي وكأنه يحاول التعرُّف عليَّ مَن أكون! أنا الآخر توقَّفتُ حين رأيتُه، دُهشت! كان أبي في حالة مزرية. كأنه سقط في بركة طين. التصقت خصلات شعره بفروة رأسه، كانت هنالك أعشاب وكناسة عالقة على متنه.

- ماذا جرى لك أبي؟! - قلت بدهشة.

وما إن قلت له ذلك حتى أسبَلَ نفسَه للبكاء. رفع يده السائبة وغطَّى وجهَه وأخذ ينشج في بكائه. تخرج كلمات وأصوات غريبة من فمه، يفتحها وكأنه يريد أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة. وكلما استرسل في نشيجه كان يتألَّم وكأن أجزاءً من داخل أحشائه تتشظَّى مع كل حشرجة.

تقرَّبتُ إليه ومسكت ذراعه: «الله يحفظك يا أبي! ماذا حدث لك؟» - سألتُه.

لم يكن يقوى على الكلام. نفض ذراعه، ولوّح بيده، كأن به يقول هيا بنا لنمضي.

عدنا إلى البيت مسرعين بحسب استطاعته في المشي، لم يتفوَّه بأية كلمة طوال الطريق. طأطأ رأسه وأنشأ يرتجف تارة، وينشج في البكاء تارةً أخرى. وجدت أنه جاء إلى (أنقرة) بنفس الجلباب الذي كان يذهب

به إلى مقهى البلدة، فأخرجت له بعض الملابس ووضعتها على الكنبة. وفيما كنت أخرج إلى الغرفة الثانية قلت: هيا يا أبي انزعْ ملابسك والبس هذه. لقد أصابك بردٌ شديد.

فكَّرتُ أن التدفئة المركزية ربما لا تكفي لتسخين جو الغرفة، رحت مسرعاً وجئت بمدفأة كهربائية. شغلتها ووجهتها صوب الكنبة التي يجلس فيها. بدا لي أنه قد شعر بالدفء يسري في جسده، إذ أخرج ساقه الاصطناعية وركنها إلى الحائط ثم استلقى بتؤدة في مكانه نفسه، وسحب البطانية على جسمه.

- هل كِنَّتي في العمل؟ - سألني.

- نعم في العمل، والبنت الصغيرة عند جدتها - قُلْت.

فأومأ برأسه علامة الاستحسان ذلك أن كنَّته وحفيدته لم تكونا في البيت ولم ترَياه على هذه الحالة.

- لمَ لمْ تنتظرني يا أبَتِ؟ قلتُها بنبرةٍ معاتبة.

فاضت عيناه عندما سمع مني هذا الكلام، ثم لاذ بصمت عميق وهو يمسك فكَّيه لا يفتحهما لمدة ما، خشية أن ينفلت الأنين الذي ظل إلى الساعة يحبسه في حنجرته. في تلك الأثناء تكوَّنتْ الندبة نفسها على خده. ندبتان لا وصف ولا شبيه لهما. كأنهما فجوتان، مجرَّدُ ظلَّين عميقَين ارتعشا لعدة مرات.

- ضجرت يا ولدي، ضجرت. قالها ثم أضاف: لقد ضجرت من الدوران كل يوم في تلك الصالة مثل بغل الناعور.

- يا أبي! أبلغونا منذ اليوم الأول أن هنالك تمارين يجب القيام بها. وأنت تعرف ذلك. اشترطوا القيام بتلك التمارين لأنهم أصحاب خبرة. ربما هنالك أمور لا نعرفها نحن. لا يطلبون إجراء مثل هذه التمارين، إلا ولهم فيها غاية.

أبي لَمْ يَحِرْ جواباً، بل اكتفى بهزّ رأسه.

- حسنٌ! ماذا جرى لك يا أبي؟ سألته.

قضى بعض الوقت وكأنه يفكّر ولاذ بأذيال الصمت في محاولةٍ منه لاستعادة ما جرى له.

- بعد أن خرجت من هناك لا أعرف إلى أين قادتني خطواتي. قال ثم أضاف بصوت واهن: مشيت لوحدي مسافةً لا بأس بها إلى أسفل المنحدر. ثم اجتزْت الشارع إلى الرصيف المقابل فوجدْتُ نفسي وسط مكان فسيح، محاطاً بالأشجار من كل صوب وحدب. تصوّرت أن المكان هو حديقة عامة. فيها شيء غامق اللون كأنه جدار انبثقت منه هياكل متراصفة مع بعضها بعضاً. وكانت هنالك على يمينهم وشمالهم أشكال نصف بارزة، ناتئة من الحجر.

قلت له:

- أي نعم... إذن دخلت إلى (كوفن بارك)[2].

- لا أعرف ما اسم ذلك المكان، قالها ثم تعدّل في استلقائه معتمداً على كوعه واسترسل في حديثه:

- أجل هنالك وفي غمرة هطول الثلوج لم أدرك أنني حين كنت أمشي قد وصلت إلى وسط حوض متجمد. ثم تكسّرت طبقة الجليد تحت قدمي فغطست في الماء. عندما سقطت في الماء انزلقت عكازتي من بين يدي وفقدتها. بعد ذلك بينما كنت أصارع من أجل البقاء حيّاً في الماء بين طبقات الجليد، كان هنالك الكثير من الناس يمرّون بالقرب مني ولكن لا يكلف أحدٌ منهم نفسه عناء الالتفات نحوي أو النظر إليَّ.

2- كوفن بارك حديقة عامة تقع في وسط (أنقرة) في ميدان (قزل آي). هي اليوم معلمٌ من معالم العاصمة التركية (أنقرة). فيها أماكن للتنزُّه ونُصبٌ جداري يجسِّد جهود المزارعين والقوى العاملة المنتجة. من تصميم المهندس والفنان الأسترالي (كليمنس هولزميستر). تحتوي الحديقة على مساحات مشجَّرة أضيفت إليها فيما بعد أماكن جديدة زودت بمقاعد للجلوس، كما خصّصت فيها مساحات كبيرة اتخذت كمواقف للسيارات والحافلات الحكومية. فيها جنائن خاصة للأطفال وأماكن خاصة لراحة المسنين. صارت الحديقة فيما بعد قبلة للتجمُّعات الجماهيرية ومنطَلَقاً للمسيرات - المترجم.

ولم يهبّ أحد منهم لمساعدتي. هل فهمت يا ولدي! لم ينظر إليَّ أحد، لم يسمع أحد استغاثَتي.

وبدأ بالبكاء مجدداً، فكان يهرق دموعاً خضراء حَرَّى.

– ما فات مات – قلت – لا تحزن يا أبي هكذا هي الدنيا! أنت تعرف.

قمت وتوجهت إلى المطبخ لأحضر الشاي وكان هدفي أن أتركه وحيداً لبعض الوقت. فكَّرتُ مع نفسي وقلتُ سيكفُّ عن البكاء إذا بقي لوحده. فأمضيت بعض الوقت أنظر عبر نافذة المطبخ إلى أشجار الصنوبر المكلَّلة رؤوسُها بالثلوج. فكرت مؤنِّباً نفسي «لو لم أتركه وحيداً هناك لما جرى له ما جرى».

ذلك اليوم أغلقنا موضوع (كوفن بارك) ولم نتطرَّق إليه قط. قضينا أمسية امتد فيها الصمت لساعات طويلة لا يعكر صفوها سوى طقطقة ملاعق الشاي الصغيرة. بالطبع لم يستطع أبي الصمود أكثر فأخذه النوم مبكراً.

في اليوم التالي خرجنا من البيت في ساعة من ساعات الظهيرة وكأننا شبحان صامتان. ذهبنا إلى (مرجان ميديكال) فاستخدم أبي رجله الاصطناعية دون رغبة، وخطى بها على مضض بضع خطوات. ثم راح يذرع الصالة جيئة وذهاباً حتى اقترب إلى مكتب السكرتيرة. قال لها: أنا ضبطت المسألة، سأعود إلى البلد.

انتابتني الدهشة. فلا السيد (اسفنديار) الذي انطلق من مكتبه بعد أن أخبرته الفتاة بالموضوع ولا أنا استطعت ثنيَه عن قراره. أخذنا نكلِّمُه ونشرح له كل الاحتمالات، إذا حدث كذا وكيت، إلا أنه كان قد اتَّخذ قراراً لا رجعة فيه.

– ولكننا اتفقنا معك على هذه الشروط، قالها السيد (اسفنديار) قلنا إنك ستغادر من هذا الباب وأنت تمشي بلا عكازة.

– إذن اسمحوا لي، قالها أبي ومال برأسه قليلاً إلى جانب: لا يسعني

إلاّ أن أقول لكم عملتم الطرف الاصطناعي بشكل جميل. وعلى أي حال سوف أتعود عليه كلما استخدمته.

ظل السيد (اسفنديار) يشيِّعنا بنظرات حائرة وهو يفرك يداً بيد.

– لا داعي! لن نمرّ بالبيت يا ولدي. قالها أبي حين ركبنا سيارة الأجرة: يتوجب عليَّ أن أغادر مبكراً لكي أستقل أوَّل قطار ذاهب إلى (دنيزلي).

أعلم أنه لن يقبل بالبقاء حتى إذا توسَّلت إليه.

– السفر بالقطار صعب وفيه مشقّة يا أبي. ابْقَ لأرسلك بالباص.

فأومأ برأسه علامة تفيد أنه من الممكن أن أفعل ذلك بنفسي.

-2-

حينما عادت (سحر) من العمل مساءً نظرَتْ إلى وجهي بحيرة فقلتُ لها:

- لقد ذهبَ!

- هل ذهب حقاً؟ - سألتْ وهي تنضّ معطفها السميك وتعلّقُه على شمَّاعة الملابس. ولِمَ العجلة؟

- أبي هذه طبيعتُه. أنت لا تعرفينَه! قُلْتُ، إذا اتّخذ قراراً فلا أحد يستطيع أن يثنيه أبداً.

- حسنٌ هل ترك العكازة؟ - سألتني - هل يمشي بساقه الاصطناعية براحته؟

- لا! للأسف ليس بعد - قلت لها.

كنّا قد بدأنا معاً بإعداد الطاولة لتناول طعام العشاء. كان يتردَّد في الخارج صوتُ الأذان، يتصادى من بعيد وهو يلطم أشجار الصنوبر المكلَّلة رؤوسها بالثلوج. نشرة الأخبار كانت تقرأ في التلفزيون الموضوع في إحدى أركان الغرفة. ثمّة ضوءٌ أزرق ينعكس من شاشة التلفاز على الصحون في أيدينا.

- لقد تصرَّف بعُجالة - قالتْ (سَحَر) حين جلسنا إلى مائدة الطعام - حسنٌ فما كان سبب الأوحال العالقة في ملابسه التي غسلتها البارحة؟

نظرت إلى (آيبري) بطرف عيني بينما كانت منشغلة في الخوض بالملعقة في الأكل الموجود أمامها، أجبت على سؤالها قائلاً:

– سأكلمك فيما بعد بهذا الخصوص. ولكنني أستطيع أن أقول لكِ إن سفرية أبي إلى (أنقرة) انتهت بفشل ذريع.

ثم تبادلنا النظرات. وفي الحقيقة أنني عندما رفعت رأسي وجدتها تنظر إليَّ بدقة واهتمام. ولمستُ في نظراتها مخاوف كأنها ستائر مخملية تخفق في الأفق البعيد، ترفرف في مهب الريح ولا تكفُّ عن الحركة.

– هل حدث شيء ما؟ – سألتُها.

– لا – قالت.

بعد أن خلدت (آيبري) إلى النوم ارتدينا أنا و(سحر) معطفينا وخرجنا إلى الشرفة في البرد القارس. في بادئ الأمر تحدثتُ عن محاولة أبي لتقديم المساعدة لسائق كانت سيارته عالقة، تتزحلق على حدبة في الصعود باتجاه زقاق (أولكونلار). بعد ذلك شرحت لها كيف فقدتُه، وبحثي عنه في الشوارع، وتنقُّلي مثل الفراشة من هنا إلى هناك، ثم عثوري عليه في حالة مزرية. بنبرة ملؤها الحزن تحدثت عما جرى لأبي في (كوفن بارك) مثلما سمعت منه.

– غريب جداً قالت (سحر) كنت أعتقد أن هذه الأمور لا تحدث إلا في الأفلام والروايات.

أردت أن أقول لها إن الحياة تسبقنا أحياناً وتتسارع وتيرتها بسرعة أكبر مما نتوقع ولكنني غيرت رأيي ولم أقل لها كلامي هذا، إذ خُيّل إليّ أن هذه الجملة مثلها مثل الكلام المبالغ فيه، الذي نحمّله أكثر من طاقة استيعابه. فولَّيتُ وجهي إلى جانبٍ آخر، بدأتُ أجولُ ببَصري على أشجار الصنوبر، حيثُ تظهر من بين أغصانها نباتات الأسيجة والأسلاك الشائكة وعلى المصابيح الصُّفر في الأزقّة. وعلى البريق المتجمِّد المرتعش على صفحة الجليد الذي يغطِّي الأرصفة.

– الحادثة المرورية التي تذكرها دوماً، كيف جرت؟ بادرتني (سحر) بالسؤال فيما كنت أرنو إلى بعيد. ففي كل مرة تقول لي كانت مجرد حادثة، ولكن لمْ تتحدَّث عن تفاصيلها.

- مجرّد حادثة! - قُلت - حادثة مرورية.

- حسن كيف حدثت وأين؟ - سألتني مجدداً.

- إنها قصة طويلة.

- لتكن - قالت - فالبنت تغطُّ في نوم عميق الآن... أنا أسمعك.

- في تلك السنوات كان أبي سائق شاحنة. قلت لها وأنا أُطفئ سيجارتي وأشعل واحدة أخرى: كان ينبض نشاطاً وهمّة، ولا يعرف معنى الراحة. كان يذهب إلى خارج البلد باستمرار. في ذات يوم سمعنا أنه عمل حادث في السعودية، بالقرب من منطقة (تبوك) التي كانت بمثابة أول محطة ينزل فيها موكب (سُرَّ)[3] في العهد العثماني. كان أبي منطلِقاً بشاحنته، يمضي تحت جُنح الليل صوبَ تلك المنطقة التي فيها انعطافة حادة. هنالك واجهته شاحنة معطوبة واقفة على الطريق مثل قطعة داكنة السواد. تفاجَأ بها ماثلةً أمامَه كأنها خرجت من جوف الظلام، فلم يستطع كبحَ سُرعة مركبَته، ولم تكن هنالك أية إشارات تحذير فدخل بشاحنته في قلب تلك الظُّلمة. اصطدم بتلك الشاحنة. ربما كان يسوق الشاحنة بسرعة أعلى من المعدل المسموح به. ولكن الذي عرفته فيما بعد هو أنّ أبي كان قد علق في كابينة القيادة، وظلَّ يتألَّم ويصرخ «أنقذوني! يا ناس أنقذوني لوجه الله!»، ولكن الناس الذين تجمهروا هناك لم يتدخَّلوا. انتظروا مجيء الشرطة. قالوا لا يمكننا التدخل ما لم تأتِ الشرطة. نُقِلَ إلى المستشفى في (تبوك) بعد فوات الأوان فقرَّر الأطباء بتْرَ ساقِه اليسرى من تحت الركبة.

3- موكب كان يُنظم في العهد العثماني منذ حكم السلطان (ياوز) من أجل إيصال الهدايا التي يرسلها الناس إلى الديار المقدسة... يبدأ التحضير للموكب قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من موسم الحج. يخرج من أقاصي الأناضول ويمرّ باسطنبول، فيحمّله أعيان الدولة هداياهم ثم يضع السلطان هديته أخيراً ويتم توديع الموكب باحتفال رسمي وشعبي. وكلما مرت القافلة الكبيرة بمدينة انضمَّت إليه قوافل الحجاج. كان الموكب يسلك طريقه إلى الشام ثم إلى الأردن وفلسطين ويدخل من منطقة تبوك إلى أرض الحجاز وصولاً إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة - المترجم.

مالك الشاحنة رجلٌ يعيش في برلين. لمَّا سمع الخبر جاء إلى تركيا في تلك الأيام. جاء يحمل حقيبته يسعى هنا وهناك من أجل أن يحصل على إذن بالسفر إلى السعودية. فقد كان يتحتَّمُ عليه أن يحضر شخصياً في جميع المراجعات الرسمية. أما أنا فكنت أذهب إلى دائرة البريد لشراء الفيشات كي أستعمل الهواتف ذات الدفع المسبّق الموضوعة في كابينات بالقرب من الدائرة، لأتحدث إلى أبي الراقد في مستشفىً يبعد عنا آلاف الكيلومترات. كنت ألاطفه كما يلاطف الرجل أي طفل، وأبذل ما بوسعي للتفاهم مع العامِلين في المستشفى. وبلغتي الإنكليزية المتفحّمة وبالكاد أقدر على أن أتفاهم مع عامل البدالة لكي يربط الخط مع غرفة أبي. فكان أبي يبادر إلى القول: «أوّاه يا ولدي أوّاه! لقد أضعت إحدى ساقيّ في صحراء العرب». كان يبكي ثم ينشج في بكائه. بعد ذلك كان يمسح دموعه ثم يمطرني بوابل من الأسئلة عن حقل العنب: «ماذا فعلتم بالعنبات؟ هل جنيتم المحصول؟»، وكأننا لا همّ لنا غير العنب. كنت أقول له: «نعم جنينا المحصول». يقول لي: «يا ولد لماذا تجفّفون كل المحصول؟ لم لا تتركون كمية منه لاستخراج دبس العنب؟»، فأقول «نعم لقد تركنا كمية معينة منه لهذا الغرض». يسألني «هل بِعْتم كمية منه بشكل طازج؟» أقول مجيباً إياه: «نعم بعنا!»، وبعد انتهاء موسم جني الكروم وضع عقله في أهل البلدة، وأخذ يسألني ماذا يفعل الشخص الفلاني؟ وكيف حال فلان وعلاّن؟ وهل زوّج فلان ابنه، علان هل دفع ابنته؟ كان يسألني عن جميع معارفه من أهل البلدة، حتى أنني لم أكن أعرف الكثيرين منهم ولم أكن قد سمعت بأسمائهم من قبل. في تلك السنوات كنت قد ابتعدت عن البلدة، إذ لم أكن أعيش فيها، ولا أعرف أي شيء عن جني الكروم. ومع ذلك كنت أجيب على تساؤلاته بأجوبة معقولة ومطمئنة. وهكذا قضيتُ شهرين ونصف الشهر بالتّمام والكمال وأنا أسايره في الحديث. أبكي لبكائه، وأحياناً كنت أفقد السيطرة على نفسي فأجهش بالبكاء.

في ذات يوم جاء أبي من السعودية يمشي على عكازتين، يرتدي ملابس بيضاء. ينظر إلينا بنظرات خاوية، فارغة من أي معنى. تهدَّلتْ من جوانب وجهه لحية كثّة تكاد تملأ حضناً. بدا لنا متعكِّر المزاج متجهِّم الملامح. وإن يكُ قد جاءنا بلحمه ودمه إلا أنه قد ترك روحه هناك في صحراء (تبوك) مع ساقه المبتورة.

قالت (سحر): «هذا مؤلم حقاً».

أنا الآخر كنت أرتجف كلما نظرت إلى مصابيح الزقاق التي كانت ترتعش. في الواقع الاسترسال في الحديث كان وقعه جيداً بالنسبة لي. صحيح لم يبدِّد الغيوم القاتمة التي كانت جاثمة على روحي ولكنه جعل لونها فاتحاً. أطفأت سيجارتي في طفاية السجائر الموضوعة على المنضدة وأخذت أرتجف من شدة البرد.

- الجو شديد البرودة - قالت (سحر) وأخذت تفرك كفّاً بكف - حان الوقت لنشرب القهوة، هيا بنا.

ذهبنا إلى الداخل، الواحد منا يتبع الآخر. حينما جلست على الكنبة قبالة التلفزيون تبيَّنَ لي كم ابتردت. كانت نشرة الأخبار تقدّم على الهواء، يقرأها مذيع ذو عينَين رماديتين مائلتين إلى الزرقة. نبرات صوته تدلُّ على حزنٍ عميق إزاء ما يقرأ من أخبار وهي انفجاران ناجمان عن تسرب غاز أدَّيا إلى مقتل ثلاثة عشر شخصاً وجرح ثلاثة وخمسين آخرين، في اثنين من مواقع العمل في المنطقة الصناعية (أوستيم)[4] ومن خلف المذيع كانت هنالك سحب سوداء من الدخان تتصاعد. تثير سيارات الإسعاف التي سيقت إلى موقع الحادث ضجيجاً وصخباً عارماً. تدور أضواؤها الحمراء مع انطلاق زعيقها المتواصل. ثم أضفى المذيع شيئاً من القسوة إلى ملامح وجهه وانتقل إلى خبر عن سقوط حافلة نقل تغصُّ بعدد كبير من المسافرين إلى أحد الوديان على طريق اسطنبول - بارتين. ومن خلال مشاهد مفجعة من الحادث الذي لم يعرف بعد أسبابه قال

4- مركز الشرق الأوسط للصناعة والتجارة في أنقرة عرفت بتسمية (أوستيم) - المترجم.

المذيع إن الحادث أسفر عن مقتل سبعة أشخاص وجرح أربعة وثلاثين راكباً كانوا على متن الحافلة.

– موت في كل مكان! – قالت (سحر) حين جاءت بفناجين القهوة.

كانت جالسة قبالتي إلى الكنبة، تحمل بيدها جهاز التحكم عن بعد وقد خفّضت صوت التلفزيون إلى الآخر.

– أنتِ محقة – قلتُ – موت في كل مكان.

بعد ذلك – لا أدري ربما كان ذلك من محاسن الدردشة – بدأت فجأة بالقول:

– كان جَدّي رجلاً مسكيناً لا أدري في أية حرب وفي أية جبهة من جبهات القتال وقع أسيراً، بينما كان يقاتل إلى جانب رفاقه الجنود. كانت جدتي تتلفَّظ كلمة (أسير) بشكل مثير للضحك. وبحسب علمي فقد مكث في الأسر نحو خمس سنوات أو أكثر. تخلَّص بعدها من الأسر – لا ندري كيف تخلّص – بعدما فقدنا الأمل من عودته سالماً. عاد في ذات يوم ما وكان في حالة يرثى لها؛ جائعاً حافياً رثَّ الثياب. جاء عبر البراري والوديان. ظهر فجأة من خلف أجمة السرو الجبلي، من بين صخور المرتفعات. الذين رأوه من أهل القرية تحلقوا حوله وقالوا: أوه أليس هذا (حسن) من أولاد (عثمان تاتا)! ثم راحوا يمطرونه بوابل من الأسئلة. وكان جدِّي قد تغيَّرت أحواله ولم يعد كما كان في سابق عهده. فقد كان مذهولاً، ينظر بعينين جاحظتين، يقلّب وجهه بين الناس ولا يستطيع الإجابة على أسئلتهم. يروى أنه ظلَّ ينظر إليهم بهبل، ثم صاح: «أنا جائع، ائتوني بقطعة خبز آكلها». فهرعوا وجاؤوا إليه بقطعة خبز، شقّوها نصفين ووضعوا بينها قطعة من الطماطم ونصف بصلة، ثم أضافوا عليها شيئاً من الملح. فابتلع ما قدّموا له، ولكنَّه لم يثُبْ إلى رشده. كان يعاني من حالة غريبة، تعذَّر على سكان البلدة تشخيصها. ظلُّوا ردحاً من الزمن يتساءلون فيما بينهم، ويتفكَّرون فيما يعاني منه الرجل حتى انقضت عدة أسابيع. بعد ذلك راح جدي إلى جبل (بيشبارماك) وصعد

إلى أعلى قمة فيه وأخذ يعوي بألم مثل أي ذئب جريح. ولا أدري إن كان يعوي لأنه تذكَّر سنواته في الجبهات التي كانت تفوح رائحة بارود ودماء، أم أنه كان يستذكر عذاباته في الأسر؟ أم أنه كان يتخيَّل الأيام التي قضاها في حياته وأحلامه التي لم يبحْ بسرِّها لأي كائن مهما كان؟ ترى هل كان يعوي من أجل رغباته هذه؟! بالطبع لا أدري. هذه العواءات كانت تجتاز بيوت الطين في البلدة، وتنتشر كأمواج متعاقبة على هضبة (باكالان). كل الأشياء كانت تتشرَّب هذا الصوت الذي يتردَّد رجعُه كريح حزينة، تُزمِّرُ نافخةً في سيقان الحنطة والشعير النابتة التي ارتفعت بعُلُوّ ركبة الإنسان. ولهذا السبب بدأ أهل البلدة ينادونه (حسن الوحش) بدلاً من (حسن) بن (عثمان تاتا).

– ما معنى (تاتا)؟ – سألتْ (سحر).

– حسب علمي أنها تعني الرّجل التأتاء.

– جدي الأكبر قد اشترك في الحرب أيضاً – قالت (سحر) – خدَمَ في (بلفن) تحت إمرة الغازي عثمان باشا، كان المرحوم يحدثنا عن قتاله في الحروب، وأنه كان يحتفظ بتميمة يعلقها إلى رقبته، وبين الحين والآخر كان يرينا إياها. كان طرف منها مقطوعاً ومخضباً بالدماء، يحفظها في منديل أبيض. بين الحين والآخر كان يخرج المنديل. يفتح العُقَد والطويات على مهل وهو يرتِّل الأدعية. يقول إنه ورثها من آبائه وأجداده. عندما يفتح المنديل كنا ننبهر أيَّما انبهار! حتى أننا كنا نتصوَّر أنَّ الجنود الذين قاتلوا في (بلفن) سوف يخرجون من هذا المنديل. نفتح أعيننا على وسعها وتتزايد نبضات قلوبنا. في الحقيقة لا أعرف هل حقاً كانت تلك التميمة لجدي الأكبر أم لجدي الذي جاء من بعده. وإذا كانت له فهو قد استشهد في (بلفن) فكيف حصل عليها جدي الأصغر؟ لا أعرف أين تكمن الحقيقة. كنا نسأل جدي بدافع الفضول، ولكنه لم يكن يتحدث عن ذلك الموضوع قط.

– على أيّ حال فإن جدَّكَ عاد من الحرب.

– أجل عاد! – قلت. بعد ذلك انفتحت شهيتي للكلام بشكل عجيب – عاد إلى البيت ولكنه لم يعشْ طويلاً. حين وافتْه المنيَّة كان أبي في الحادية عشرة من العمر، فترعرع في البؤس الذي ورثه بعد وفاة أبيه، وكبر متمسِّكاً بتلابيب جدَّتي التي كانت تضوع عشباً مرّاً. كان عليه أن يتشبَّث بالمرتفعات الصخرية المطلَّة على البلدة وبالموسم الذي ينضج فيه العنب حتى بلغ سن الجندية. هناك عندما راجع دائرة التجنيد في بلدة (تشال)[5] وأعطى معلوماته أرسلوه إلى صنف (النقلية) في الجيش. تعلَّم السياقة في معسكر يقع على سفوح جبل (استرانجا). وبعد أن أنهى الخدمة العسكرية وعاد إلى البلدة، تمَّ تعيينه بصفة سائق في البلدية. أعطوه سيارة جيب من سيارات البلدية. ولكنه ترك هذه الوظيفة بعد مضي شهرين ونصف أو ثلاثة أشهر. لأن روحه لم تكن تعرف معنى الخضوع. أما في الوقت الحاضر فقد صارت سيارات الجيب الحكومية في خبر كان، لأن الدولة تخلَّت عنها منذ زمن بعيد. يومئذ كنت صغيراً ولا أتذكر السنة التي أخرجت فيها سيارات الجيب من الخدمة. بعد ذلك عمل أبي كسائق أجير على شاحنات يخرج بها لمسافات طويلة. شاحنات يملكها أناس غرباء. نحن أفراد عائلته لم نكن نعرف من هم مالكو تلك الشاحنات. خلال تلك السنوات كان يغيب عن البيت مدة طويلة، وعندما يأتي لا يطيل المكوث. كان أبي في رحلة سفر طويلة حين أصيب أخي الصغير المرح (سعاد) بمرض الجدري. وقد علم بخبر موت ابنه بعد مرور أشهر عديدة.

سألتْني:

– بعد أشهر عديدة؟ أي أنه لم يحضر مراسيم الدفن؟

– نعم! للأسف لم يحضر.

– لا بد أنه حزن حزناً شديداً، يا إلهي! – قالت – إذن لم يحضر؟

5– بلدة تابعة إلى مدينة (دنيزلي) – المترجم.

– نعم لم يحضر للأسف... في أثناء غيابه تم اختيار مكان لدفن أخي الصغير في المقبرة الكائنة على سفح الجبل، على بعد ربع دونم عن أشجار اللوز. حُفِرت له حفرة صغيرة سوداء ثم وُوري الثرى. أُنزِلَ في تلك الحفرة وأهيل عليه التراب. في ذلك اليوم حين دُفِنَ أخي الصغير لم نكن نعرف أين أبي. فقد كان حضوره بالنسبة لنا مجرد رائحة كازولين، وعندما يبتعد فهو مجرد صوت محرك شاحنة. كما ذكرت قبل قليل، حين يذهب يطول غيابه وحين يأتي لا أحد يرتوي منه. لهذا السبب اعتدت الانتظار منذ صغري، مثلما اعتادت أمي وأخي الصغير. كانت أعيننا على الطريق، نتأمل أن يأتي غائبنا يوماً ما. كنا ننظر إلى نهايات الطرق البعيدة آملين أن نرى أحداً ما. وفي أغلب الأحيان كانت أحلامنا تتفحَّم وينتابنا الحزن حينما نلمح ضوءاً باهتاً من بعيد في أول المساء في مرمى البصر من الهضبة، أو عندما يتناهى إلى أسماعنا صوتٌ لمحرك شاحنة كانت آمالنا تخضرّ فجأة. استمرَّ حالنا على هذا المنوال لسنوات عديدة. بعد ذلك عاد أبي إلى البلدة وأقلَعَ إلى الأبد عن القيام برحلات طويلة. ولسبب ما تبدّلت الأدوار، إذ كان يتوجب على أبي أن ينضمَّ إلى شلَّتنا؛ شلّة المنتظرين أوالناظرين إلى بعيد. وبدافع الفضول صرنا نتساءل ترى ماذا كان أبي ينتظر؟ إذن صار الانتظار والنظر إلى بعيد قدَراً مكتوباً على جبين عائلتنا. أظنني سمعت بكاءً! أليس هذا صوت (آيبري)؟

نهضت (سحر) وهرعت من فورها إلى غرفة (آيبري).

أما أنا فبدأت ألملم الفناجين من على المصطبة الصغيرة. أخذتها إلى المطبخ ثم خرجت إلى الشرفة. دخَّنت سيجارتين الواحدة تلو الأخرى وأنا أجول ببصري على العمارات المجاورة وأنظر إلى أشجار الصنوبر مصغياً إلى غمغمات مرتعشة مجهولة المصدر. وبينما كان جمر سيجارتي يخبو ويتَّقد بين أصابعي وجدت نفسي في باب (مرجان ميديكال) أنطلق من هناك إلى أسفل المنحدر صوب شارع (مدحت باشا) بحثاً عن أبي، متوجِّهاً إلى (سوق صحية) ومن ثَمَّة عودتي إلى

دائرة بريد (يني شهر) حيث تنتصب أكشاك الهواتف، ومن ثَمَّة صعوداً إلى شارع (يوكسل)، ثُمّ إلى الشارع المشجَّر، ثُمّ إلى سوق (ظفر)، ومن بعد ذلك سلكت الطريق نفسه عبر السلالم الواقعة إلى الشمال صعوداً إلى شارع (مدحت باشا) من جديد. أدور هنا وهناك بلا هدف، تحت الثلوج التي تهطل وكأنها ستائر نازلة من السماء. نظرت يمنة ويسرة ثم انطلقت صوب زقاق (سزينلر) حيث جاءتني مكالمة هاتفية من محل قرطاسية (أوزدمير) تقول لي أبوكم هنا ينتظركم. فوجدت نفسي قد ازددت سرعةً أضعافاً مضاعفة حتى وجدت نفسي أمام المحل. وكأنني أصبحت أتنقّل كإشعاع. خرج إليَّ أبي ببطء من باب المحل وهو على تلك الحالة المزرية. متوكئاً على عكازته. عندما عثرت عليه نظر إليَّ في محاولة منه لمعرفة من أكون أنا! وبينما كان هذا المشهد يتكرر في مخيلتي للمرة الثانية – مشهد خروج أبي إلى باب المحل – حتى سمعت نقرات خفيفة على الزجاج. كانت (سحر) تنقر بخفة على زجاج الباب. التفتُّ ورحت أنظر إليها بنظرات خاوية، فارغة من أي معنى.

– أخشى أن تأخذ برداً، يكفي تعال إلى الداخل.

– هل نامت البنت؟ – سألتُها ورُحت جالساً إلى الكنبة.

– نامت. – قالت (سحر) – استيقظت لأنها رأت كابوسا.

– هل قصّت عليك؟

– لا لم تقصُص! سمعتها تنطق بكلمة دفتر. سألتها أي دفتر هذا يا ابنتي، ما هي مسألة الدفتر؟ ولكنها لم تُجبْني. احتضنَتني وعادت إلى النوم.

– في الأقل أذهب لأقبّل جميلتي. قلت ونهضت من مكاني كي أذهب إليها إلَّا أنَّ (سحر) أوقفتْني.

– رأتْ حلماً مزعجاً في منامها، فلا توقظها.

عدتُ وجلست إلى الكنبة مجدَّداً. وما زالت شهيَّتي مفتوحةً لسردِ ما حَدَث.

حينما أقلع أبي عن السفر لمسافات طويلة وعاد إلى البلدة وجد شلّةً من أصدقائه القدامى. لملموا مبلغاً من المال من هنا ومن هناك وابتاعوا باصاً مصغراً نوع مرسيدس. اتفق الشركاء الثلاثة على شراء شاحنة لونها أزرق ذابل، ذات حوض خلفي كبير. كانت أشبه بطوف منها إلى سيارة. وبعد أن أتمُّوا عملية الشراء أخذها أبي إلى (بورصا) لتحويرها. فأوصى بقلع بدنها وتركيب بدن آخر بلون البرتقال لسيارة (ميني باص)[6] تتسعُ لأربعة عشر راكباً. وعدوه هناك أن ينهوا أعمال التحوير في وقت قياسي، إلا أن المسألة طالت وطالت حتى تحولت إلى عقدة مستعصية. استغرقت عملية تحويرها سنة تقريباً. طوال هذه المدة بقي أبي في (بورصا) أما شركاؤه هنا في البلدة فقد جحظت عيونهم وانقلبت إلى قفاهم. ولا أخفيك سراً أننا نحن كأفراد عائلته، ساوَرَنا الشك بأنه لن يأتي بعد ذلك. فضلاً عن ذلك أنني كنت راقداً في المستشفى في تلك الأيام، وقد خرجت لتوي. كان هنالك جرح ما نشأ في مؤخر رأسي. فأوكلت مهمة تضميد جرحي إلى (إسماعيل صحية). كان هذا المضمِّد يأتي من مشارف البلدة. يمشي الهوينا على الطريق حاملاً حقيبته الجلدية السوداء. وبينما كان المضمِّد يقوم بفكّ اللفافات من رأسي وتضميد جرحي كانت أمي تمسك بيديّ، وزوج خالتي يدوس بكل ثقله على ساقي. كانت اللفافات تلتصق بالجرح في العادة فكنت أصرخ من شدة الألم. كنت أتلوى تحت أيديهم وأصرخ ملء حنجرتي: «أين أنت يا أبي؟ أين أنت يا هذا! الحقْني. أنقذني من بين أيدي هؤلاء!». كنت أتصور أن أبي عندما يحضر سوف يحمل (إسماعيل صحية) ويرمي به إلى خارج البيت. في حين كان (إسماعيل) يعمل في جرحي ويحفر فيه بملقطه

6- عربة لنقل الركاب، تتسع لعدد يتراوح ما بين ثمانية إلى أربعة عشر راكباً. تستخدم عادة لنقل الركاب بالأجرة في المناطق التي لا تصل إليها خدمة الباصات الكبيرة. قد تستخدم من قبل الشركات الخاصة لنقل الأفراد العاملين. أو تستخدم لأغراض النقل السياحي. جاءت التسمية نتيجة دمج ميني (صغير) و(باص) أي حافلة صغيرة. في بعض البلدان العربية تطلق عليها تسمية ميكروباص- المترجم.

ذي الطرف الحاد دون أي اكتراث بصراخي. كان ينبش في أحشاء آبائي وأجدادي كلهم. ويخيل لي أنه كان يحفر بحثاً عن أبي. وكان أبي ينزل مع مبضع المضمّد ليضيع هناك في غيابة جرحي. وفي نهاية الأمر خرج أبي من عمق الجرح في ذات يوم مبدِّداً كلَّ اللفافات البيضاء، مبعثراً إياها يمنة ويسرة. ظهر للعيان وهو يستقلُّ سيارة (ميني باص) تسير وتنشر روائح أصباغ فجّة. حينما وصل إلى البلدة تنفس بعض الناس الصعداء، واتسعت عيون بعضهم الآخر وتساءلوا: ترى أين قضى (عزيز) تلك الأيام خلال غيابه الطويل؟ وفي الوقت نفسه رأيت كيف صَغُرَ الملقط الكبير الذي كان يستعمله (إسماعيل صحية). بينما كانت هذه الأحداث تجري رأيت والدتي تتنفس الصعداء وتتورّد وجنتاها. ومنذ اليوم التالي لوصوله طوى أبي كمَّي قميصه وتسلّح بالعزيمة، ثم جلس خلف مقود السيارة وراح يعمل بهمّة ونشاط.

– أوه ما أروع هذا! – قالت (سحر) – هذا شيء جميل.

– أجل شيء رائع – قلت – نحن كعائلة كانت تغمرنا الفرحة ربما لأننا كنا نرى أبانا يعود إلى البيت مساء كل يوم. وهكذا مرَّت ثلاث سنوات عمد الشريكان الآخران إلى بيع حصَّتيهما لأبي عن طيب خاطر. لا أدري لماذا؟ ولكن، ربما لأن وارد السيارة لم يكن كافياً على ما يبدو ليديم أَوْدَ ثلاث عوائل. وهكذا صارت (الميني باص) ملكاً لنا وحدنا. وفي الوقت نفسه صارت تقدم خدمات جليلة لسكان البلدة. ففي الأعراس كانت تتحول إلى سيارة زفاف، فتزيَن مراياها ومقابض أبوابها بأشرطة لماعة وبالونات ملونة. وعند الحاجة تتحول إلى سيارة إسعاف لنقل المرضى، كما كانت تنقلب إلى سيارة أجرة لقضاء مختلف الأعمال الضرورية. حتى أنها استعملت في نقل الأثاث من بيت إلى بيت، لأن البلدة كانت تفتقر إلى وسائط نقل غيرها. وفي بعض الأحيان كانت تستخدم كواسطة من أجل نقل الدواب والغنم والماعز. وكان أبي يحمل فيها أكياس الحبوب وحتى سلال العنب. لم يردّ أبي طلب أي واحد من أهالي

البلدة وحسب بل كان ينزل عند رغبات الجميع عن طيب خاطر. بكل بساطة كان يفتح براغي الكراسي، يخرجها واحدة إثر أخرى ويركنها عند الحائط. وبعد إنتهاء الرحلة يتناول المفك الإنجليزي ويقضي ساعات طويلة ليعيد الكراسي إلى أماكنها وضبط براغيها. والعرق يتحلَّب من سائر أنحاء جسده. ومن الجدير بالذكر أنّ واحداً من كل ثلاثة ركاب كان يستقل السيارة بالدَّين أو يستأجرُها بالدفع الآجل. ففي كل مساء حين يعود أبي إلى البيت كان يجلس على مقربة من المصباح الغازي ليسجِّل أسماء المديونين في دفتر سميك ذي غلاف جلدي أسود. يثبت فيه تاريخ السفر والمكان الذي قصده الزبون. ومع مرور الزمن لم تعد صفحات ذلك الدفتر تكفي لتسجيل الدُّيون، لذلك استعان بدفتر إضافي آخر. وهكذا كان عليه أن ينكَبَّ على دفتره مثل أي طفل يقوم بكتابة واجبه البيتي وهو تسجيل الديون لئلّا يلفَّها النسيان. وبعد مرور سنوات على تلك الديون عاد إلى الدفتر ونقل كل المعلومات إلى قائمة طويلة، ثم خرج بها للمطالبة بديونه ولكنه لم يتمكن من تحصيل قرش واحد منها. بطبيعة الحال لم يتردَّد بعد ذلك من التخلُّص من الدفاتر، رماها في الموقد المصنوع من الصفيح. قذفها في النار لتحترق، وظلَّ ينظر إليها. استلقى على جانبه وأخذ يهزّ يده ويلوّح بها قائلاً: عليّ اليمين كان فيها مبلغ يكفي لشراء (ميني باص) آخر. وفي الحقيقة على الرغم من أنه لم يستطع تحصيل ديونه إلا أنه بعد عدة سنوات تمكَّن من شراء ميني باص آخر. فجاء بالسيارة إلى البلدة وركنها قبالة البيت إلى جانب السيارة الأُولى. كانت أعجوبة من أعاجيب الزمان. تشبه صرّة ثياب مرقّعة. ماركتها مرسيدس، محركها تايمس، أما في رخصة التمليك فقد كانت مسجلة على أنها شاحنة من نوع (سورير). ولم يكتفِ بهذا القدر من السيارات المختلفة وحسب بل ذهب إلى المدينة في ذات يوم واشترى مركبة أخرى، صفراء بلون الكناريا. كانت مجرد قطعة من الخردة. كان مثله في ذلك مثل جامع تحف يريد أن يضيف شيئاً جديداً إلى مجموعته. بعد ذلك قال قائل من أهل البلدة لم تعد لديه القدرة على شراء عجلة

أخرى. ولكنه مع ذلك لم يصبر فاشترى سيارة أخرى. ولسان حاله يقول: أي هؤلاء أنا أرمي فلوسي في أشياء أنتم تعتبرونها سقط متاع. هي ليست حيوانات، ولا تحتاج إلى طعام أو إلى علف.

- ما شاء الله! - قالت (سحر) - يمكن القول إن واجهة البيت تحوّلت إلى واجهة معرض لبيع لسيارات.

- بالضبط هكذا صار البيت. كل صباح كان يملأ إحدى هذه السيارات بالركاب ويذهب بهم إلى (تشال) أو إلى (دنيزلي). يركن سيارته في مكان آمن ويهرع إلى الشاحنة التي تركها بالأمس في سوق المدينة في ظلّ طيور السنونو المتطايرة هنا وهناك. وهكذا كان يعمل ليل نهار من دون أن يجد متسعاً من الوقت ليلقي نظرة إلى المركبات التي تركها قبالة باب البيت. كان يعمل في حمل أي شيء يكلّف بنقله. يحمل الطابوق والبلاط والقرميد والفحم والرمل والكبريت والاسمنت. وإن لم يجد من يكتريه راح إلى مواقع البناء وعرض عليهم خدماته في نقل الأحجار إليهم من مقالع الحجر الكائنة في الجبال. وفي بعض الأحيان كان يدير مقوده صوب بلدة (جيفريل)[7] ليحمّل شاحنته بصناديق التفاح كي ينقلها إلى مخازن التبريد.

كان أبي يعود في كل مرة نحو الفجر ملوَّثَ الثياب، جاءت عليه الأوساخ من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وعيناه محمرّتان.

- إذن كان كل شيء على ما يرام - قالت (سحر) - فما الذي دفع رجل مثله يملك عدداً من السيارات إلى العمل كسائق في شاحنة يملكها شخص آخر؟ لم أفهم هذا إلى الآن.

- هذا ما لم يستطع أحد فهمه، قلت لها: عدد من تلك السيارات التي تحدثتِ عنها قبل قليل كانت قد بيعت أثناء ذهابي إلى الجندية، ولم تبقَ أمام بيتنا سوى حافلتين مصغرتين لنقل الركاب لم نكن مديونين ولا مطلوبين بسببهما. بعد عشرين شهراً حينما تسرحت من الجيش وعدت

7- بلدة تابعة إلى مدينة (دنيزلي) تكثر فيها مزارع العنب والتفاح- المترجم.

إلى البيت لم أجد ولا واحدة منهما أمام منزلنا. بالطبع لم نعرف لِمَ باعَ أبي تلكما السيارتين، وكم هو المبلغ الذي قبضه وأين أخفاه؟ لم يجرؤ أي واحد منا على توجيه السؤال إليه وهو بدوره لم يفصح لنا عن ذلك. حتى وإن كنا سألناه أو ألححنا عليه لمعرفة ذلك لما فتح فاه ليبوح بسره. على سبيل المثال في السابق حين وقع في ورطة مع المرابين، لم يكلّمنا عن كيفية وقوعه في براثنهم، ولم يتقاسم همومه مع أي كائن مهما كان، بل انطوى على نفسه، ولاذ بالصمت. ظل لوحده يتلوى بين مخالبهم على مدى سنوات عديدة. في أيام العطل حين كنت أعمل لدى أبي كصبي في (الميني باص) تعرفت على واحد من أولئك المرابين الذين وقع أبي في شباكهم. كان شيخاً هرماً يتوكأ على عكازته يميل على جانب من جوانب جسمه حين يمشي على أرصفة (تشال) المرصوفة بالحجارة. كان رجلاً صامتاً. خطوط وجهه هي التي كانت تتكلم. كما كانت عيناه الهاربتان في محجريهما تتكلمان وهما تنظران من خلف حاجز صمته. كان ينطق بكلمة واحدة فقط كل أربعين سنة، وكانت هذه الكلمة من الثقل بمكان تزن أطناناً. وعلى الرغم من أن معشر المرابين أولاء كانوا في العادة يقتطعون نسبة الفائدة من المقترضين مسبّقاً، فلا ندري لماذا كان هذا يسخّر أبي في مشاويره المختلفة. فكان أبي يسعى في نقله من مكان إلى آخر وحمل أمتعته دون مقابل، على الرغم من أنه كان يدفع له فروقات كبيرة ومبالغ مبطَّنة لا يعرف بها أحد غيره. لقد ظلَّ أبي ردحاً من الزمن يتحمَّل نزوات هذا الرجل النحس المدعو (سليمان) المتهندم كتمثال. وهو يحتل المقعد الأمامي في الحافلة ويطلب إلى أبي أن يدور به بين القرى والأرياف لزيارة أصدقائه القدامى الأحياء ممن كانوا معه في أثناء الخدمة العسكرية. أو كان يحمّل السيارة بأكياس العلف ويتعقَّب آثار أغنامه في الطرق الجبلية أو يتقلّب بين الحقول ويحمل سلال العنب دون مقابل. إضافة إلى أنه كان يذهب به إلى المطاعم يوميّاً ويدفع المبلغ من جيبه الخاص. وفي نهاية المطاف عمد أبي على بيع السيارات كلها للتخلص من همومها. وهكذا أمضى مدة لا يعرف ما

الذي يفعله في أثنائها. ظل يجول في أرجاء البيت كأي متشرد يعاني من الضياع. لا يسعه البيت بما رحب، ولا تهدّؤه الحقول ولا البساتين. ولم يجد ضالته في مقاهي البلدة. لم يستهوه لعب الورق ولا الدومينو أو لعبة الطاولة، لأنه لم يكن قد جربها من قبل، ولم يكن يبحث عن سلواه في المشروبات الروحية أو في النبيذ لأنه لم يجرّب أي نوع منها أصلاً، ولم يسرِ في عروقه أي نوع من أنواع المشروبات الكحولية.

- هكذا إذن! - قالت (سحر) - لم يشرب ولا كأساً واحدة من أجل الترفيه عن النفس حتى!

- لا! ولا كأس واحدة.

- ولا في الأعياد والمناسبات؟

- لا قلت لكِ، وما زال هكذا إلى الآن لا يقرب العرق ولا النبيذ. في تلك السنين كان خالي (حسين) يقوم بتحضير مائدة ينصبها في فناء الدار، ثم يأتي إلى أبي، وبيده قدح من العرق، يدعوه إلى مشاركته الشرب. كان يتوسل لأبي ولكنه لم يستطع أن يجلسه يوماً إلى المائدة. كان هذا يحدث في الغالب كل مساء حين يرجع الجميع من الحقول والمزارع وينسدل الظلام على البلدة مثل ستار مخملي أسود. كان خالي (حسين) يعترض طريق أبي بعينين محمرّتين وزيق مفتوح يقول رافعاً كأسه: هيا يا صهري! لنطرد الهموم. وكلما جاء إليه بهذه الحالة كان يرد عليه قائلاً: بالهناء والشفاء، أنا لا أجربها، أرجو المعذرة. بالطبع كان خالي يلحّ عليه ويريه القناني التي صفّها وأنواع المزات التي زيّن بها المائدة. وفي بعض الأحيان كان يمسك بذراع أبي ويجرجر به قائلاً: هيا يا صهري لا تدعني لوحدي. وهل يتوجب عليَّ أن أتسامر مع الشيطان كما في كل مرة. حسنٌ لا تشرب ولكن شاركني الجلوس فقط إلى المائدة. فكان أبي يجيبه قائلاً وهو يحاول التخلص من بين يديه: أرجوك لا تلح عليَّ يا حماي! لا أتجرع شربة السوء هذه، واللهِ لا أستسيغها.

أمي التي كانت إلى تلك الساعة محتفظة بسكوتها أخذت توبخ خالي

قائلة: هذا غير معقول! قالوا «لا تطارد الغجري إلى خيمته» ألا ترى صهرك لا يريد معاقرتك. فتقهقر خالي إلى مكانه وهو يترنح وبيده كأسه المترعة التي تضيء وكأنها مصباح يدوي. كان يغمغم متذمراً، يهرف في الكلام: «هل هنالك من يرفض شرب حليب السباع!»، كان يتأفف ويلوي رأسه يمنة ويسرة ويقول: «مرة أخرى تركتني لوحدي أدردش مع الشيطان». ظل يكرر كلامه ويتشكّى قائلاً: تركتني وحيداً مع الشيطان، وليكن بعلمك أن كل ما سأقوم به وما يصدر مني من هراء سيكون بسببك أنت. أقولها بعلو صوتي قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه، لكيلا يعتب عليَّ أحد. ولكن أبي لم يعره أية أهمية. كان يطيل النظر إليه من خلفه ويقول لأمي:

– أخوك هذا قد فتح أبواب حانته، ولا أدري متى سيقوم بإغلاق بابها.

– لا يمكن للمرء أن يشرب بالإكراه – قالت (سحر) – بُنيته لا تتحمل المشروبات الكحولية، فماذا يفعل؟

– بالطبع أنتِ محقة. لا يمكن إكراه المرء على الشرب... وهكذا بعد أن ظل أبي يجول في الأرجاء بلا شغل ولا عمل، اضطر إلى العمل كسائق شاحنة مقابل مرتَّب شهري. بالمناسبة هل تعرفين من هو صاحب الشاحنة؟

– من هو؟ – تساءلت (سحر).

– تتذكرين الأصدقاء الثلاثة الذين أصبحوا شركاء في (الميني باص) ثم تركوا السيارة لأبي وانفضت شراكتهم. هو واحد منهما. هاجر إلى ألمانيا بصفة عامل. وبعد مرور اثنتين وعشرين سنة اشترى شاحنة كبيرة ليشتغل عليها أبي كسائق. وعندما تعرض أبي إلى حادث جاء مسرعاً من برلين. حينئذٍ عرفنا أنه هو من يملك الشاحنة، وهو شريكه القديم.

– يا للمصادفة، قصة عجيبة! – قالت (سحر).

ضاقت نفسي، فقمت من مكاني وخرجت إلى الشرفة. دخنت سيجارتين الواحدة تلو الأخرى. لكأن هاتين السيجارتين ستكونان لي

شفاءً من كل هَم. تولدت في فمي مرارة غريبة، لا أدري ما هو سببها. ولكن لم تكن من جرَّاء التدخين. وفي اليوم الثاني شعرت بتلك المرارة لا في حلقي وحده وحسب بل وحتى في رأسي. وعلى غير عادتي، بقيت أتجول في أرجاء البيت بروح مندحرة، ثم خرجت إلى الشرفة نحو العصر، وأخذت أسقي أصص الأزهار. أنظر إلى الأزهار، أميل عليها واحدة تلو الأخرى كمن يريد البوح بسرٍّ ما في أذانها. كانت قد تجمعت الأوراق في أسفل بعض الأصص. أوراق صفراء ذابلة وأخرى بلون نحاسي صدئ. لم ألمس ولا واحدة منها بل سحبت كرسيًّا وجلست إلى جانبها. أشعلت سيجارتي وأخذت أرنو إلى بعيد بنظرات خاوية من أي معنى. ساعات طويلة أمضيتها وأنا أنظر إلى بعيد، ولم يكن هنالك أي شيء يستحق النظر سوى تلٍّ على بعد سبعمئة أو ثمانمئة متر، ما زال رأسه مكلَّلاً بتيجانٍ من الثلوج، لم يَحِنْ بعد أجل ذوبانها، أو لم ينتبه إليها النهّاب كي يسرقوها. ولم يكن يظهر هناك أي شيء سوى ذلك التل المغطى بالثلوج وقطعة صغيرة من السماء بقدر منديل. قطعة زرقاء آخذة في الاسوداد. وما إن اسودَّتْ تلك القطعة حتى وجدتُ نفسي أنهض من مكاني حاملاً معي طفَّاية سجائر مليئة بأعقاب كثيرة. ثم بدأتُ بتوضيب منضدة الطعام لأنَّ موعد عودة (سحر) قد حان.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى عادت (سحر) مع ابنتنا. دخلتا عبر باب الشقة، وأرسلت (سحر) صوتها باتجاهي ثم مَضَتا معاً صوبَ الداخل تحفُّ بهما غيمةُ فرح. (آيبري) كانت تقول لوالدتها أنَّ بإمكانها أن تأخذ الملابس التي وسَّخَتْها الحيوانات وتنشرَها مثلَ الغسيل على مناقير اللَّقالق. ثم يضحكن بملء أشداقهن ويثرن صخباً. بعد أن أكملت شغلي في المطبخ مررت إلى صالة الطعام. جلسنا جميعاً إلى المائدة جانب النافذة. طيلة تناولنا وجبة الطعام كانت (سحر) تحاول مراراً أن تقول لي شيئاً ما ولكنها تنظر إلى وجهي ثم تلوذ بأذيال الصمت. على الرغم من شعوري بالفضول ورغبتي في معرفة ما تريد (سحر) قوله لي، فكرت

أنها ربما امتنعت عن الحديث ولا تريد فتح الموضوع في حضور البنت. لذلك لم أسألها، ولم ألحّ عليها لمعرفة ما تخفي وما تريد أن تبوح به. بعد وجبة الطعام خرجنا إلى الشرفة لكي ندخّن. سألتْني سحر:

- كيف تشعر الآن؟

- أنا جيد! - قلت - لم تسألين؟

- البارحة لم تكن على ما يرام - قالت - عندما دخلت عبر الباب كان هنالك شعور بالذنب يتجسد في عينيك.

نظرَتْ في وجهي مليّاً، ثم أردفت قائلة:

- ليلة البارحة كنت أقص عليك تفاصيل الحادث لكي تشعر بالراحة.

أومأت برأسي دلالة أني فهمت كلامها.

في أثناء ذلك سمعت نقراً على زجاج باب الشرفة. أدرنا رأسينا صوب الباب. كانت (آيبري) تنظر إلينا بعينيها الواسعتين ذات الأهداب الطويلة، وتؤشر لنا بقولها: «ألا يكفي! تعالا إلى الداخل».

قلت لسحر:

- أنتِ أكملي تدخين سيجارتك، سأذهب لأرى ماذا في الأمر.

- أتدري يا بابا! - قالت لي (آيبري) عندما رأتني أدخل إلى البيت- البارحة رأيت حلماً.

كنا جالسين قبالة التلفاز جنباً إلى جنب.

- خيراً إن شاء الله - قلت وكأنني لا علم لي بالحلم الذي رأته ليلة البارحة - أيُّ حلم رأيتِه يا بنيتي! هل تريدين أن تقصيّ عليّ ما رأيتي؟

حركت رأسها مرتين.

- هيا إذن قصيِّ عليّ ما رأيتي، أنا أصغي إليكِ.

- بابا - قالت، والتفتت صوبي وأخذت تحدق في عيني- أتدري إنك كنت معي في الحلم الذي رأيته، كنا نمشي على صفحات دفتر. لم

يكن دفتراً عادياً وحسب بل كان كبيراً... كبير جداً. نحن كلانا... كأب وابنته كنا نسير هكذا وحسب. وما راعني إلا أن سقط علينا قلم ضخم!

- حسنٌ... ماذا فعلنا نحن في تلك الأثناء؟

- مددنا ذراعينا على الفور وتلقفنا القلم. لولا ذلك لكان القلم سحقَنا. وبعد أن مسكنا القلم رسمنا دائرة على صفحة الدفتر. أي أننا رسمنا فراغاً ما. لا أدري هل تفهمني! بعدها طلعنا من الفراغ الذي رسمناه إلى خارج الدفتر. حسنٌ! هل علمتَ إلى أين سقطنا عندما قفزنا من خلال دائرة الفراغ؟

- إلى أين؟

- سقطنا على القوس قزح وفي أثناء ذلك مال القوس قزح تحت ثقلنا وتسطّح بخفّة.

- بعد ذلك؟

- خلاص! - قالت (آيبري) وفتحت ذراعيها إلى الجانبين - هكذا كلانا تخلَّص قبل أن يتمكن القلم العملاق من سحقِنا!

- هممم، صدرت مني غمغمة، ثم قلت: أفهم ماذا تقولين ولكنني مع ذلك لستُ متأكداً من أننا نجونا فعلاً!

- رسمنا دائرة فارغة على الصفحة البيضاء، ثم خرجنا منها بسهولة.

- يا حلوتي لقد أربكني قوس القزح هذا، قلت لها: تعرفين بما أن الصفحة بيضاء فكل الألوان موجودة في الأبيض، والأبيض بحد ذاته يدخل في تركيب جميع الألوان. هذا يعني أننا وقعنا في مكان أبيض. وهذا يعني أننا من المحتمل قد وقعنا إلى مكانٍ أبيض مرة أخرى. أليس كذلك؟

ظلت (آيبري) لبعض الوقت تحدق في عيني، وكأنها تشاهد فيهما الدفتر الذي كانت قد رأته في المنام. كانت تنظر إليَّ بقلق. بعد ذلك انفرجت أساريرها فجأة وابتسمت لتظهر غمازتها على خدِّها الأيسر.

-3-

حرصت على الاتصال بأبي هاتفياً على مدى ثلاثة أشهر من أجل معرفة إن كان قد استغنى عن عكازة الإبط أم أنه ما زال يستخدمها. ولكنني لم أحصل على جو ب شافٍ. ففي معظم الأحيان كانت أمي تجيب على الهاتف وتقول: لا يا ولدي، لا يترك عكازته في الغالب. يبدو أن المسألة لم تنجح هذه المرة أيضاً. فإن كان أبي موجوداً في البيت رفع صوته من مكانه في ركن بعيد من الغرفة: الله عليك يا امرأة لم تقولين كلاماً كهذا للولد! وبرغم سماعي كلامه ملء أذني إلا أنني كنت أسأل أمي قائلاً: ماذا يقول أبي؟ فكانت أمي تظل في دوامة محيرة بيننا. ثم تعود إلى تحريف الكلام، وتقول: يبدو أنه يسعى للتدّرب على طرفه الاصطناعي الجديد. لا بأس يا ولدي لا تقلق. أبي بالطبع لم يكن يأتي إلى الهاتف ليكلمني كما كان يفعل كل مرة. ولكنه كان يضطر لرفع سماعة الهاتف عندما يكون لوحده في البيت. حينئذ كان يكلّم المقابل على عجالة وكأن هنالك أناسٌ يطاردونه. هم رُكوبٌ على حُصُنٍ وهو راجل. يقول: هنا كل شيء على مايرام، وأنتم! ليس هنالك خطب عندكم، أليس كذلك؟ هيا سلِّم لي على الأولاد. كان يكتفي بهذا القدر من الكلام، وكان يغلق سماعة الهاتف بقوة أو يناولها إلى والدتي في حال إذا جاءت إلى الداخل في تلك اللحظة. فعندما تنتهي المكالمة بهذه السرعة يتصوَّر المرء أنه رأى حلماً عابراً مرَّ به مرور الكرام وانتهى.

في نهاية أيار حين طاب الجو سافرنا إلى (دنيزلي) بصحبة العائلة

لمدة بضعة أيام. مثلما كنا نفعل في كل مرة ركنّا السيارة فيها لكي نأخذ قسطاً من الراحة بالقرب من (آفيون) عند مطاعم الطريق في (كور أوغلو بيلي). ابنتنا (آيبري) كانت قد أحبت الدرّاج وكذلك الأرانب التي كانت في داخل القفص الخشبي فأخرجت جهاز الـ(تابليت) الخاص بها والتقطت عدة صور للأرانب ومن جوانب عديدة. أما أنا و(سحر) رحنا نشرب الشاي وندخن السجائر تحت أشجار السنديان التي كانت تخفق أغصانها الخضراء وتغمغم في مهب الريح. يتطاير في الأرجاء نديف الراتينج الصنوبري بعطره الفاغم سوية مع الضباب الشفيف الذي يتحرك في أعماق الوادي، ضباب يتلفَّع بالصمت حاملاً أوراق الصنوبر المرتعشة. وفي الوقت نفسه نستطيع رؤية الطريق الكائن على شمالنا والشاحنات تنساب عليه في رواحها وغدوها. يتقاطر بعضٌ منها خلف بعضها الآخر في صعود ونزول متعب للعين. فكرت، من يدري كم مرّةً صعد أبي هذا المرتفع عندما كان يعمل سائق شاحنة. ترى هل تعطلت به الشاحنة في هذه الطرقات! ربما نزل وهو ينفخ في باطن كفَّيه في هذا البرد القارس، ويرفع يديه طلباً للعون من سائقي الشاحنات. استحضرت أمام ناظري حالات العطل التي كان يقف السائق بسببها في وسط الشارع. مثلاً عندما تكون الإطارات بحاجة إلى نفخ. الكابراتور حين يحتاج إلى تنفيس: أو الأكسل عندما يتعرض إلى الكسر، أو الراديياتور حين يغلي ماؤه. تذكرتُ الرافعات الصغيرة، العُدد اليدوية، المفاتيح المبعثرة هنا وهناك، والنار التي يتطاير لهيبها بدخانها الذي تذروه الريح التي تهبّ دون رحمة على قارعة الطريق.

باشرنا بالسفر مجدداً. لوّحنا بأيدينا للدراريج والأرانب ثم وصلنا إلى المحطة التالية وهي (كاكليك) وعندما وصلنا إلى (أوشاك) أدرت المقود باتجاه مرتفعات (زيبار). وما إن صعدنا إلى أعلى المرتفع واستدرنا من مفرق (تشال) حتى صرنا في هضبة (باكالان). وهكذا وصلنا إلى بلدتنا الواقعة على مشارف جبل (بيشبارماك). عندما وصلنا

كان أذان العصر يُرفع من الجامع القريب. هرعت أمي إلى الباب وهي تنتعل خُفّها، وتردّد قائلة: «أهلا بكم أهلاً بكم». استقبلتنا بترحيب حار وعانقتنا واحداً واحداً. رحنا إلى حقائبنا، أخذناها من صندوق السيارة ثم دخلنا الدار تحت أنظار الجيران. انحنينا لكي نمرّ من تحت متسلّقات الكروم والبرقوق. هاتان الشجيرتان كانتا قد زرعتا عند السلم المؤدي إلى الدار قبل سنين طوال، لا أذكر تاريخ زراعتهما ولكنني أتذكر جيداً أن أبي امتنع عن قطعهما. تشابكت أغصانهما وغطّت عضادة الباب، فكان على المرء أن ينحني ويمرّ من تحتهما إذا أراد الدخول إلى البيت. بعد أن صعدنا درجات السلم، ووضعت الحقيبة على الأرض ألقيت السؤال على والدتي:

- هل أبي موجود؟

- إنه في البستان، قالت أمي: ماذا عساه أن يفعل يا ولدي! يبذل قصارى جهده هذه الأيام في تقليم الأشجار.

عندما سمعتها تقول هذا الكلام لم أنزع حذائي بل عدت أدراجي ومضيت إلى حقل الكروم الذي يبعد عن البيت بضعة دونمات. المرتفعات الصخرية التي انحدر منها جدي يوماً ما وعوى عواءً أليماً مثل ذئب جريح كانت قبالتي، حيث تنتشر على سفوحها أشجار العرعر التي تبدو للرائي أنها خضراء غامقة. ومن بين أغصانها تتناهى إلى سمعي أصوات أجراس كأنها قادمة من عالم الأحلام. لم تكن هنالك أية نسمة ريح ولا أي صوت آخر وليست هنالك أية حركة بين الأجمة في الجوار. عندما بلغت البستان لا أدري لم فقدتُ أصوات الأجراس وران على المحيط صمت مطبق. وبعد أن مشيت لمسافة طويلة بمحاذاة أشجار اللوز والسنديان والقسطل - الواقفة وكأنها صمت آخر في هذا العالم الصمتي - رأيت أبي في الطرف القصي من الحقل على بعد خطوات عن شجرة الكرز. وجدته جالساً جنب أرومة مقطوعة يزحف على إليتيه وهو يقلّم أغصان الكروم.

– الله يعطيك العافية يا أبي، قلت له بهدوء.

ومن عالم الصمت الذي كان يرفل فيه رفع رأسه ونظر في وجهي:

– أهلاً بك – قال بصوت ينمّ عن تعب صاحبه.

في تلك الأثناء عادت أصوات الأجراس التي ضاعت بين أجمة العرعر في أسفل المرتفع الصخري إلى الظهور مجدداً، رافقها نسيمٌ منعش أخذ يهبّ بخفّة فاستنهض كل أنواع الطنين والحفيف بين الأشجار. كان بإمكان المرء أن يسمع أصوات ليّنة أو خشنة تشبه صوت تكسُّر غصنٍ رقيق، أو طقطقة قشور الأشجار، أو تصاعد أنين وحشرجة من أعماق الأرض. انحنيت إلى الأرض كي أجمع الأغصان المشذَّبة فأوقفني أبي.

– دعْك من هذا لا تجمعْها، قال لي ثم أردف: لنكتفِ بهذا القدر اليوم. هيا بنا نذهب.

كان جالساً فمدّ جسمه وتناول عكازته المرمية على الأرض المائلة إلى الاحمرار، وضعها تحت إبطه وتنحنح قليلاً ثم نهض من مكانه واقفاً. قلت وأنا أمشي إلى جانبه:

– لا تتعبْ نفسك يا أبي. فلنؤجِّر أحَدَهم كي يقوم بتقليم الأشجار بدلاً عنك، ولندفع له المبلغ الذي يطلبه.

– مستحيل! – قالها وهو يرفع فكَّه إلى أعلى بحَمِيَّة – الشخص الذي تؤجِّره ليقوم بتقليم أشجارك عليه أن يعرف أوَّليَّات كلِّ غصنٍ من أغصان كرمة العنب. كم برعماً ترك في السنة الماضية؟ هل تعبت البراعم أم لا؟ الأجير الغريب عن الأرض كيف يعرف ذلك. يترك في كل غصن ثلاثة أو خمسة براعم ويقلّم كيفما اتفق! لا يضع في الحسبان إن كانت الشجيرة متعبة أم كانت تميل على أحد الجوانب. فلا يهمّ الأجير سوى المبلغ الذي يتقاضاه وحسب.

– أفهمُكَ – قلتُ له.

– أنا لم أتعرَّف على هذه الكروم حديثاً أو قبل سنة، بل قضيت سنوات عمري في ظلّها. عاشرت كل شجيرة منذ نشأتها.

– أنا أيضاً أمضيت سنوات طفولتي في ظل تلك الكروم، قلتُ له.

في تلك الأثناء خُيّل لي في لحظة ما، كأن حبات العنب التي كانت يانعة في ذاكرتَينا صارت تشعُّ ضياءً وتنعكس على وجهَينا، فنظر الواحد منا في وجه الآخر بشكل لا إرادي.مكتبة سُر مَن قرأ

حين جئنا إلى البيت كان قد أُحضر الشاي وفُرِشَ خِوانٌ على الأرض وسط الغرفة الكبيرة التي فيها نافذتين تطلُّ إحداهما على منظر الجبل والأخرى على الزقاق. على الكنبات التي كانت ثقيلة مثل جثة فيل مقتول، حيث تجلس جارتنا العمة (كولفم) وإلى جانبها يجلس أربعة أولاد يافعون، لائذين بالصمت. بالطبع لم أعرف أي واحد منهم كما في كل مرة. عندما جاؤوا إليّ ليقبِّلوا يدي تعرَّفتُ عليهم واحداً تلو الآخر. أخذت والدتي على عاتقها مهمة تعريفي بهم، فهذا ابن الخال الفلاني، وذاك حفيد خالتي الفلانية. ذاك الابن المدلَّل لعمتي ذات العِقصة المجعدة وذلك الابن الأوسط من أبناء خالي فلان الفلاني. وعلى الرغم من دعوتنا لهم وإلحاحنا بأن ينزلوا ليجلسوا معنا إلى خوان الطعام إلا أنهم لم يلبوا طلبنا. تغامزوا فيما بينهم بإشارات لا يفهمها غيرهم ثم نهضوا وانصرفوا تباعاً مطأطئين رؤوسهم صامتين. العمة (كولفم) هي الأخرى لم تجلس إلى الخوان بل راحت تنقل قدح الشاي في كفها، وأحنت رأسها بخجل مكتفية بشرب الشاي. ثم استأذنت ونهضت بتثاقل وانصرفت وهي تتحامل على عكازتها وترتجف. خرجت من البيت بصمت كصمت الظلال.

– آه يا إلهي – قالت أمي – وهل يليق بفتاة مدلَّلة مثلها أن تقع هذه الوقعة.

تحدثت أمي عنها وكأنها تجرف بصوتها كل الموجودات داخل الغرفة وتقذف بها إلى الخارج.

- ما الذي جرى للعمة (كولفم)؟ - سألتُها في أثناء ذلك.

- لا تسلْني أبداً يا ولدي، لا تسلْني - قالت وقد مسكت الشوكة التي حملت بها شيئاً من الطعام قريباً إلى فمها - هذه المسكينة سحلها الحمار قبل سنة، عندما كانت تعمل في حقل الحمص. ذهب الناس في حر الظهيرة وجاؤوا بها محمولة على متن جرار. ومنذ ذلك اليوم لا تستطيع الوقوف على رجليها أو تعديل ظهرها. صارت تدبُّ على الأرض مثل أية دودة. ظل أهلها يراقبونها حتى أجمعوا على عرضها على طبيب من أجل معالجتها. وفي النهاية ذهبوا بها إلى الجامعة في (اسبارتا). هنالك أجريت لمسكينتي عملية جراحية وهي الآن تمشي. في الأقل باستطاعتها المشي معتمدة على عكازة.

من الطرف البعيد من الخوان انبرى أبي قائلاً:

- لقد عدّلوا عمودها الفقري بالجص.

- ليس بالجص! - قلت - لا يمكن تقويم العظام بالجص يا أبي.

قالت أمي قاطعة الشك باليقين:

- بالجص، نعم بالجص! - قالت ذلك وهزت رأسها مثلها في ذلك مثل الحائز على شهادة تخصص في هذا الموضوع، والذي يدرك مدى أهمية استعمال الجص ووجوب عدم استعمال أي شيء آخر غيره.

أما أنا فاضطررت إلى السكوت. بعد أن نظرت إلى أبي بطرف عيني أخذتُ قدح الشاي وذهبت إلى الواجهة الغربية للبيت لكي أحظى بفرصة لتدخين سيجارة. دخلت إحدى الغرف وخرجت منها إلى الشرفة التي كانت تطل على جميع بيوت الزقاق، ومنها بيت خالي (عزت). كان خالي قد ركن سيارته في ظل شجرة الجوز الباسقة في فناء داره. كان منهمكاً يمسح زجاجات السيارة بخرقة منسوجة من القطن، وبحركة سريعة صاح من مكانه حين رآني أجلس في مكان ظاهر على الشرفة:

- أهلا بك يا ابن أختي.

ثم راح يفتح غطاء محرك السيارة. فتحه وسحب مرود الزيت، مسحه ثم أعاده إلى مكانه، ثم أخرجه مجدداً وقرّبه إلى عينه لكي يتسنى له رؤية مستوى الزيت الموجود في المحرك. وعلى غير المتوقع من رجل كهل مثله قفز إلى داخل السيارة وجلس خلف المقود. ثم أدار المحرك وساق السيارة. بعد مناورة صغيرة قام بها في أثناء السياقة أخرج يده من نافذة السيارة ولوّح لي ثم اختفى بعد العطفة التي تلي ركن الدار.

بعد أن غاب خالي عن الأنظار جلت ببصري وأطلت النظر بعيداً حيث الطرق المؤدية إلى قرى (كوناك)، (خديمة) و(بيجيكلي) من خلف سحب الدخان التي أخذت أنفثها. ثم إلى قرى (عيسى بيه) و(محمود غازي) اللتين تستلقيان على سفوح جبل (جوكالاز). خُيِّلَ إليَّ أنني صرت أسمع صوت جريان نهر (ميأندروس) الكبير[8] الذي يبعد عشرات الكيلومترات من هنا. وإلى جانب خرير المياه هذا بدا لي أنني أسمع حفيف الأوراق الفضية لأشجار الصفصاف التي تحيط بالنهر. ومن بين تلك الأوراق أرى طواحين (يوكاري سيد) المهجورة التي تهدمت أسيجتها حتى لكأنني أرى الداخل المظلم من البيوت المهجورة، ذات الأبواب المخلّعة. عندما أكملت التدخين وأطفأت سيجارتي نهضت من مكاني في الشرفة فتعلّق نظري لأوَّل وهلة بمنظر المقبرة التي تنتشر شواهد قبورها على الرابية القائمة في مرمى البصر. في ذلك الوقت تماماً خرج صبي ذو قميص أبيض من عطفة الزقاق المؤدي إلى الوادي الواقع ما وراء المقبرة. أخذ الصبي يتلفَّت وينظر يمنة ويسرة، وبخطوات أخفّ من الريش انسلَّ من جانب سيارتي المركونة حتى وصل إلى مدخل الحديقة. توقَّف للحظة ثم جال ببصره في الجوار. عندما جلس على الصخرة أولى وجهه شطر الجبل. كنت

8- (ميأندروس) تسمية أغريقية لنهر ينبع من المناطق الجبلية في (أفيون قرا حصار) ويخترق منطقة غرب الأناضول. ثم يسيل فيها بطول يبلغ حوالي 600 كم ويصب أخيراً في بحر إيجة - المترجم.

أرى جزءاً من كتفه وركبته اليسرى وخدِّه الأيسر. بعدها بقليل رفع رأسه ونظر إليّ نظرة عتاب. وبوجه ذابل انصهرت ملامحه في التماع بياض القميص راح ينظر في وجهي لائماً إيّاي، وكأن به يقول: «هكذا إذن لم تعد تعرفني! هيه؟».

بالطبع شعرت بالاختناق. هرعت إلى باب الشرفة أملاً في التعرف على الفتى. فتحت الباب على الفور ثم ناديت على أمي. ولكن بدلاً منها هرعت (آيبري) إليّ مسرعةً.

- ماذا حدث يا أبَتِ؟ - سألتني بعينيها الكبيرتين.

فقلت لها:

- يا حملي الصغير أردت أن أكلِّم جدَّتَكِ.

وقبل أن يمرّ وقت طويل جاءت أمي ووقفت في فضاء الباب. كانت منزعجة قليلاً.

- انظري يا أمّاه - قلت لها - ذلك الفتى الجالس هناك هل هو من أقاربنا؟

قفزت (آيبري) قبل أن تنهض والدتي. مسكت سياج الشرفة بإحدى يديها وبالأخرى تشبَّثت فيَّ. وفي الوقت نفسه التفتُّ أنا أيضاً لأنظر إلى الصبي الجالس على الصخرة، ولكنني لم أره.

- أيُّ صبي؟ - قالت أمي ومدّت رقبتها في الوقت نفسه ونظرت في الجوار.

- ياللحيرة! - قلت وأنا أشير بيدي إلى باب الحديقة - كان يجلس هنا قبل قليل. آه! لا يوجد!

عادت والدتي أدراجها وهي تقول «من يدري ابن منْ كان الفتى!».

تبعتها إلى الداخل. رأيتُها دخلتْ إلى المطبخ فتبعْتُها إلى هناك. قلتُ لها وأنا أدخل المطبخ:

- ما بال أبي لم يدعْ عكازة الإبط.

- أجل يا ولدي أجل - قالت وهي تتأسف ثم أردفت قائلة: كنت

أتأمل أنه سيترك العكازة هذه المرة، يمشي وهو يسبل كلتا يديه بحرية، ولكن هذا لم يتحقق مع الأسف. لا أدري هل كتب هذا القدر على جبينه أم ماذا؟

– حينما كان في (أنقرة) لو أنه ضغط على نفسه قليلاً وتحمّل عبء العلاج الطبيعي لكان الآن في أحسن حال. البروفيسور هناك كان قد أعطاه ضمانة. قال له سوف تخرج من هنا وأنت تمشي على قدميك. ولكن أبي لم يصبر على ذلك. قام بإجراء التمارين لبضعة أيام، ثم فجأة صار يردِّد أنا ذاهب إلى البلد. أنا والبروفيسور توسَّلْنا إليه كثيراً ولكنه لم يصغِ إلينا، ولم نستطع ثنيَه عن قراره.

– ألا تعرف طبيعة أبيك! – قالت أمي – إذا وضع دماغه في شيء ما فإنه يقوم بتنفيذه لا محالة، ولا يصغي لرأي أحد.

– أعرف ذلك – قلت.

اتّكأتُ إلى الحائط غارقاً في صمتي وكذلك لاذتْ والدتي بالصمت. تضعُ يديها على جانبيها، والحزن بادٍ على محيَّاها. بدتْ أنَّها على وشك الخروج عن طورها في أية لحظة. حتى أنها أغضَتْ بصرها وأخذت تنظر إلى الأرض وتتحسَّر. وبعد ذلك، لا أدري أكان ذلك من شديد حيرتها أم بسبب آخر، أنها أخذت تلملِم أطباق الميلامين ذات الخطوط البنفسجية وتضعُها في الصينية وتنقلها إلى حوض غسل الأطباق. فانتظرتُ عسى أن تسترسل روحها وتتناغم مع العمل الذي تقوم به. ولكي أفسح لها المجال لتنعم بالطمأنينة أدرت وجهي ورحت أنظر إلى بعيد. إلى الوادي الذي كان يتراءى عبر نافذة المطبخ، وإلى التل الناشب في أحد جوانب الوادي. ثم رحت أستنطقها عن سبب عودة أبي من (أنقرة) بسرعة. التفتَتْ إليّ وبيدها طبق. حدّقت في عيني وراحت تبلع ريقها بصعوبة.

– يا ابني – قالت وهي تخفض صوتها – في الحقيقة إنّه لم يمكث عندكم طويلاً لئلّا يتسبَّبَ في إزعاجكم أكثر. ثمَّ أردفتْ قائلة: يقول «كنت أسعلُ مثل بندقية قديمة، وأُطَيِّر النوم من عيون الأولاد».

قلت لأمي متسائلاً:

- لهذا السبب عاد إذن!

- أي نعم - قالت - لهذا السبب وحده!

فهمتُ أنه لم يكلِّمْها عن سقوطه في حوض (كوفن بارك):

- يالللغرابة! في حين أننا لم نسمع سعالاً ولا أي شيء آخر - ثم قلت: ماذا يحدث لو أننا سمعنا سعاله؟ هل هذا سبب وجيه لكي يترك المرء بيته ويقفل راجعاً؟

لَمْ تَحِرْ أمّي جواباً.

فتحتُ باب الثلاجة وألقَيتُ نظرةً إلى داخلها ثم خرجْتُ من المطبخ. كان أبي يجلس هناك في مدخل صالة الاستقبال حيث رُكِنَتْ أكياس الزبيب يحاول أن ينتعل حذاءه.

حين رآني قال:

- أنا ذاهب إلى السوق، سأتجوّل قليلاً وأعود.

- حسنٌ يا أبي - قلت.

وما إن خرج أبي من الباب حتى هرعت إلى (سحر) ثم مِلتُ إليها وهمست في أذنها:

- أبي لم يتحدث لوالدتي عمّا جرى له في (أنقرة) فلنتجنَّبْ نحن أيضاً الخوض في تلك السيرة.

- تمام! قالت (سحر).

حين شاهدتْنا (آيبري) نتحدَّث بهمس سألتْ وشعر قذالها ينهدل على جانب من وجهها الممتعض:

- ماذا حدث يا أبي، ها ماذا حدث؟

- لا شيء يا حَمَلي الصغير، لا شيء ذات أهمية - قلتُ، ولكنها لم تصغِ إليّ وحسب بل قالت: «هيا هيا قل لي ماذا قلت؟»، ثم أخذَتْ تجرجر ذراع أمها: «قولي لي عمَّن تحدَّثتما، هيا قولي لي».

بهدف التغطية على الموضوع مسكتُ بيد (آيبري) وقلتُ لها: هيا بنا لنذهب في جولة للتعرُّف على بيئتنا. فاصطحبتها إلى الخارج. انحنينا ومررنا من تحت أغصان الكرمة المتشابكة مع شجيرة البرقوق، ثم نزلنا عبر السلالم وبدأنا نضرب هنا وهناك في أرجاء الحقل المنداح. ولم يكن هذا الحقل الذي تبلغ مساحته دونماً واحداً بمكان منتظم، ولا يفتح الشهية للتنزه فيه. فقد كان مجمَّعاً مقبرة لأشياء سقط متاع رميت هنا منذ سنين حتى اكتست ألوانها بلون التراب والصخور. قسم منها كان عبارة عن أصص قديمة أو مشربيات فخارية مكسورة ومكانس خوص وأرفاش لجمع الكناسة. وكدس آخر جُمعت فيه قطع غيار عفَّى عليها الزمن. عند أصل الحائط كانت هنالك إطارات ممسوحة النقوش وأخرى مهترئة. إلى جانبها رُمي تيل فرامل، وهنالك رؤوس بطاريات وبالقرب منها بقايا بطارية بالية. كلما خطوتُ خطوتين وجدتُ هنا وهناك قطع غيار صدئة متناثرة على الأرض، من عمود «كرنك» إلى ذراع مكابح وأنبوب عادم إلى أسلاك كهربائية متنوعة.

– انظرْ إلى هذا الحال! – قلتُ لنفسي – إذا قمنا بحفريات في الحقل لعثرنا على سيارة كاملة مدفونة!

– لتخرج لنا قطّة – قالت (آيبري) هذا الكلام وكأنها لم تقله بلسانها وحسب بل برموشها الطويلة وعينيها الواسعتين.

– تعالَي! – قلت لها – ربما سنعثر حتى على قطط هنا.

وأخذتُها إلى الواجهة الأمامية للمنزل. عندما صرنا في الخارج رأينا أمي وهي في الشرفة، تنفض فرشة الخوان مما علق بها من فتات بعد تناول الطعام. كلما رفعت أمي ذراعيها لترفع فرشة الخوان إلى أعلى كي تنفضه وصل طرفها إلى مستوى أعلى من سطح بيت خالي (عزت) و(حسين). حتى إنها كانت تنتشر حول منارة الجامع الكائن تحت في المنحدر، وترفرف مع الحمائم المذعورة وكأنها سماء مزوّقة تحلق فيها طيور مختلفة الأحجام صغيرة وكبيرة. أما أنا فوقفت في مكاني لأستمتع بجمال هذا المنظر الأخّاذ.

– أبَتِ – قالت (آيبري) في هذا الوقت بالضبط – انظرْ يوجد هنا قفص للطيور!

أقلعت أمي عن نفض الخوان وأخذت تضحك بحزن شفيف، ثم غادر الضحك وجهها وحلَّ محلَّه امتعاض. ومن مكانها على الشرفة مالت إلى الأسفل وأشارت إلينا قائلة:

– اذهبا إلى القفص وانظرا ما الذي ينتظركما هناك.

وبمجرد أن انتهتْ من كلامها هرعنا أنا وابنتي من جنب الحائط تحت طنف الشرفة إلى القفص الكائن في زاوية من زوايا الفسحة أمام المنزل، وكان القفص قد غطيّ بوصلات من المشمع وخرقٍ من سجاجيد عتيقة ثم وضعت عليها ألواح من الخشب كأثقال لكيلا تتطاير الخرق. وما إن أزحنا إحدى تلك اللواح ورفعنا المشمع حتى ظهرت من تحته دراجة نارية ذات حوض جانبي. بدت وكأنها سوف تنهار إذا لمستها – كأنها كومة من الخردة لا تُعرف من أية ماركة هي وما هو لونها! فرغت إطاراتها من الهواء والتصقت على الأرض.

– أوه ما هي هذه؟ – قلتها بدهشة.

– لا تسلْني يا ولدي، لا تسأل! – قالت أمي من مكانها في الشرفة – اشتراها أبوك قبل خمسة أشهر. لا أدري مِمَّن ولماذا اشتراها؟ جاء بها وهو يجرجر بها وأمضى أياماً منكبّاً عليها مثلما يعشش اللقلق ذو الريش الأبيض في مكانٍ عال. وكان من المؤمَّل – حسبما كان يدّعي – أن يجلسني في الحوض الجانبي ويأخذني في نزهة، ولكنه لم يستطع تشغيلها حتى. أنت تعرفن على السائق أن يضغط برجله على الدواسة فيها لكي تشتغل، وعليه أيضاً أن يعرف متى يرفع رجله من الدواسة، لكيلا تطرحه أرضاً. وكم من مرة سقط على ظهره، لأنه لم يسحب رجله في التوقيت المناسب. ولم يثب مسكيني إلى نفسه إلا بالكاد. طوَّحتْ به الدرّاجةُ على الأرض مثلما يطرح الحمارُ – أكرمك الله – رجلاً ما برفسة. ومنذ ذلك اليوم حرّم على نفسه لمس تلك الدراجة.

سألتُ والدتي وأنا أشير إلى باب القبو الواقع تحت الشرفة:

– حسنٌ، ما الذي حلّ بقطع الغيار التي كانت هنا؟ أما زالت موجودة هنا؟

فانحنت أمي من مكانها في الشرفة متشبِّثة بطرفٍ من الدرابزين الحديدي ونظرتْ بشكل لا إرادي إلى باب الغرفة وقالتْ بجرسٍ ما، يوحي بأنها ضجرة:

– ما زالت في مكانها يا ولدي، والغرفة ما زالت ملآنة لآخرها. كلما فاتحتُه بالحديث عن تلك الأدوات قال «مهلاً سأبيعها لأول تاجر خردة يمر من هنا». في كل مرة يقول لي الكلام نفسه ولكنه لا يفعل أي شيء في هذا الأمر. وبرأيي فإنه لا ولن يبيع أية قطعة منها. أنا قلت لك وإذا أردت فبإمكانك التأكد من ذلك! لأن قلبه لا يطاوعه على فعل ذلك. على العكس كلما وجد فرصة سانحة تراه يحطّ الرحال عند تلك الخردة. يدخل الغرفة، يجلس ويسند ظهره إلى إحدى الجدران. يطأطئ رأسه مثل طفل يتيم ويبدأ بتقليب تلك الأدوات بنهاية عكازته. يقلِّب بعضاً منها طارقاً عليها لتفريقها. يدفع بعضاً منها ويقرّب إليه بعضها الآخر. لا أعرف ما الذي يهدف إليه من الطَّرق عليها أو تحسُّسِها بالطرف المُنَبَّل من عكازته. لم يكن يدخل الغرفة ويقوم بتصرفه هذا إلا عندما أكون غائبة عن البيت أو أكون ذاهبة لزيارة أحدٍ من الجيران، أو حين أذهب إلى الحقل. يظن أني لا أعرف بتصرُّفه هذا. إلا أنني كنت أعرف أنه فتح الباب ودخل إلى القبو وقلّبَ محتوياته. كنت أعاين قطع الغيار جيداً فأحس بالتغييرات التي طرأت على أكداسها أو إذا تحركت أية قطعة من مكانها. وفي كل مرة أتغابى عن ذلك وأُظهر أنني لم أشعر بما يفعله. بالطبع أنا لا أستطيع التشكي ولا أجرؤ على الكلام. حتى وإن تكلمت فلا فائدة ترجى من كلامي. لأن المجنون لا يبرأ من علّته! مثلاً من الذي استطاع أن يمنعه من شراء (الميني باص) الذي ظلَّ مطروحاً هنالك في (دنيزلي)؟

كانت (آيبري) قد تسلقت السياج لتراقب قطيعاً من الحمير محمَّلاً بالحطب مرَّ من أمام البيت.

- أيُّ (ميني باص) يا أمي؟ - سألتها.

- وما أدراني ياولدي! حسبما يقال إنّ أباك يمتلك (ميني باص) في (دنيزلي). يسمونه (سيارة عزيز) سيرتها على كل لسان. يتحدثون عنها منذ أربع أو خمس سنوات، بقولهم: جاءت سيارة عزيز، راحت سيارة عزيز. أما الآن يقال إنها ركنت في كراج وأجلست على أربع طابوقات، على أمل أن تصل إليها قطع الغيار التي ستُجلب من كوريا أو من بلد آخر! وبعد ذلك سيتم تصليح أعطالها. يقول المثل «لا تمت يا حماري سوف يأتيك الربيع». قيل إن قطع الغيار تلك قد علقت في الكمارك، ويبدو أنها لن تتخلص من هناك. في بعض حين كنت أدير دفة الحديث إلى هذا الموضوع فأسأله قائلة: «يا ابن الناس هنالك أنباء مختلفة تطرق سمعي فهل لها نصيب من الصحّة؟». ولكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يبحْ بسرِّه. لم أستطع أن أنتزع ولا كلمة واحدة منه. لا يتكلم قط، لا يتكلم!

- هيا أبَتِ - قالت (آيبري) - ألا يكفي لنذهب إلى الداخل!

- حسنٌ قلت لها ومسكت يدها.

كنا لدى الباب على وشك الذهاب إلى الداخل حين جاء خالي (حسين) وزوجته العمة (هجران) فانحنى الجميع من تحت شجيرتي العنب والبرقوق المتشابكتين ودخلوا صالة الاستقبال.

- الدخول عبر بابكم مسألة مستعصية - قالها خالي وهو يحتضنني مرحباً بي، ثم ارتدّ إلى الخلف وأضاف قائلاً: إذا أردت أن ترضي خالك يا بني فاقطعْ هذه المتسلِّقات من هنا لكي نرتاح منها!

نظرتُ إلى وجهه وابتسمت مضطراً إلى ذلك.

جلس خالي (حسين) إلى واحدة من الكنبات التي كانت الواحدة منها تزن بقدر وزن فيل ضخم ميت. جلس القرفصاء وأخرج مسبحته من

جيبه ثم دفن رأسه بين كتفيه، وأخذ يسحب خرز مسبحته بتؤدة الواحدة تلو الأخرى. وقبل أن يكمل خالي دورة واحدة من مسبحته دخل علينا جارنا العم (زبير) مع زوجته بضجيجه وصخبه. وجاء من بعدهم خالي (عزت) وهو يداعب مفتاح سيارته، ومن بعده جاءت خالتي الوسطى التي تشبه شبحاً له سمات قطة متوحشة يتبعها ابنها وزوجته. وبعد أن جاء الجميع تباعاً وغصَّت بهم الدار لم يبقَ فيها مكان للوقوف على الأقدام. فكان أنْ اختلطتْ الأصوات ناعمُها بغليظها ثم بلغت الثرثرة أوجها حين دار الحديث وجاء إلى الفساد الذي شاب توزيع مساعدات الفحم الحجري التي تقدم من قبل القائمْمَقامية، وتداول المتحدِّثون أخبار المطلَّقات والمطلَّقين والمتزوجين ثم تطرّقوا إلى العوائل التي تركت البلدة وهاجرت إلى (دنيزلي). وفيما كانوا يهرفون في الكلام كان خالي (حسين) ساكناً، لا يفعلُ شيئاً سوى سحب حبات المسبحة واحدة إثرَ أخرى بإبهام يده اليمنى. أما خالي (عزت) فكان يجلس بلا حراك، وكأنه محنَّط أمام مصوِّر شمسي يلتقط له صوراً مطلوبة منه في معاملة رسمية. ذقنه مرفوع إلى أعلى، ونظرُه ثابت يحدِّق إلى نقطة ما أمامه. بدا لي أنه كان موجوداً بيننا بجسده فقط، أما روحه فكان قد أرسلها إلى بعيد لتحلِّق في عوالم أخرى. ولهذا السبب ربما لم يشعر بمن كانوا يذهبون ومن كانوا يأتون. بعد ساعة أو ساعتين ولا ندري كيف حصل وأنْ عادت روحه إلى جسده، عندئذ صار كأنه بُعِثَ إلى الحياة ثوّاً. فمال إلى خالي (حسين) وقال له بصوت جهوري:

– ابنك موسى الذي ترك العمل في معمل النسيج قبل شهر ماذا يعمل الآن؟

– ماذا تريد منه أن يعمل؟ – قالها خالي (حسين) دون أن يرفع رأسه – يتنطَّط هنا وهناك في الوقت الحاضر!

لم يتفوَّه خالي (عزت) بأي كلام، وظلَّ ينظر إلى خالي (حسين) عاقداً حاجبيه، يحدق به على نحو أقسى من ذي قبل. لعله انزعج لأن ابن أخيه

عاطل عن العمل. ثم جال ببصره في الجوار، لعله كان يبحث عن ابن أخيه الذي يتنطَّط في الأرجاء ولا يجد عملاً مناسباً له، وإذا وجده لضربه ضرباً مبرحاً. ثم لانت سريرته قليلاً وأخذ ينقل بصره بسرعة على الوجوه المكتظة في الغرفة حتى توقف أخيراً عند وجه أمي. صاح بها بدهشة:

- هِيه، أنتِ يا أُخَيَّتَنا! صهرنا غير موجود، أين هو؟

الخال (حسين) هو الآخر رفع رأسه ونظر يمنة ويسرة، ثم قال بينه وبين نفسه: «صحيح! أين هو صهرنا؟».

- لا أدري إلى أين ولّى - قالت والدتي - كان قد ذهب إلى سوق المدينة قبل المساء، ولكنه لم يعد إلى الآن.

خالي (عزت) غيّر من وضعه في الجلوس، مال إلى جانبه على الوسادة مستنداً على رسغه، وأخذ ينظر شزراً إلى الخال (حسين).

- هيه، أنت يا أخينا! لم أنت غارق في التفكير هكذا مثل القمريّ الحزينَ.

كل من كان موجوداً في الغرفة التفتوا نحو خالي (حسين) الذي سحب نفساً عميقاً ثم قال بصوت حزين:

- أخذت الحصان وعرضته على البيطري، قال لي إنه في غاية النشاط ولكن الحصان مريض. أنا أعرف ذلك.

جاءت (آيبري) بعينَيها المتلألئتين والتصقت بجنبي وهي في أوج اضطرابها، وقالت:

- أبَتِ هذا له حصان! هل حقاً له حصان؟

- نعم يا حَمَلي الصغير - قلت لها - إذا أردتِ ذلك، سنذهب غداً لرؤيته.

في أثناء ذلك هبَّ خالي (عزت) واقفاً على قدميه. وقال بصوت بارد بمكان كان يكفي لتعميق نصاعة البياض الموجود في السقف:

- طالما لم يظهر صهرنا إلى الآن فإنه لن يأتي بعد هذه الساعة - قالها وخرج.

لقد صدق خالي، فقد انتظرنا أبي إلى ساعة متأخِّرة من الليل فلمْ يأتِ.

حينما خرجنا لندخن في الشرفة قالت (سحر):

- ألست قلقاً على أبيك؟ هل ذهبت إلى سوق المدينة للبحث عنه؟

- أصغِ إلى الصمت في البلدة! - قلت لها بهدوء - فالجميع أغلقوا محلّاتهم. ليس البقّالون وحدهم من أغلقوا أبواب دكاكينهم وحسب، بل حتى المقاهي قد أغلقت أبوابها، وخلت الشوارع والحارات من البشر، إلا الجان! فقد كانوا يلعبون الكرة في الأزقة. انظري أبواب المحلات كأنها وحوش اصطفت جنباً إلى جنب فاتحةً أفواهها المظلمة. في وقت كهذا حتى إذا ذهبت للبحث عنه فإنني أكون قد قمت بعملٍ غير مجدٍ. ثم إنني لم أقل لك إننا نحن أفراد عائلته، اعتدنا على غيابه بين الحين والآخر. في ذات يوم قبل ثلاثين سنة قال أبي لأمي أنا ذاهب إلى السوق فلا ينشغل بالكِ عليَّ. خرج من البيت وقلنا بيننا وبين نفسنا إنه ذهب ليتسكَّع في أحد المقاهي. لا ندري مِمَّن وكيف سمع أنّ هنالك (ميني باص) معروض للبيع في بلدة (دينار)[9] فرمى بنفسه إلى الطرقات وذهب إلى هناك وهو يردِّد: «وهل (دينار) هذه بعيدة من هنا؟ إنها على بعد خطوات». فشدَّ الرحال إلى (دينار) وحالما وصل إلى البلدة اندسّ بين الأهالي وراح يسأل هذا ويسأل ذاك حتى تأكد أن السيارة التي جاء من أجلها قد بيعت قبل أيام عدّة. خبرٌ آخر طرقَ سمعَه. لا أحد يدري كيف حدث ذلك، ربما حملته الريح، أن هنالك سيارة للبيع في مدينة

9- دينار: ناحية تابعة لمحافظة أفيون. اسمها القديم (كيبكلر). في أثناء هجرة القبائل التركية إلى الأناضول نزل في المنطقة قوم يرأسهم رجل يدعى (كيتيش) وجاءت التسمية نسبة إلى ابن الرجل وكان اسمه (دينار). تكتسب هذه المنطقة أهمية بالغة في طرق المواصلات في تركيا فهي حلقة وصل بين مناطق أقصى الأناضول وبين منطقة إيجة، كما تربط بين مرمرة وبين منطقة ساحل البحر الأبيض المتوسط. كانت مرشحة لأن تكون محافظة إلا أن الزلزال الذي تعرضت إليه في أيلول 1995 وتكبُّدها خسائر جسيمة دفعت الكثيرين إلى الهجرة منها - المترجم.

(اسبارتا) فأخذ يتخيل السيارة ويجسّدها أمام ناظريه، فركب إلى (اسبارتا) ومن ثَمَّة اتّبع بصيص أمل أخذ يتراءى له من (قونيا) فشد الرحال إليها. مكث فيها أربعة أيام ثم سافر باتجاه الشرق حتى وصل إلى (عنتاب) وكان قد نال منه التعب. مكث في (عنتاب) بضعة أيام ظل يدور في أثنائها باحثاً مستقصياً، فلم يجد سيارة ملائمة لإمكانياته المادية. ومن هناك انتقل إلى (أورفا). هناك أيضاً لم يجد سيارة بقدر المبلغ الذي يحمله في كيس نقوده فقال أخيراً بينه وبين نفسه: «ما دمت وصلتُ إلى هذه البلدة فلأذهبْ أبعد من هذا قليلاً لكي أزور الولد في وحدته العسكرية». وهكذا في ذات يوم نهض أبي وقت الضحى وجاءني إلى (جيلان بينار) حيث كنت أؤدّي خدمتي العسكرية. حينما جاءني إلى هناك كان قد قضى تسعة أيام في غيابه عن البيت، بدا وسخاً رثَّ الثياب. استغربت حينما رأيته ماثلاً أمامي، ومن شديد فرحي لم أعرف ماذا يتوجب عليّ القيام به. بعد ذلك جلسنا في التعريشة التابعة لكتيبتنا، كتيبة الدرك المحمولة، وتناولنا طعامنا متقابلين كأب وابنه. لا أتذكر أي صنف من الطعام أوصينا به من المطعم. لم أعد أتذكر غير السوتلاج. ومن محيطنا الصاخب لم أعد أتذكر سوى النهيق الذي كان يطرق أسماعنا قادماً من براري (رأس العين)[10] يتصادى رجعه عبر البراري المترامية تحت الشمس... ما أردت قوله هو أن أبي الذي كان قد استأذن للذهاب إلى السوق عاد إلى البيت بعد أحد عشر يوماً. طوال الوقت، أي طوال الأيام الأحد عشر التي غاب فيها كانت أمي تنتظره دون أن تعرف أين هو وما هو سبب غيابه.

10- رأس العين: مدينة سورية تقع على الحدود مع تركيا، متاخمة لبلدة (جيلان بينار) في الجانب التركي. كانت في العصر العباسي مركزاً تجارياً هاماً ومحطّة مهمّة للقوافل. اتَّخذ منها صلاح الدين الأيوبي مركزاً للاستراحة مدة عام كامل أثناء معاركه وفتوحاته في منطقة الجزيرة العليا وشمال العراق وحلب. تحدَّث عنها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق): مدينة كبيرة فيها نحو ثلاثمائة عين، وكل عين عليها شباك من حديد يحفظ ما يسقط فيها. ومن هذه المياه ينشأ معظم نهر الخابور - المترجم.

- فهمت! - قالت (سحر) - على أية حال إنك تريد القول إنه وبرغم كل شيء يعود إلى البيت في نهاية المطاف.

- طالما نحن هنا فإنه لن يبتعد عن البلدة كثيراً. غداً ستجدينه عائداً.

لم تنبس (سحر) ببنت شفة إلا أنها ظلت ترنو إلى بعيد حيث تتلألأ أضواء القرى البعيدة، تخبو هنا وتتوهَّج هناك في جوف الليل.

مثلما توقعت بالضبط! بعد يوم واحد نحو العصر، ظَهَرَ أبي إلى الوجود وهو يتحامل على عكازته، فاستقبلته أمي وسألته عن سبب غيابه، فرفع يده بضع مرات وأشار إلى مكان بعيد. ففي تلك الجهة التي أشار إليها كان نصف العالم قائماً، وإذا ذهبت أبعد لوجدت العالم كله هناك. كلنا ابتسمنا ونظر الواحد منا إلى صاحبه بطرف عينه، أما أبي فقد غرق في الصمت، منغلقاً على نفسه، غير مكترثٍ، بعيداً عن التأثيرات الخارجية، بوجه جامد لم تتحرّك فيه أية خطوط ولا أية تجاعيد.

تدخلت (آيبري) في تلك الأثناء وقالت:

- أبَتِ! كنت ستريني الحصان؟

- هيا بنا نذهب لرؤية الحصان.

ونحن نتحدث فيما بيننا جئنا أنا وابنتي إلى حافة المقبرة حيث الطريق النازل إلى الوادي، ومن ثَمَّة يمَّمنا صوب بيت خالي (حسين). قلنا له إننا جئنا لنرى الحصان فارتبك خالي (حسين) لا يدري ماذا يفعل، ثم مشى أمامنا وراح ينفث دخان سيجارته كما لو كان سفينة مبحرة ترسل دخانها عبر مدخنتها. قادنا وصولاً إلى بيتٍ مَبنيٍّ بالطابوق، ثُمَّ إلى الإسطبل الذي بني على شكل كوخ طيني. وما إن فتح باب الكوخ حتى أخرج الحصان رأسه فجأة. بالطبع (آيبري) أصابها الفزع حين صارت وجهاً لوجه مع الحصان، فأطلقت صيحة قصيرة واحتمت بي. حينئذ ضحك خالي بخفية ثم أخرج الحصان إلى فناء الإسطبل وهو يمسح على رقبته. مشى به بضع خطوات إلى اليمين وأخرى مثلها إلى الشمال، وبينما كان

يسير بالحصان مال على أذنه برفق وهمس ببعض الكلمات. كان حصانا كميتاً قوي البنية فارع الطول متناسق الأطراف كأنه فصٌّ عظيم من ياقوتة مشعّة، تنير الأرجاء من حوله. سألتني (آيبري) ولا بد أنها أعجبت به:

– هل ألتقطُ له صورة يا أَبَتِ؟ قالت وهي تريني جهاز التابليت.

– أوه سحقاً! – قالها خالي حين سمع كلامها – لو كنت أعرف أنكم ستلتقطون صوراً لها كنت أزينها من فوق إلى تحت بشكل لائق مثل أية عروس.

التقطت (آيبري)عدة لقطات وهي حذرة تحتفظ بمسافة كافية بينها وبين الحصان.

– لأركبْ على صهوته، لكي تصوريني على هذه الحالة – قالها خالي ثم سأل: هل ممكن؟

(آيبري) أومأت برأسها علامة على موافقتها: ممكن!

سمع خالي جوابها فلم يسعْه إلا أن طار من شديد فرحته، وتحوّل إلى طائر ذي قميص أزرق، يمتطي ظهر الحصان ويحلّق به. الحصان الذي شعر بثقل فارسه تراجع بضع خطوات إلى الخلف ثم رفع رأسه وملأ أنفه بالهواء. فالتمعت حزمة الأضواء على كفْلَيه. آنئذ استدقَّت سيقانه وانطلقت تسابق الريح. هاج عرفه كموج أحمر، أخذ يسيل بصخب عارم، كأنه كان قبل قليل مجرد صورة، إلا أنه انتفض هائجاً وتحوّل إلى طوفان. وهكذا امتزج الاثنان في نفسٍ واحدة. حتى لكأن الفارس تماهى مع الحصان والحصان تكامل مع فارسه. بعد ذلك شدّ خالي اللجام فشبَّ الحصان على قائمتيه الخلفيتين وأرسل صهيلاً براقاً إلى عنان السماء. ومن بعد ذلك قال للحصان هيا يا فتاي ولكزه بكعبيه بخفة فانطلق الحصان طائراً من فوق حائط الفناء. انطلقتُ إلى الخارج ظنّاً مني أن خالي لا بد سيسقط من فوق الحصان وتتناثر أشلاؤه مثل بطيخة، ولكنني وجدته قد اجتاز منزل والدي بلمح البصر. غاب في خضم الغبار الذي أثاره من ورائه على طريق بساتين الكروم. أنا وآيبري بقينا نشيّعه

من الخلف بنظرات حائرة، ونصغي لوقع سنابكه التي صارت تتردَّد في البعد. وبينما كنا على وشك مغادرة المكان قفز بالحصان من فوق الحائط مثل غيمة حمراء وعاد إلى المكان نفسه الذي انطلق منه. تسمّر أمامنا.

ترجَّل خالي وراح يداعب رقبة الحصان ويبدي امتنانه له، ثم التفت إلي ونظر إليّ بوجه حزين وقال بصوت خفيض:

- البيطري يقول إنه حصان سليم ولكنني أعرف أنه مريض برغم ذلك.

بطبيعة الحال لم أعرف ماذا ينبغي عليّ قوله. وبشكل لا إرادي نظرت باتجاه الحصان. سألني خالي:

- متى ستعودون إلى أنقرة؟

- غداً بعد الفطور الصباحي.

- إذن فلأودِّعكم منذ الآن - قالها بانكسار - غداً لا أستطيع رؤيتكم وتوديعكم لأنني سأذهب مبكراً في أمر عاجل إلى ما وراء المرتفعات الصخرية. حين كنت جالساً في المقهى قال أحدهم وكان رجلاً مسناً إن هنالك عشبة تنبت في تلك الأرجاء دون سواها. وبحسب ما أفاد الرجل إذا عثرت على تلك العشبة وقدّمتها للحصان قبل أن تشرق عليها أشعة الشمس لبرأ الحصان.

وهكذا احتضنني مودعاً إياي.

في اليوم التالي بعد أن تناولنا فطورنا الصباحي خرجنا من البيت. بالطبع كانت أمي قد جهَّزتنا بذخيرة لا بأس بها من المؤونة. من خضراوات مجففة إلى أنواع من «الطرشي» المعبَّأ، ومن البقوليات إلى البرغل والزبيب والدبس في حاويات بلاستيكية وفي دمجانات كبيرة وصغيرة، وبعض المواد الملفوفة في أكياس نايلونية.

- ضع الحاجيات الثقيلة إلى يسار السيارة - قالها أبي بينما كنت أرتب تلك الحاجيات في صندوق السيارة - وإلا فإنك ستتناثر خارج السيارة في أبسط فراغ تصادفه الإطارات.

- تماماً أفعل مثلما تطلب إليَّ يا أبي.

كان يتوكَّأ على عكازةٍ يضعها تحت إبطه ويراقبني بانتباه شديد.

- لا تنسَ أن تفحص براغي الإطارات بين الحين والآخر. يتوجب عليك تبريد الكوابح والإطارات لأنها تسخن أثناء السفر فعليك أن تركن السيارة لأخذ قسط من الراحة ولا يهمّ إن كنتَ متعباً أم لا.

- سنأخذ قسطاً من الراحة يا أبي.

- افحصْ الزيت والماء دائماً. أحياناً يأتي الشيطان وبيده مفكّ ليفتح ثقباً في الراديتور. أنت تعتقد أن الراديتور قد تآكل من الصدأ وصار فيه ثقب ولكن الأمر ليس كما تظن أبداً. ولا تنسَ أن تنظر ملياً إلى الأرض تحت السيارة في المكان الذي ركنتها قبل التشغيل والانطلاق.

- لا أنسى يا أبَتِ.

بعد توديعهم لنا ركبنا السيارة وانطلقنا.

كان خالي (عزت) واقفاً أمام بيته، وقد شبك يديه خلف ظهره لا أدري لماذا كان ينظر إلى أغصان شجرة الجوز الدانية. حين سمع ضجيج سيارتنا التفت على عجل ولوّح بيده قائلاً:

- وداعاً يا ابن أختي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-4-

بعد خمسة أيام اتَّصلتُ بأمي. في البدء تنهَّدتْ عبر الهاتف ثم تنفستْ بعمق وأخبرتْني عن غياب أبي مجدداً. بحسب قولها مذ غادرنا ونحن عائدين إلى بيتنا ظهرت على أبي علائم غريبة لا تبشِّر بالخير أبداً. ما إنْ يستيقظ صباحاً حتى ينزوي إلى ركن من أركان الغرفة، تتجمَّد عيناه على منظر الجبال الذي يظهر عبر النافذة. وهكذا يظل ساهماً، يحدِّث نفسَه، يضربُ أخماساً في أسداس، يبيع ويشتري العالم كلَّه حتى يحلّ المساء. استمر على هذا المنوال أياماً عديدة، وفي النهاية ارتدى «جاكتته» وغادَرَنا قائلاً: «أنا ذاهب إلى السوق». كان هذا قبل يومين. هي خَرْجَةٌ لم يعدْ بعدها إلى البيت لحد الآن.

– إنها ليست المرة الأولى يا أمي – قلت – ففي كل مرة يقوم بنفس هذه التصرفات. لا تقلقي سيعود إليكِ.

لم أستطع مواساة أمي بهذا الكلام. فقالت بصوت كأنه غيمة اختزنت تجاويف عميقة، إنها تخاف كثيراً، لا بد أنّه يحيك أمراً خطيراً، وفي أثناء الحديث أردتُ أن أسألها عن خالي (حسين) إن كان قد عثر على تلك العشبة، وهل قدّمها لحصانه؟ أردتُ أن أسألها إلا أنني خشيت أن تقول لي: «وما أدراني يا ولدي إن كان قد عثر على العشبة أم لا. سحقاً له ولعشبته ولحصانه!»، أو ربما كانت تقول لي مؤنِّبةً إيّاي: «يا للعجب يا ولدي! أنت تترك أباك، تترك الأرومة التي جئتَ مِن صُلبها وتسأل عن عشبة حقيرة! ألا سحقاً لك يا ولد». ربما كانت تصبُّ عَلَيَّ جام غضبها،

لهذا لم أفتح الموضوع. حاولت أن أواسيها، وأن أُثلج صدرها بهذا الكلام الاعتيادي.

بعد أن انقطعت أخبارهم عنِّي ومرّت عدة أسابيع، خابرتُ والدتي، ألقيت عليها سؤالي بتؤدة متسلِّلاً من خلف عقدة العشبة التي ظلَّت معلّقة في ذاكرتي:

- أُمَّاه هل هنالك أية أخبار جديدة عن أبي؟ هل عاد إلى البيت؟

- رجِعَ يا ولدي رجِع!

قالت وهي تتنفس بعمق وتتحسَّر، وما إن قالت كلامها هذا حتى سكتت. شعرت أنها وضعت حاكية الهاتف جانباً وانقطع صوتها فترةً ما، وكأنها كانت تنتقل إلى غرفة أخرى. أنا أيضاً سكتُّ وانتظرت متى تتكلَّم. ثمَّ عاودتْ أمي الكلام وهي تقول: «هذا هو ما كنتُ أخشاه!»؛ لقد جاء أبي بسيارة (ميني باص) إلى البلدة، علمنا فيما بعد أنه اشتراها من مدينة (بوردور).

وبحسب ما قالته أمي فإن اختيار أبي قد وقع على عربة (ميني باص) مهترئة كان من المفترض تسقيطها قبل هذا بزمن طويل. مقاعدها مهلهلة وجلدها ممزق. دعامِيَّاتها صدئة. الإطارات متآكلة والبدن مُثَقَّب مثل مغرفة. بادِئُ الحركة[11] في قطعة الخردة هذه لم يكن يعمل أصلًا، لذلك كان على أبي أن يوقفها في مكان عالٍ مشرف على منحدر لكي يتسنّى له تشغيلُها دون مساعدة أحد. متى ما أراد الذهاب بها إلى السوق ركب هذه الأعجوبة ووضع عكازته جانباً وأدار ناقل الحركة إلى وضع الفراغ لتسرح العربة من نفسها بصمت على المنحدر. فتظلّ تعتعت وتهتز وأبي منكبٌّ على مقودها، حتى تصل إلى محاذاة بيت خالي (وقاص) حينئذ تبدأ بالسعال والاهتزاز ثم ينفجر دخان أسود من عادمها. وهذا دليل على أن محرِّكها بدأ بالدوران. بعد أن تمرّ العربة وتذهب بعيداً تظهر العمة (كولبهار) وقد انقلبتْ تقاطيع وجهُها وصارت مكْفهِرَّة. اعتادت أن تتصرف هكذا. سمعتها تتشكّى في المرة

11- القطعة التي تعطي الناريّة للمحرِّك في السيارة: (ستارتر) أو (السلف) بادئ الحركة - المترجم.

الأولى، ثم الثانية والثالثة، وفي المرة الأخيرة انتفضت وراحت إلى زوجة أخيها، تسألها عن سبب تصرُّفها بهذا الشكل. فتعدّلت زوجة خالي في وقفتها وأسندت ظهرها بإحدى يديها، وفي اليد الأخرى ظلَّت تلوّح بالمِكناسة. أرتْها السخامَ الأسود المتناثر من العادم وبقعَ الزيت على الأرض وهي تقول:

– كل هذه فضلات تلك الزبالة التي جاء بها زوجك المدعو (عزيز). لا أدري لماذا يأتي بتلك الدابة ويركنها هنا عمداً. يشجعها على أن تتبوَّل وتتغوَّط أمام منزلنا.

وزادت زوجة خالي في تماديها في الاستهزاء بأبي وبسيارته:

– ويا ليت فضلاتها تشبه ما تتركه الدّواب.

قالت وهي تبرم فمَها برعونة. وقد كان ذلك كافياً لإثارة أمي. فغضبت لسماع هذا الكلام ولكنها أحنت رأسها وعادت إلى منزلها دون أن تتفوَّه بأية كلمة.

صار المساء بالنسبة إليها أبعد ما يكون من متناولها، ظلت إلى ذلك الحين تدور في أرجاء البيت مثل المغزل. لم تطبخ أي طعام لوجبة العشاء قولاً منها، برغم أي شيء فإننا إذا اضطررنا سنأكل حتى البصل الحَرِّيف. وعندما جاء أبي إلى البيت نقلت إليه ما جرى بينها وبين (كولبهار) قائلة:

– يا ابن الناس لِمَ تتسبَّبُ في تهجُّم (كولبهار)، ذاتِ الساقين العوجاوين، عليَّ، والوجه ذي التجاعيد الكثيرة مثل أوراق الزعرور الجرماني. أرجوك ألّا تشغّل هذا السمَّ الهاري أمام بابهم.

وكانت قد طلبت إليه أنْ يشغلها بعدَ اجتياز عتبة بابهم. أبي لم ينبِس ببنت شفة بإزاء هذا الكلام، واكتفى بالنظر إلى قدح الشاي الذي كان بين أصابعه. ومنذ ذلك اليوم لم يشغِّل السيارة أمام دار الخال (وقاص) بل كان يعطيها مسافة أطول في المنحدر فكانت تسرع في نزولها أكثر فأكثر حتى يخال للرائي أنها كتلة صخرية تتدحرج نازلة من سفح الجبل. فكانت زجاجات نوافذها تهتز ومقاعدها تتراقص. تميل المقاعد إلى أمام وكأنها ذاهبة إلى السجود ثم تتعدَّل، وتتفتَّق شرائطُ اسفنجيَّة من سقفها وتزداد جعجعة أجزائها

حتى تصل إلى الجامع وهي أقصى نقطة في أسفل المنحدر. أشدُّ ما كانت تخشاه أمي هو أن يخرج طفلٌ ما فجأة من أحد الأزقة في أثناء هبوط السيارة، وأن يسحق تحت عجلاتها مثلما يُعصر العنب. ففي كلّ مرة كانت تقف عند عطفة الزقاق لتراقب هبوط السيارة وتتابعها حتى تغيب عن الأنظار.

استخدام السيارة برجل واحدة أو بطرف اصطناعي مخالف لقوانين المرور. سألتُ والدتي:

– لا أدري ماذا يقول لرجال الشرطة حين يوقفونه؟

قالت:

– لا أدري يا ولدي. أنا لا أفهم في هذه الأمور، ولكن حسبما أعتقد أنَّ أباك لم يكن يذهب إلى السوق، وإنما يخرج من البلدة ويظلُّ إلى المساء يتجوَّل بين القُرى والأرياف.

– وما شغله هناك؟ هل هنالك أعمال يكسب من ورائها؟

– علمت أنه يذهب بالحلّاق (نور الدين) – قالت أمي – هنالك بعضُ من القرويين يتّصلون به هاتفياً ليحلِق لهم. وهذا يخبرُ أباكَ فيذهبان معاً. لا أدري لِمَ لا يردُّ أبوك أيَّ طلبٍ لهذا البائس الفقير. حين يأتي إلى البيت ويصيح من عتبة الباب «يا معلِّم عزيز!»، يتلخْبَطُ كيان أبيك. ومن شديد ارتباكه لا يعرف ماذا يفعل، ينهض من مكانه مسرعاً، يصيح بي «هاتي لي ساقي، إليَّ بساقي!». جُلُّ ما أخشاه هو أن يعمل حادثاً في يوم ما، فيأتي إلى بابنا من يبلغُنا بالخبر المشؤوم.

– لا تخافي ياأمّاه، لا تخافي! – قلت لها – لن يحدث أي مكروه إنْ شاءَ الله.

أنا أيضاً انتابني الخوف ولكنني كنتُ مجبراً على الكلام هكذا من أجل تبديد مخاوفها.

مرّت ثلاثة أشهر على تلك المكالمة، وفي اتصال هاتفي آخر مع والدتي قالت بنبرة مِلؤها اليأس:

– آه يا ولدي آه، ألم أقل لك أنا خائفة من مصيبة ستحلُّ بي! وما كنت أخاف منه وقَعَ على رأسي.

الحدث الذي وقع حسبما نقلته أمي كان قد وقع قبل عشرة أيام، حين ركب أبي الميني باص وبدّل ناقل الحركة إلى وضع فراغ بدأت العربة بالانحدار إلى أسفل وفي لمح البصر اجتازت عتبة باب الخال (وقاص). أخذت تمر بالبيوت مثل الريح وتزداد سرعتها شيئاً فشيئاً. لم يستطع أبي تبديل ناقل الحركة لوضعه على رقم اثنين، وباءت بالفشل كل محاولاته في إيقاف هذه الآفة النازلة بأقصى سرعتها، وراحت سرعتها تزداد وتزداد حتى وصلت العربة إلى الشارع العام في البلدة واصطدمت بعربة كانت مارة من هناك. حمداً لله لم يسفر الحادث عن وقوع أضرارٍ في الأرواح، ولكنَّ السيارتين تحطَّمَتَا تماماً، وبالأخصّ السيارة المقابلة. أما الميني باص فقد صُودِرَتْ من قبل الشرطة بسبب عدم وجود بوليصة تأمين فيها، لأنّ مالكها تخلَّف عن إجراء فحصٍ سنويّ لها. جاء أفراد الشرطة برافعة وسحبوها إلى رحبة عجلات تقع جوار مدينة (جيفريل) على بعد أربعين كيلومتراً من هنا، على أن يستحصل مبلغ عشرون ليرة يوميّاً من صاحب (الميني باص) لقاء مبيت سيارته هناك. وللعلم سوف يتضاعف مبلغ الغرامة يوماً بعد يوم. وهكذا تكالبت كل القوانين على بعضها بعضاً ضدَّ أبي. فكان عليه أن يتحمّل تصليح السيارة المقابلة وكذلك تكاليف إقامة الدعوى. وهكذا تشابكت الأمور حتى صارت عقدة مستعصية. كان خالي (عزّت) يردِّد بين الحين والآخر أنَّ مبلغ الغرامة عن كل يوم مبيت في رحبة العجلات هو خمسة وخمسون ليرة وليس عشرون ليرة. وكان يحسب بأصابعه ويميل برقبته يمنة ويسرة ويغضُّ بصرَه قليلاً ويعدّ المبلغ الذي سيتراكم على أبي، ويجمعُ المبلغَ مع الفوائد المترتِّبة عليه مع إضافة الضرائب فيقول لأمي «يا أختي سيتوجب عليكم دفع المبلغ الفلاني! مستحيل أنتم لا تستطيعون إيفاء هذه الديون. وسوف لن تقوم لكم قائمة بعد هذا». كان يهذي بهذا الكلام الموجِع وفي كل مرة كانت أمّي تصاب بالخفقان.

– أُمّاه لا تكترثي لكل ما يقال – قلت لها في هذا الجزء من الكلام من أجل مواساتها.

ولا بدَّ أن أبي كان جالساً يسمع الحديث الدائر بيننا فقال بصوت مخنوق: «يا امرأة لِمَ تنقلين كل هذا الكلام للولد!»، ولم يكتفِ بذلك بل راح يُرعِد ويُزبِد فأردف قائلاً: «لماذا تطيلين الحديث يا امرأة؟ فكلُّ دقيقةٍ تسجِّل مبالغ طائلة على الولد»، قالها وأجبرَ أمّي على إغلاق الهاتف. كنت أودّ أنْ أتحدَّث إليه وأفهم منه مباشرة ما جرى له، وأُطيِّب خاطرَه، إلا أنه لم يمسك بسمّاعة الهاتف، وافتعل كل هذا الضجيج لكي يهرب كما في كل مرة. صاح بأمّي: «هيا هيا قولي له أبوك يبلغك السلام، أبلغيه سلامي».

في الأيام الأخرى اللاحقة لم أستطع أن أَحظى بفرصة التحدُّث إليه. كان يتهرَّب دوماً. كنت أسمع صوته قادماً من مسافة بعيدة، وفي العادة كان صوتُه يتوارى خلفَ صوتِ أمّي.

في أوَّل أيام أيلول حين بدأت الأرض بالاصفرار وأوراق الأشجار بالذبول اتَّصلتْ أمي هذه المرة، وأخذتْ تتحدث بصوت يابس يتساقط مثل الأوراق الذابلة. قالت:

– أبوك لم يعد يستطيع المشي يا ولدي! لا يقوى على المشي حتى بعكازتين.

– ماذا حلَّ به يا أمّاه! – سألتها بدهشة.

– يقولون أصيب بتكلس في عظام الحوض. قبل أيام أنا وأخوك ذهبنا به إلى المستشفى الحكومي. عاينه الأطباء وفحصوه، فقالوا هذا الكلام الذي سمعته. قالوا: لا يبرأ من هذا الدَّاء ما لمْ تُجرَ له عملية جراحية. انظر يا ولدي! هاك أعطيك إياه ليتحدث إليك بنفسه.

ران بيننا الصمت لبعض الوقت، ربما كانت أمي في طريقها لتذهب بجهاز التلفون من مكانه المعهود على الطاولة الصغيرة لتقرِّبه إلى أبي الجالس على الكنبة. بعد ذلك سأل أبي بصوت مرتعش وعاجز:

– ألو، هل كل شيء عندكم على ما يرام؟ – ومن بعد ذلك أضاف قائلاً: وضعنا الحالي هو مثلما وصفَتْه لك أمّك، فلا يسعُنا أنْ نقول شيئاً على ذلك.

– أتمنَّى لك الصحة والعافية يا أَبَتِ! – قلت له.

- تسلم يا بني! - قال بوهن.

سكتنا. لا أدري لماذا خيّم الصمت بيننا! ففي تلك اللحظة خُيّلَ إليّ أن هذا الصمت في جهاز الهاتف كان نابعاً مِنّا نحنُ الاثنين. وكأنَّ هناك شيئاً آخر كان ماثلاً بيننا وقد لبس لبوس الصمت.

قال أبي:

- العاصمة تكون مختلفة، خذْني إلى إحدى المستشفيات الموجودة هناك.

- هل آخذ موعداً للأسبوع القادم؟ - سألته.

قال:

- خُذْ!

هرعت إلى هاتفي واتصلت بمستشفى خاصّ بإحدى الجامعات - لا أرى ضرورة لذكر اسمها هاهُنا - وحصلت على موعد من قسم الكسور فيها. وقبل يوم واحد من الموعد سافرت إلى (دنيزلي) لأجلب أبي. حينما وصلت إلى طريق (أسكي شهر) لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. كان الجو نَدِيّاً بارداً، تنتشر هنا وهناك مساحات مضبَّبة بيضاء وأخرى زرقاء. تهرول الأشجار بجذوعها وأوراقها وتنساب عن يميني وعن شمالي. فكل شيء حولي كان ينبض بالحياة حتى الأعشاب النَدِيَّة الممتدة على حافَّتَي الطريق. كنت قد شغلّتُ الراديو الموجود في السيارة لِئَلَّا يتبدَّد تركيزي بينما أجلس خلف مقود السيارة. في تلك اللحظة كان صوت (سيد جيويك) يصدح في المذياع بأغنيته الشهيرة (حصان الشجاع مربوط في الفناء)[12] يغنّيها مِلء حنجرته وبأوداجه المنتفخة وهو الرجل الأسمر، فيخيَّل إليك وأنت تسمع صوته أنه نابع من الأعماق. لهذا كنت أحب (سيد جيويك) بالطبع. ناهيك عن أنه أخذ شذرات من معاصريه من المطربين أمثال «الأُوسطى بولدوك» و«جكيج

12- سيد جيويك: مطرب شعبي وعازف. اشتهر بالغناء والعزف على آلة الكمان في الوقت نفسه. له أغنية مشهورة هي: (حصان الشجاع مربوط في الفناء). ولد في (كريك قاله) 1941- المترجم.

علي» و«حاجي تاشان» وجمعها في صوته، فصار أكثر رواجاً بين سكان هذه الأرجاء. عندما أسمعه يخيَّل إليّ أنني أسمع كل هؤلاء معاً. وأشعر أنه يضيء بأشعّته سفوحَ قلبي بلغةٍ ذات تقاليدٍ كريمة الأصل. كلّما سمعت هذه الأغنية انتابتني المشاعر نفسها، وفوق ذلك كنت أزداد انتباهً وأشعر بحيويّة ونشاط.

بالضبط في تلك اللحظة تماماً تراءى لي بياضٌ ما عبر مرآة السيارة الواقعة إلى الجانب الأيسر. في البدء تصوّرت أن هنالك عربة أخرى موجودة خلفي. يريد سائقها أن يجتازني. ولكن المسألة لم تكن كما تصوّرتْ. كان ذلك عبارة عن جسم أبيض يمتد حيناً ويتقلّص أخرى، يرتفع مرة وينخفض مرة أخرى. وأحياناً كان يغيب عن الأنظار تماماً. ومن أجل أن أعرف ما هو هذا الجسم الأبيض رفعتُ قدمي عن دوّاسة البنزين وبدأت بالضغط بخفّة على الفرامل لكيلا أفقد توازن السيارة، ثم أدرت رأسي ونظرت إلى الخلف بعجالة لكي أكتشف ما هو هذا البياض الذي يتبعني. وما راعَنِي إلّا أنْ تعلّقت نظراتي بحصانٍ أشهب يخالط لونه بياضٌ حليبيّ يعدو على قارعة الطريق. وكأن هذا الحصان هو نفسه قد خرج من الأغنية التي كنت أستمع إليها قبل قليل. خرج من فناء الأغنية وجاء إلى هنا. كان يصهل ويعدو بكل ما أوتي من قوة ليلحق بي. شددتُ النَّظرَ مرَّةً أخرى فوجدته قد غاب عن الأنظار. ربما كان قد وقع في زاوية ميتة من السيارة. جُلت ببصري هنا وهناك، بحثت عنه في المرايا الجانبية فلم أرَه. مرّت عليّ سبعُ أو ثماني دقائق دون أن أرى الحصان. ثم رأيته مثل غيمة بيضاء خرجت من الحقول المنداحة إلى شمالي، حيث يشكّل الوادي مساحة لونية خلفية بعمقه الأخضر الذي تشوبه بقع صفراء. كان يعدو خبباً وقد أطلق عرفه في مهبّ الريح. بعد مدة قصيرة بعد أن اجتاز عموداً للتلغراف غاب مرة أخرى. عندئذ فكرت أن ما أراه قد يكون مجرّد حلم ليس إلا. ربما لأنني كنت أفكر بخالي (حسين) وبحثه عن تلك العشبة. قلت بيني وبين نفسي: تلك الأغنية التي كنت أستمع إليها ربما أيقظت هذا الشعور في نفسي، ولربما تجسّد الحصان أمام ناظري لأنه كان قد دُفِنَ في عقلي الباطن. وفجأة استدركت وقلت: لقد كان حصان خالي كُمَيتاً وليس أبيضاً. وبينما كنت ساهياً أفكر وإذا بالحصان يختفي. اختفى ثانية لعدة دقائق ثم عاد

للظهور من جديد. يعدو خلفي والبخار يتصاعد من أنحاء بدنه. حين وصلت إلى طريق (بولاتلي)[13] أطلق الحصان عدة صهلات تردّد صداها في الأرجاء حتى أنها أنارت المكان برمّته. وما إنْ وصلنا إلى مفترق الطرق في (هيمانا) حتى راح الحصان يعتلي وكأنه سيحلّق في السماء. بدا لي أنه موشك على التماهي مع زرقة السماء. ثم وثب على قائمتيه الخلفيتين فجأة واختفى.

بدأت أزيد من سرعة السيارة حتى وصلت إلى (بولاتلي). عندما بلغتُ (كور أوغلو بيلي) كان قرص الشمس قد ارتفع عن الأرض مقدار رمح. وبينما كنت صاعداً باتجاه المرتفع شعرت وكأن ابنتي (آيبري) تمتد نحوي من الخلف وبراحة يدها تلمس كتفي. لذلك أدرت مقود السيارة باتجاه اليمين صوب المكان الذي كنا نرتاح فيه في سفراتنا. ركنت السيارة تحت أشجار الصنوبر ورحت من فوري إلى قفص الدراريج وعش الأرانب. استعرْتُ عينَي ابنتِي لأنظرَ بهما إلى هذه الحيوانات الأليفة. فكّرت هل ستجد هذه الكائنات رائحة ابنتي فيَّ. هل ستلتفت هذه الكائنات نحوي وتقترب إليَّ على أمل أن تجد شيئاً منها في شخصي؟! ولكن أيَّ شيءٍ من هذا لم يحدث.

لم أتناول أيّ شيء من الطعام سوى أنني اكتفيت بقدح من الشاي ودخّنتُ سيجارة، ثم واصلت السفر.

حين بلغتُ البلدة كان أبي في انتظاري وقد جهّز نفسه. قال هيا دعْنا نبكِّر في الذهاب لئلّا يداهمنا الليل في الطريق. ثم نهض بوجه مكفهِرّ، استند إلى الحائط ثم تناول عكازتيه ومسك بهما تحت إبطيه، وراح يمشي وهو يتأوَّه ويتوجَّع في كل خطوة من خطواته القصيرة. وبينما كان يَهُمُّ بالمرور من تحت المتسلِّقات لدى الباب همَمْت أنْ أمسك بيده لتقديم يد العون له، إلا أنه لم يطاوعني بل راح يستند على الحائط بكتفه اليسرى كأنه يمسح الحائط به وهبط عبر السلالم لوحده دون مساعدة أحد. استغرق ذهابه إلى السيارة التي كانت مركونة على بعد عشرة خطوات وجلوسه إلى المقعد الأمامي

13- بولاتلي: بلدة تابعة إلى أنقرة. تقع على بعد 72 كم تقريباً إلى الشمال على الطريق المؤدي إلى (أسكي شهر). يبلغ تعداد نفوسها حوالي 120 ألف نسمة - المترجم.

نصف ساعة تقريباً. جاءت العمة (كولفم) ومعها العم (أيوب). خالي (عزت) خرج من بيته ومن الجانب الأيمن جاء (زبير) وزوجته، ومن دارها الكائنة في الطريق المنحدر جاءت خالتي الوسطى مع العمة (هجران). تَحلَّق الجميع حول السيارة وهم يشيِّعون هذا الرجل المكابر الذي يجهد نفسه في المشي والوصول إلى السيارة. وبعد أن ركب السيارة جاءت أمي من بعده وجلست في المقاعد الخلفية تحمل أكياس نايلون. انطلقنا في طريقنا يحيط بنا المودِّعون وهم يدعون لنا بالخير والسلامة. هناك عندما بلغتْ السيّارة حافَّة المَقبرة. في عطفةِ الزقاق تماماً لمحتُ الصَّبيَّ ذا القميص الأبيض الذي كنتُ رأيتُه قبل هذا. كان منحنياً ينظر إلى العربة.

عندما مرَرْنا من أمام بيت الخال (وقاص) سألني أبي:

– ما هذا الصوت يا ولدي؟

قلتُ:

– تنبّهك العربة إلى ضرورة شدّ حزام الأمان.

– لقد اخترعوا هذه لكيلا ننجو في أثناء الحوادث – قالها أبي وهو يشدُّ حزام الأمان.

من بعد ذلك قضى أبي مدة طويلة لم ينبسْ خلالها ببنت شفة. بل وضع يديه على ركبتيه، وصار كتلة من الانتباه، ينظر إلى الطريق بدقّة متناهية وكأنه هو الذي يسوق العربة.

جربت بضع مرات أن أحمله على الكلام إلا أن جهودي باءت بالفشل. أومأ برأسه حيناً، وأخرج أصواتاً مثل (هيه) و(أي أي أي) دلالة على إجابات مقتضبة أجابني بها على مضض. بينما ظلّت أمي وحدها هي التي تتكلم. ظلت تتكلم عن ذهابهم إلى المستشفى الحكومي في (دنيزلي) وما جرى لهم هناك؛ «هكذا رفع الطبيب حاجبيه وعبست الممرضة. وفي أثناء ذلك مرّ من جانبنا جريح محمول على نقالة، يدفعون بها والجريح غارق في دمائه...». أخذت تقصُّ علينا ما شاهدته هناك وبالتفصيل الممل.

حين اجتزنا (آفيون) قال أبي:

- بقيت لدينا مسافة مائتين وستين كيلومتراً إلى (أنقرة).

التفتُّ إلى أبي وألقيت نظرة إلى وجهه فكانت هنالك أشجار وأعمدة تلغراف، تلال وغيوم تعبر مسرعة من خلف وجهه. فخيّل إليَّ أن أبي يعوم في عالم الطبيعة. قلت بيني وبين نفسي: إنه يسبح في هذا العالم دون أن يأتي بأية حركة. ثم التفت ونظرت إلى أمام كي لا أفقد سيطرتي على المقود.

حين وصلنا إلى (جومو)[14] سأل أبي:

- هل هذه المنطقة هي جومو؟

- نعم! - قلت.

فجأة دبَّتْ الحركة فيه، رفع يده على نحو أستطيع رؤيتها بسهولة وهو يخفق بها أمام لوحة القيادة[15] وأخذ يؤشر لي بسرعة أنْ «امشِ على مهلك، امشِ على مهلك!».

ظننت أنه ربما يحاول جذب انتباهي إلى وجود مفرزة رادار قريبة، لأنه وبحكم خبرته الطويلة في هذا المضمار يعرف أين تختبئ مفارز الرادار على الطريق. فأبدلت ناقل الحركة من الرقم خمسة إلى أربعة ثم إلى الرقم ثلاثة وهكذا مررنا عبر بلدة (جومو) بتؤدة وحذر مثل قطة تمشي على أطراف أصابعها. أما أبي فقد مال إلى الزجاجة الأمامية وأخذ ينظر إلى المحلات والبيوت المنتشرة على جانبي الطريق. ينظر إلى الناس الرائحين والغادين وكأنه يعرفهم، وأنه ينوي أن ينادي على أي واحد منهم ليسأله سؤالاً. كانت البلدة تسيل من جانبَي السيارة. وبعد أن انتهى سيل البيوت عاد أبي إلى الوراء وأسند ظهره إلى ظهر المقعد. ثم تنفَّس بعمق، ولاذ بالصمت حتى وصلنا إلى (بولاتلي) ومن بعد ذلك غرِقَ في عالم الصمت تماماً.

14- گومو (بالكاف الأعجمية): بلدة جومو تابعة إلى ناحية (أميرداغ) في محافظة (أفيون قرا حصار) على الطريق ما بين محافظة (دنيزلي) وبين (أنقرة) - المترجم.

15- لوحة القيادة: من أقسام السيارة ويراد بها الجزء الأمامي الذي يلي الزجاجة الأمامية داخل السيارة. يحتوي على لوحة المقاييس وعلى جرّار ذي غطاء. جاءت التسمية من الإنكليزية... «طبلون» أو «دشبول»- المترجم.

وفي طريق الخروج من (بولاتلي) عندما صرنا قبالة محطَّة الوقود الواقعة على يمين منعطف (هيمانا) أخذتُ أنظر يمنة ويسرة على نحو لا إرادي لعلِّي أحظى برؤية الحصان هناك. فسألَني أبي:

– لماذا تنظر إلى الجوار بهذه الطريقة؟

– هكذا... أنظر دون أي هدف! لا تقلق لا يوجد أيُّ شيءٍ مُضِرٍّ يا أَبَتِ.

لَمْ يَحِرْ أبي جواباً، بل عاد ثانية إلى وضعه السابق ليستند إلى ظهر مقعده، ثم ضيَّقَ ما بين جفنيه وواصل مراقبة الطريق.

وصلنا إلى (تمللي) وصرنا قاب قوسين أو أدنى من (أنقرة) وكان الجو قد أظلم وأشعلت السيارات مصابيحها الأمامية. عندما رأى بعضاً من السوّاق لم يشعلوا المصابيح الكاشفة الأمامية قال: «هؤلاء يتصوَّرون أنَّ فواتير الكهرباء ستأتيهم غداً إلى الباب».

ابتسمتُ لسماع كلامه هذا.

في اليوم التالي أنا وأمي وأبي ذهبنا إلى المستشفى التعليمي التابع للجامعة – لا أريد ذكر اسمها – وقضينا ساعات عديدة يجرفنا سَيْلٌ آجِنٌ من المرضى، نسعى هنا وهناك في ردهات طويلة تنتشر فيها روائح أدوية وعرق بشري يزكم الأنوف. تجوَّلنا مع أبي الجالس على كرسيه المتحرك ندفعه من مختبر إلى مختبر. تابعنا بشغف رقم مراجعتنا على الشاشات، ثم دعسوا أوراقاً في أيدينا. صِرْنا نصعدُ بالمصاعد الكهربائية إلى الطوابق العُليا ومن ثَمَّ ننزلُ إلى الأسفل. وفي نهاية المطاف صوَّروا فِلماً شعاعياً لأبي واستلمنا نتائج التحاليل التي أُجرِيَتْ له. وبعد انتهاء فترة الغداء حين دخلنا غرفة الطبيب قال:

– سيد عزيز! هنالك تكلُّس في عظام الحوض، يجب أن نجري لك عملية جراحية.

كان أبي يقفل فمه بشدة بينما كان جالساً على كرسيه المتحرك، يحدِّق في وجه الطبيب. تكوّر تجويف غريب على خدّه مجدداً وصار مثل ظلٍّ شفيف فيه ارتعاشة. في تلك الأثناء خرج الطبيب من صمته وقال بصوتٍ

مسطَّح منقَّىً واحدٍ بأثرٍ خالٍ من أيّة ارتعاشات عاطفية: هل نحدِّد يوماً لإجراء العملية؟

نظر أبي إلى الأسفل مطأطئاً رأسه. بلعَ ريقَه بضع مرات:

- في (دنيزلي) قالوا لنا الكلام نفسه. قالها وهو ينظر إلى موزائيك الأرضية: ألا يوجد حل آخر أهون من هذا؟

رحت جاثياً إلى جانب كرسيه المتحرك بتؤدة فأشاح بنظره عن بلاط الأرضية ونظر إلى وجهي بعينين مُخضلَّتَين.

- دعك من هذا، قالها وأشار إلى باب الطبيب، قالوا لي في البلدة سيكون العلاج الطبيعي أفضل بالنسبة إليك. خذني إلى قسم العلاج الطبيعي.

- لا أدري إن كانوا يجرون فحوصات اليوم أم لا! دعني أسألهم - قلت له.

بعد ذلك ذهبت إلى قسم العلاج الطبيعي ماراً عبر الرُّدهة التي كانت تغصّ بوجوه واجمة. حددوا لنا موعداً بعد ثمانية أيام. أقسم أبي قائلاً: «والله وتا الله لن أبقى في (أنقرة)»، فاضطررنا إلى السفر إلى (دنيزلي) ثانية. طوال الرحلة وعلى مدى ساعتين لم يفتح أيٌّ منا فمه في العربة لينطق بأي كلام. كانت الأشياء تمر بنا من كلا الجانبين تَتْرَى، متوشِّحةً بألوانٍ متنوعة وبأشكال مختلفة، تنساب مع الغيوم وهي تصدر غمغمة.

حين وصلنا إلى (جومو) دبَّت حركة خفيفة في أوصال أبي، فرفع إحدى يديه وراح يظلِّل بها عينيه. قال:

- أهذه هي (جومو)؟

- نعم - قلت.

ثم رفع يده الأخرى وأخذ يؤشر لي بنفس الطريقة السريعة. قال:

- هنا خفِّف السرعة خفِّف! اعبرْ من هنا على مهلك!

قلت بيني وبين نفسي:

- لا بد أن أبي يعرف عن هذا المكان ما لا نعرفه نحن. فأبدلت ناقل الحركة إلى الرقم ثلاثة ومررت بالمكان على مهل.

أوصلت والديّ إلى البيت فيما كان أذان المغرب يرفع في البلدة، ألحَّ عليّ والداي بقولهما أن امضِ الليلة عندنا وارجع إلى بيتك في الصباح الباكر، ولكنني لم أشأ أن أبقى هناك، فوخزت عربتي وقفلت راجعاً. كانت أفكاري مضطربة. حين خرجت من الطريق الحولي[16] إلى الطريق الفرعي المؤدي إلى (أريامان) كان قد انتصف الليل.

بعد ثمانية أيام استيقظت مبكراً ومضيت في طريقي إلى (دنيزلي) لكي أجلب أبي. قبل شقشقة الفجر كانت الأرجاء في حالة من الغبش، ما زالت الأشكال متكدِّرة والألوان مضبَّبة وكان الطريق مستلقياً أمامي، مضاءً إضاءةً خفيفة مثل ترنيمة موحشة. أما صوت محرك العربة فكان يتحوَّل إلى بطّانية تلتفُّ حول جسمي فيما كنت أحدق إلى الطريق. كنت جالساً خلف مقود السيارة بين الحلم واليقظة على الرغم من تشغيلي للراديو.

حينما وصلت إلى مفترق الطرق في ناحية (هيمانا) وقبل الدخول إلى (بولاتلي) لا أدري إن كان هذا بسبب تفكيري بالحصان أم لا، شعرت أنني قد ثبت إلى نفسي بعض الشيء. حتى إنني أدرت رأسي ونظرت بلهفة يمنة ويسرة لعلني أراه. وفي أثناء ذلك ظهر الحصان على حين غرة، وكأنه هو الآخر كان في انتظاري منذ وقت طويل. خرج من بين الأشجار الكائنة خلف محطة الوقود الواقعة على شمال الطريق. وما إن خرج حتى أخذ يعدو بكل ما أوتي من سرعة، ويمد رقبته أحياناً ويصهل صهيلاً أليماً متناغماً مع وقع حوافره. وما هي بضع لحظات حتى فقدته حين بلغت المفترق الثاني. رحت أنظر إلى يميني وشمالي، وإلى المرايا على الجانبين. ترى هل استدار وذهب في أحد الطرق الجانبية المؤدية إلى أحياء المدينة. حين بلغت قبالة المطحنة الكائنة في مدخل مدينة (بولاتلي) ظهر الحصان على جانب الطريق وأخذ يقترب من السيارة حتى صار رأسه محاذياً للدعامية الخلفية. بتّ أرى منخريه اللذين ينفثان البخار. ثم اقترب أكثر بحيث طغى

16- الطريق الحولي: يُشَيَّد عادةً خارجَ المُدن من أجل التنقُّل السريع. «الأوتوستراد» أو «أوتو بان» - المترجم.

ضياء بياضه على الظلام الشفيف داخل العربة. بعد ذلك انتابني الدهشة حين انسحب الحصان إلى الخلف فجأة. حينئذ تأكد لي بطبيعة الحال أن ما أراه الآن لم يكن ضرباً من الخيال، بل واقعاً حقيقياً. فقلت بيني وبين نفسي: هذا الحصان كائن من لحم ودم، وما أراه ليس حلماً. قلت هذا وأخذت أدوس على دواسة البنزين بقوة أكثر لكي أتخلص من هذا الكائن. ولكنني لم أستطع الابتعاد عنه. صار يتبعني مثل غيمة. لحق بي مثل شعاع، وأخذ يهبّ كالريح. وهكذا ظل يعدو خبباً ويلاحقني على مدى ساعتين في صباح ذلك اليوم حتى وصلت إلى منعطف (سيفري حصار) ومن ثَمَّة استدرت باتجاه (آفيون). في قرية (آشاغي كبن) سمعته يصهل بمرارة ويتلاشى بين أشجار الحور التي كانت تقع إلى شمالي. كانت صهلاته تخترق روحي مثل خناجر ناشبة. حينها انتابتني قشعريرة، لا أدري لماذا ظل بياض الحصان مشعاً أمام ناظريّ لمدة طويلة من الوقت، يتهادى طول الطريق ويتطاير عرفه في مهب الريح كستارة مخملية واسعة.

وصلت إلى البلدة في وقت الظهيرة ورحت من فوري إلى بيت والديّ. أخذتهما إلى العربة، على أمل أن أعود إلى (أنقرة) دون إبطاء. العمة (كولفم) والعم (أيوب) و(زبير) وزوجته التي تشبه كنّته (ياغمور)، خالي (عزت) وزوجته (هجران) وأولادهما، (جاويد) وأخوه الأصغر (بكير) وقفوا جميعاً في مدخل الزقاق وأزجوا بعض الوقت ينظرون إلينا. حتى العمة (كولبهار) فارقت قليلاً ما بين درفتي الباب وعملت نفسها أنها تنظر إلينا أيضاً وتودّعنا.

وبينما نحن خارجون من البلدة استدرك أبي وقال مخاطباً أمي:

- هل جلبتِ الأدوية معكِ؟

جاء صوتها من المقعد الخلفي وكأنه حفيف كيس النايلون. بعد ذلك مالت والدتي إلى الأمام وقالت: أخذتها كلها، لا تقلق فهي معي.

فأومأ أبي برأسه ثم غرق في صمته لمدة ساعتين لم ينطق خلالها بأية كلمة. كان منتبهاً إلى أقصى درجة، وكأنه هو من يسوق العربة. يحدّق عبر الزجاجة الأمامية ويستحضر سنوات طفولته التي عانى فيها من الحرمان،

وتلك السنين التي خدم فيها في الجيش كسائق في إحدى الكتائب المتموضعة على سفوح جبال (استرانجا). تذكر العربات التي اشتراها وخسرها الواحدة تلو الأخرى، والمرابين الذين كانوا يمتصّون دمه. ربما كان يفكر باحثاً عن سبب العوَق الذي جعله عاجزاً عن الحركة، فتذكر الحادثة المرورية التي وقعت له في السعودية والتي أدت إلى بتر رجله. لا أدري بما كان يفكر بالضبط ولكنه تنفس بعمق لبضع مرات، وهو يفكر بكل تلك الآلام التي عانى منها. ولكنه تنفس الصعداء حين اجتزنا مرتفعات (كور أوغلو بيلي) وبلغنا (جومو). لم يقل لي انتبه هذه هي (جومو) ولكنه اكتفى بالقول: ها نحن ندخل (جومو) عليك أن تمرّ من هنا على مهلك!

أبدلت ناقل الحركة إلى رقم أدنى لتخفيف السرعة، ومررت من داخل البلدة بتؤدة وعلى مهل، وكأنني أسوق على مهل لكيلا أؤذي الطريق. ثم تجرأتُ على أن ألقي عليه سؤالي:

- في كل مرة نمر من هنا تدعوني للانتباه والتريث، هل يوجد رادار هنا؟

- لا - قال.

- إذن ربما جرت لك حادثة هنا، وتظن أن هذا موقع منحوس لذلك تحذرّني؟

- لا - قال مرة أخرى.

فامتعض وازدادت تجاعيد وجهه. أخذ ساقه اليسرى بيده وسحبها إلى اليمين وجعلها محاذية لساقه اليمنى.

- قبل سنتين تتذكر كيف هاجمنا الشتاء القارس؟ - قالها دون أن يشيح ناظريه عن الطريق - كانت الأخبار السيئة تَتْرَى على مدار الساعة من كل أنحاء البلاد. انهيار كتل ثلجية، انقطاع الطرق البرية بسبب هطول الثلوج، إلغاء الرحلات الجوية وانقطاع الاتصال مع القرى المنكوبة. أناس كثيرون تقطعت بهم السبل في الطرقات الخارجية وظلّوا في العراء.

سألته:

- وما علاقة هذه بـ (جومو)؟

– حين هجم الشتاء الأسود علينا في تلك السنة رأيت (جومو) في نشرة الأخبار التي بُثَّتْ من التلفزيون. هاهُنا على هذا الطريق الذي نمر فيه الآن كان قد توقف رتل من العربات المختلفة، عربات حمل، شاحنات باصات وعربات صغيرة متوقفة عن الحركة دفنت إلى النصف في الثلوج. مئات من البشر ينتظرون في داخلها، ينظرون إليك من خلف زجاجات النوافذ بوجوه يبدو عليها اليأس. أناس لا حول لهم ولا قوة. لا يستطيعون الإتيان بأي عمل سوى أنهم كانوا ينفخون في أكفهم. كان هنالك بينهم أطفال صغار، وحتى أطفال رُضَّع لم يُفطَموا بعد... في تلك الأثناء هبَّ أهالي بلدة (جومو) هذه عن بكرة أبيهم وقدَّموا يدَ العون لأولئك المحاصرين. فمنهم من كان يحمل بطّانيات ومنهم من جاء بالطعام ومنهم من جاء ليقدم الشاي الساخن لسوّاق الشاحنات وركاب الباصات والعربات الصغيرة.

وفجأة توقَّفَ أبي عن الكلام. فكان لون صوته قد تغيّر. مدّ رقبته وراح يحاول بلع ريقه ولكنه لم يستطع القيام بذلك، ثم انفجر باكياً وصار ينشج بألم.

قالت أمي من مكانها في المقعد الخلفي، وهي تتوجَّع مثل أبي:

– يا ابن الناس لمَ تبكي هكذا؟ ما الذي يجبرك على البكاء، ألا يكفينا ما نحن فيه؟ هيه وزَّعوا الطعام والشاي لأناس محاصرين في الطريق... هل يتوجَّب على المرء أن يذرف الدموع من أجل أناس تحاصرهم الثلوج ويقوم مواطنوهم بتوزيع الطعام والشاي الساخن عليهم؟

فقال أبي وهو ينشج في بكائه:

– كانت وجوه الناس المحاصرين أشدُّ حرارة من الشاي الساخن الذي كان يوزَّع عليهم.

لَمْ تَحِرْ أمي جواباً وفضَّلتْ السكوت.

بعد ذلك تمكن أبي بالكاد أن يلملم شتات نفسه. مسح عينيه بظاهر كفِّه ثم نظر إليّ بعينين مخضلَّتَين، وقال بصوت مرتعش:

– (جومو) لها مكانة مختلفة في نفسي! لذلك أوصيك يا ولدي أن تسير على مهلك عندما تمرُّ من هنا.

- تمام - قلتُ له.

وفي اليوم التالي نهضنا وذهبنا إلى (أريامان) إلى المستشفى التعليمي التابع لجامعة لا أرى أي مبرر لذكر اسمها، فلم يلقوا بالاً للتحليلات التي أجريناها لديهم قبل عشرة أيام، وقاموا بإجراء تحاليل جديدة للدم والإدرار، وأخذوا أفلاماً شعاعية لساق أبي. أجلسناه على كرسي متحرِّك مثلما فعلنا عندما جئنا إلى هنا في اليوم الأول، وصرنا ندفع الكرسي ونهرول به من غرفة إلى غرفة في الردهة الطويلة التي كانت تغصّ بالبشر مثلما يغلي ساحل البحر بالرمال. كان أبي يتذمَّر على الدوام، يفتح ذراعيه على آخرهما ويقول:

- كل هذه التحاليل عملناها في المرة الفائتة. علام كل هذا الأذى ياناس! ألا يرأف أحد بحالنا؟!

وللمرة الثانية حين حصلنا على رقم جديد لمراجعة الطبيب نفسه، وتمكَّنّا بشقِّ الأنفس أن ندخل عيادته نظر إلينا باستغراب، وكأن به يقول لنا مستهزءاً «من هو هذا العاقل الذي جاء بكما ثانيةً!»، ألقى علينا السؤال:

- لمَ لمْ تذهبا إلى قسم الكسور؟ - ثم أردف قائلاً: يؤسفني أن أبلغكم أن العلاج الطبيعي لن يفيدكم بشيء يا عزيز بيه.

سمع أبي كلام الطبيب ملء أذنيه ثم طأطأ وظلَّ ينظرُ من تحت حاجبيه مثل طفل مُدلَّل. قمتُ بتقديم شرح وافٍ للطبيب، ونقلتُ إليه رغبةَ أبي في تلقِّي العلاج الطبيعي، كما رجوتُه أن يساعدنا في ذلك قدرَ الإمكان.

- حسنٌ، قال الطبيب: ما دمتم مصرِّين على هذا سأكتب لكم أن يعمل له علاج طبيعي لمدة أسبوعين، ولكن ليس هناك حلٌّ آخر غير إجراء العملية الجراحية. فهمتموني أليس كذلك؟

- نعرف - قلت.

وهكذا خرجنا من تلك المستشفى وتوجَّهنا إلى مركز العلاج الطبيعي الواقع على بعد ستين كيلومتر تقريباً. وما إن ابتعدنا عن (أنقرة) حتى بدأت تنهال علينا المكالمات على هاتفي الجوّال، يسألونني عن المريض. هل سيأتي أم لا؟ لا بدَّ أن المستشفى قد زوَّدت المركز بمعلومات وافية عنا.

وبعد رحلة شبه قصيرة وصلنا إلى بناية ضخمة، وجدنا لدى بابها مجموعة من العاملين في انتظارنا، يتلألأ بريق الأمل في أعينهم. أحاطوا أبي بعناية بالغة. أجلسوه على كرسي متحرِّك وذهبوا به إلى غرفته في أحد الطوابق العليا. كان بعضٌ منهم يحمل بيده ملفّاً ليدوِّنَ فيه معلومات عن المريض. فامتلأت الرُّدهات التي كانت فيها سلالم بصخب هؤلاء العاملين وضجيجهم ووقع أقدامهم. كل واحد منهم يسأل أبي سؤالاً. ماذا يأكل العم، وماذا يشرب؟ هل يقرأ الصحف صباحاً أم أنه يكتفي بمتابعة برامج التلفزيون؟ كم مرَّةً يغتسل في اليوم؟ كم يبلغ من العمر؟ ما هو تحصيله العلمي؟ كم ساعة ينام في اليوم؟ هل يعاني من مرض ارتفاع الضغط أو السكري؟ هذا يسأل وذاك يصغي، ثم يسأل شخص آخر والآخرون يصغون. وهكذا أخذ الجميع يدوِّنون معلوماتهم في الملفات التي يحملونها مثلما يجيبهم أبي حرفياً. كما أخرج كل واحد منهم من حقيبته ذات اللون الأزرق والأبيض أجهزة يدوية صغيرة لقياس الضغط والحرارة.

كانت هنالك فتاة ذات بشرة بيضاء رقيقة تنتظر لدى الباب أنْ ينفضَّ هذا الجمع الغفير لكي تقوم هي الأخرى بعملها. قالت إنها مكلَّفة بتعريفنا على محتويات الغرفة. تلك ثلَّاجة صغيرة وسرير للمريض وسرير آخر للشخص المرافق. وإلى جانب كل سرير توجد خزانة، وهنالك دولاب واحد وجهاز تلفزيون. «كنبات» عدد اثنين. وأشارت بيدها وقالت: «وتلفون عدد واحد». وهكذا أشارت إلى محتويات الغرفة واحدة تلو الأخرى. وكان كلامها جميلاً ومنسَّقاً بمكان تصوّرنا أنَّ الغرفة كانت مجرَّد مساحة جرداء، لم يكن فيها أيُّ شيء من الأثاث، وأنها امتلأت بكل هذه الأشياء بعد أن بدأت الآنسة بعدّها واحدة بعد الأخرى. وأن قطع الأثاث هذه إنما اكتسبت جمالَها وروعتها من جمال هذه الفتاة وشخصيَّتها المعتبرة والمشفِقة.

كل هذا الاهتمام من قبل أناس حضروا إلى هنا من أجل تقديم الخدمة لأبي كان مدعاة للتعجب وسبباً لشعوره بالسعادة حتى كاد يبكي من فرط تأثُّره بالموقف الغريب هذا. فشَبَكَ عَشْرَهُ لا يدري ماذا يفعل. اكتفى بالنظر

إليهم وهو يشعر بالخجل أمامهم. أما أمي التي كانت تقف جانب السرير، تفرك يداً بيد وهي تقول:

– الله يرضى عنكم، الله يرضى عنكم يا أولاد.

وعلى مدى ساعة تقريباً راحوا حيناً يمازحون أبي بلطف وحيناً آخر يتجاذبون معه أطراف حديث شيِّق وحيناً آخر كانوا يشتكون له عن همومهم الحياتية ثم يتداولون معه معلومات عن كيفية تنفيذ العلاج الطبيعي. وفي نهاية الساعة قالوا لبعضهم بعضاً:

– هيا هيا لا ترهقوا مريضنا أكثر من اللازم. دعوه يأخذ قسطاً من الراحة.

بعد ذلك انسحبوا الواحد تلو الآخر.

نحن الثلاثة حين بقينا لوحدنا لُذْنا بأذيال الصمت لبعض الوقت. كان أبي ينظر إلى محيطه وكأنه ما يزال يسبح في حلم جميل.

– أيُّ مكانٍ هو هذا؟! قال أبي فجأة. لقد استأجروا موظَّفة لكي تعدِّد لنا محتويات الغرفة.

– نعم، نعم – قالت أمي وهي تومئ برأسها – وكانت جميلة بحق.

آنئذ جاء موظفٌ ذو وجه طفولي وطلب إليّ أن أنزل إلى الطابق الأول لإتمام «طَبَلَة» المريض، فذهبت معه ووقَّعْتُ على بعض الأوراق. هنالك طلبوا إليّ أن أسدِّد أجور العلاج والمبيت لأسبوعين فقمت بدفع نصف المبلغ ثم صعدت إلى غرفة أبي ثانية. حين دخلت الغرفة كانت أمي منهمكة في إخراج الأدوية من كيس نايلون وصفّها على سطح الكومودينو، وكان أبي يراقب حركاتها من مكانه حيث كان جالساً على حافة السرير.

بعد أن رتّبا كل شيء واستقرّا في غرفتهما ولم يبقَ أي عمل آخر لأقوم به تركتهما قبل أن يحلّ الليل، وعدت إلى (أنقرة) عبر طرق ضيقة ممتدة كالحبال الطويلة. حين وصلت إلى البيت كنت مرهقاً تماماً. مرَّتْ أمام عيني مناظر ردهات طويلة تضجُّ صخباً. لذلك انسدَّت شهيَّتي ولم أتناول أي طعام، بل اكتفيتُ بقَدَح شاي وبضعة قطع من البسكويت. وبعد مرور بضع ساعات أردت الاطمئنان على والديّ فخابرتُ مركز العلاج الطبيعي.

– يا ابني! – قالها أبي وتوقَّف قليلاً ثم واصل الكلام بعد أن تنفس بعمق – كلُّ شيء هنا يجري على ما يرام، ولكن العاملين لم يعطونا أيَّ طعام.

– كيف لا يعطونكم يا أبي؟! – لم أصدِّق ما سمعت.

– لم يعطونا يا بني! – لوى رقبته وقال بصوت فيه انكسار: وزعوا الوجبة على جميع الغرف، وعندما وصلوا إلى باب غرفتنا رجعوا من حيث جاؤوا. لأن اسم مريضنا لم يكن مسجلاً في القائمة التي كانت معهم.

غضبت لدى سماعي هذا الخبر، فقلت لأبي «مَهلاً أنا سأتولى الأمر بنفسي»، فأغلقت الهاتف واتصلت على الفور بمركز العلاج الطبيعي. ظهر لي موظف آخر لا يشبه الأشخاص المختصّين الذين اعتدنا أن نكلّمهم في الدوام الصباحي، وبدلاً من تقديم اعتذاره إلينا، قال إنه يمكن أن تحصل أمور كهذه في تنظيم القيود، وتدوين الملاحظات. وقال يتوجَّب تقبُّل هذه المسائل دون إثارة زوابع. لمَّا سمعت هذا الكلام جُنَّ جنوني، فبدأت أصرخ في محدثي على الهاتف:

– نحو العصر وضعتُ مريضي في عهدتكم، ودفعت أجور أسبوع كامل مقدَّماً. هو أبي. وفضلاً عن ذلك هو مريض معاق، لا يستطيع الحركة. فكيف تسوّل لكم نفسكم بأن تحرموه من وجبة طعامه – ثم قلت وأنا أصيح بأعلى صوتي: الذنب ليس ذنبك! بل ذنب من سمح لك بالجلوس هناك. لا أهنِّئه على اختياره المذهل هذا. انظر يا هذا! بعد نصف ساعة سأتصل بأبي لأسأله إن كنتم قدَّمتُم له وجبة طعامه أم لا! – بالطبع قلتُ ما ينبغي عليَّ قوله في وجه محدِّثي وتوعَّدْتُهم بأنني سأفعل ما يتوجَّب عليّ القيام به.

اتصلت بعد نصف ساعة، كما وعدتُ ذلك الموظف هناك، فعرفت أنهم قدموا وجبة طعام كاملة في غرفتنا.

في اليوم التالي نهضتُ منذ الصباح الباكر ورحتُ من فوري إلى إحدى مراكز التبضُّع في (أرياماان) وبدأتُ بشراء كلِّ ما تقع عليه عيني من فواكه ومعجَّنات، من الكعكة إلى البسكويت والعصائر مِلء عددٍ من أكياس نايلون. حملتها إلى صندوق السيارة وتوجهت إلى تلك البلدة الصغيرة التي يتواجد

فيها مركز العلاج الطبيعي. دخلت عليهما الغرفة في منتصف النهار تماماً. كان بريق الأمل ما زال ماثلاً في عيني أبي. حتى وإن بدا ذلك البريق خافتاً إلا أنه كان يتلألأ حيناً ويخبو حيناً آخر. ولكنني عندما ذهبت إليهما في يوم آخر لم أجد أي بريق من ذلك الأمل في عينَي أبي، فقد كان ساهماً بعض الشيء ويبدو مرهقاً. ينظر إليَّ من تحت حاجبيه. ينظر وينظر وهو غارق في صمته.

– يا بني! – قالها أبي بصوت مبحوح خارجاً من دائرة صمته – أخرجْني من هنا!

سألتُه:

– ماذا حدث يا أبي، ما الذي دفعك إلى هذا؟

– هؤلاء لا يعرفون أي شيء سوى أنهم يقولون لي اطْوِ ركبتَك. حرِّكْ أصابعك – قالها أبي ثم أردف: أستطيع القيام بهذه الحركات وأنا في البيت.

– أنت تعلم يا أبَتِ أن الانسان لا يتماثل للشفاء رأساً. فهو ليس سيارة لكي تظهر عليه علامات التصليح على الفور. هذه الأمور بالطبع لا تشبه عملية تنظيف الكاربراتور أو تبديل فلتر الهواء أو شمعة الاشتعال[17] في السيارة. هذا يعني أننا يجب أن نتحلّى بالصبر، أليس كذلك؟

قضى بعض الوقت ساكتاً، خافضاً بصره إلى الأرض. بدا أنه يزن كلامي في عقله.

– لا – قالها بشكل قاطع – أخرجنا اليوم من هنا.

أخذنا نلملمُ أغراضَنا مرغَمين نزولاً عند رغبة أبي وأتمَمْنا تصفية الحساب وخرجنا من مركز العلاج الطبيعي. برغم توسُّلي وإصراري لم يمكثا سوى ليلة واحدة في بلدة (أريامان) بعد ذلك واصلنا السفر إلى (دنيزلي). حينما مررنا ببلدة (جومو) هذه المرة لم يتكلم أبي قط. كان قد حبس أنفاسه وأخذ يراقب حركاتي وسكناتي بطرف عينيه. لذلك حرصت على أن أخفِّف من سرعة السيارة وأمرّ بالبلدة على مهل.

17– شمعة الاشتعال: شمعة القدح أو شمعة الاحتراق. «بوجي»، «بواجي»– المترجم.

توقفنا في مطعم للمشويَّات المحاذي لمحل عجلاتيٍّ يقع على يسار الطريق في بلدة (صانديكلي) وفيما كان العاملون يجهزون طلباتنا من المشويَّات قضينا وقت الانتظار في تناول المقبِّلات مع الخبز الحارّ واللبن والزبدة. ثم جاؤوا لنا بصحن كبير من السلطة الطازجة ووضعوها في وسط المنضدة. كنا نتّكئ إلى حوض صغير يتسربل ماؤه ويصدر خريراً متناغماً. اتَّكأنا إلى الحوض وبدأنا نقضم ما أحضروه لنا. وفي أثناء تناولنا الطعام دار الحديث دوراناً حتى جاء إلى ذكر مركز العلاج الطبيعي.

– أنت لم تعرف أني قضيت ليلتين هناك من دون بطانيات. كنت أحمل بيدي شوكة كدت أقربها إلى فمي فتجمدت يداي على تلك الوضعية:

– لم يعطوكما بطانيات؟ لماذا انتظرتِ كل هذا الوقت لتبوحي بهذا الكلام يا أمّاه!؟ – قلتُ بغضب.

– إنهم بشر، ربما نسوا ذلك! قالت أمي: ربما نسوا أن يضعوا بطانيات كافية على أسرّتنا.

– حسن، لِمَ لمْ تطلبا بطانيات؟

ظلت والدتي تحدِّق في وجهي لبعض الوقت وكأنني أتيت ذنباً. ثم قالت:

– بأيّ صفة يذهب المرء إلى بابهم ليتوسَّل إليهم لكي يتصدَّقوا عليه ببطانية! وهل يحق لنا أن نبلغك بكل صغيرة وكبيرة. فهم يتحولون إلى أعداء إذا اشتكينا عن أي نقص حتى لو كان صغيراً.

-5-

بعد ستة أشهر. في ذات يوم نحو العصر اتصلت بالبيت فرفعتْ أمي سماعة الهاتف. سألتها:

- كيف هي أحوالكم؟ كيف حال أبي؟

- كيف يكون!؟ - قالتْ - مثلما تعرف، ليس هنالك أي تغيير. ما زال كما هو. فمنذ أشهر ينام قبالة الشبّاك المطلّ على الجبل. لا يأتي بأية حركة. لا ينهض من مكانه إلّا عندما يذهب إلى الحمام. يمشي متكئاً على عكازتين. يتأوَّه، يتوجَّع أما أنا فمن خشيتي عليه لا أفارقه قط.

- حسناً تفعلين يا أمي - قلتُ: أقبِّلُ عينيك يا أمي كوني إلى جانبه، لا تتركيه لوحده. فإذا سقط وانكسرت ذراعه أو ساقه سيكون ذلك بمثابة كارثة تحلّ علينا.

- بالطبع ستكون كارثة. قالت أمي: أعرف ذلك يا ولدي. مثلما قلت لك قبل هذا، فهو يسهر طول الليالي من شدّة الألم. حتى أن الأدوية لم تعد تؤثر فيه لكثرة ما استعمل منها. يقضي الليالي بطولها يتوجَّع، يتقلَّب في فراشه حتى ينبلج الصُّبْح. أمَّا أنا فقد تعلَّمْتُ أنْ أنام بعينٍ واحدة وأحتفظ بالأخرى مفتوحة. ما عدنا نتذكَّر طعمَ النوم الهانئ يا ولدي. نحن نتعذَّب.

لا أعرف ماذا يتوجب عليّ أنْ أقول في مثل هذه الحالة. بينما كانت سماعة الهاتف بيدي استدرتُ صَوبَ النافذة التي كانت على شمالي، ونظرتُ إلى الأزهار التي تبرعمَتْ وبدأت تتفتَّح في حديقة مجمَّعِنا السَّكَني. بينما كانت أمّي تتكلَّم لمْ يشعرني أبي بوجوده مثلما كان يفعل في السابق، حين كان

يصيح من مكانه: «لماذا تكلّمين الولد هكذا يا امرأة!». ترى هل كان نائماً لأنه كان ساهراً طول الليل؟ أم كان يسمعنا وليس في وسعه أنْ يتكلَّم.

وبعد عدة أيام أخرى حين اتصلت بوالديَّ رفعت أمي سماعة الهاتف وذهبتْ بها إلى أبي، وناولته إياها. ومن دون مقدمات، مثل كيف هي الأحوال وما شابه ذلك من توطئات قال:

- ألو! صرنا عبئاً عليك يا ولدي، نشغلك عن أعمالك. أردت أن أكلِّم أخاك (نهاد) ولكن كما تعرف فهو لا يستطيع استحصال إذن رسمي بالخروج إلا بشقّ الأنفس. يصعب عليه الحصول على إجازة من أمرائه في (تاواس)[18] أرجو أن تأخذني إلى الطبيب الذي راجعته عمّتُك (كولفم) في جامعة (اسبارتا).

- هل تعرف اسم الطبيب؟ - سألتُه.

- كتبوا ليَّ اسمه - قال - اسمع سأقرأه عليك: الدكتور (تونكا).

فتصادى في ذاكرتي اسم (آلب أر طونغا) فقلت:

- أي اسم هذا يا أبَتِ!

- هكذا كُتِبَ على الورقة يا ولدي.

- حسنٌ - قلتُ - أيّاً كان الاسمُ الصحيح سأتحرَّى عنه.

فنبَّهني أبي قائلاً:

- احذرْ لئلّا تأخذَ موعداً من طبيب آخر. أتمنى أن تعثر على الطبيب نفسه الذي راجعَتْه عمَّتُكَ (كولفم). عليك أن تجده وليس غيره.

- حسنٌ يا أبي - قلت له.

في صباح اليوم التالي عثرت على الطبيب نفسه، ولكنه أعطاني موعداً بعد شهر لمراجعته. قبل يوم واحد من الموعد المقرَّر مرَرْت عبر حديقة مجمَّعنا السكني من بين الأزهار التي كانت قد تفتَّحت تماماً. نزلت إلى

18- ناحية تابعة إلى محافظة دنيزلي فيها العديد من المؤسسات العسكرية التابعة للجيش - المترجم.

المرآب وركبت السيارة وانطلقت لوحدي باتجاه (دنيزلي) وفي الوقت نفسه أخذت استمتع بالموسيقى. وأستمع إلى أغاني (خليل زارالي)، (حاجي تاشان)، (فاطمة توركان ياماجي)، (حصارلي أحمد)، (نزاهت بايرام)[19]. وبدأت الأغاني التي يغنّيها (طالب أوزقان) تضرب بأمواجها ساحل ذاكرتي ويتصادى رجعها في أذني وجنبات قلبي.

في طريقي من (سيفري حصار) إلى (آفيون) استدرت إلى (آشاغي كبن) فأتاني صوت (خليل النحيل) مؤثّراً في شغاف القلب بأغنيته (كنْ على ثقة تامة) وكان قد وصل المغني إلى المقطع الثاني في أغنيته، وتفيد أن الإنسان مثله مثل ورقة شجر يابسة. عندما وصلت إلى نهاية الطريق حيث كانت هنالك أشجار حور متراصّة أخذت الريح تداعب أوراقها، أو لكأن عصف السيارة قد ضرب على أوتارها فأخذت تصدر عزيفاً متناغماً، لينضمّ إليها ما تصدره الأعشاب على جانبي الطريق من صفير. هنالك خرج الحصان الأشهب على وقع تلك النغمات وظلال الأشجار وأوراقُها تتراقص على بدنه. أوّل ما خرج الحصان اعتلى على قائمتيه الخلفيتين ناشراً عرفه في مهبّ الريح، ثم شرع يعدو بكل ما أوتي من قوة متتبعاً إياي كضياء ساطع. كنتُ على يقين أنني لن أستطيع الفكاك منه لذلك لم أضغط على دواسة البنزين. وهكذا أمضينا الوقت منطلقين على نسق واحد. اجتزت (كول جايير) و(جومو) و(بايات) وكان يتبعني. لم يفارقني حتى بلغت التلال المغطاة بغابات الصنوبر عند مرتفعات (كور أوغلو بيلي). كان يعدو خبباً، يتحلّب العرق على جسمه. بدا لي أنه يريد اللحاق بي ليبوح لي بسرٍّ ما.

19- (خليل زارالي) الملقب بخليل النحيل: مطرب شعبي ولد في 1906 فقد والديه في سن مبكرة وتربّى في مدرسة للأيتام في مدينة (سيواس) توفي سنة 1964. (حاجي تاشان) مطرب وعازف ولد 1930 وتوفي في 1983. (فاطمة توركان ياماجي) مطربة ذاع صيتها في الخمسينيات. ولدت في اسطنبول لها تسجيلات عديدة على الاسطوانات. سنة وفاتها غير معلومة. (حصارلي أحمد) ولد في كوتاهية سنة 1908 وتوفي في 1984. (نزاهت بايرام) مغنية شعبية ولدت في سامسون 1926 سنة. تاريخ وفاتها مجهول - المترجم.

وبينما هو كذلك يعدو ويمدّد رقبته بهمّة منقطعة النظير خارج نطاق سرعته القصوى ويصهل، وإذا به يختفي فجأة مثلما هو دأبه في كلّ مرة. ومثلما كنت أفعل في كل مرة التفَتُّ هنا وهناك في محاولة مني لتحديد مكانه، إن كنت أستطيع رؤيته في المرايا الجانبية أو الوسطية ولكنني لم أرَه. مرَرْتُ بأماكن الاستراحة في (كور أوغلو بيلي) ولم أتوقَّفْ لأمتِّع ناظريّ برؤية الحجلان في القفص، ولكنني مرقتُ بسرعتي القصوى على بعد عشرة أمتار عن تلك الأقفاص.

حين وصلتُ إلى البلدة كانت الشمس قد غابت ونزلت في الجهة الأخرى من جبل (جوكالاز) وقد اكتسى الزقاق الذي كان مَرتعاً لأيام صبايَ بمسحة سحرية تحت تأثير الاحمرار الذي كان يغشاه. فكانت زجاجات الشبابيك وسقوف المنازل، قباب المساجد ورؤوس منائرها تشتعل اشتعالاً، وقد تفشَّى غبارٌ شفيفٌ في فضاء البلدة إلى جانب بريقٍ والتماعاتٍ ضوئية كانت تتطايرُ في الأرجاء، ممّا جعل البلدة تتحوَّل إلى مكان سحري كأنه عالمٌ من عوالم الحكايات. ولكن هذا لم يستمرّ طويلاً، إذ تغيَّر المنظر تماماً حين أبدلت ناقل الحركة ووضعتُه على الرقم اثنين وأنا صاعد باتجاه بيتنا عبر الأزقَّة الملتوية. وما إن ركنت العربة قبالة المنزل حتى بدتْ برودةٌ رصاصيّةٌ طاغية والأرجاء موشكة على الإظلام بين اللحظة والأخرى. لذلك حين أطفأتُ المحرِّك وخرجتُ من السيارة شعرت ببرودة الجو. التفتُّ إلى باب منزلنا من فوق سياج الحديقة.

مدخل المنزل كان أشبه بمنفذ جحر محاطٍ بالمتسلقات منه إلى باب. ومن كثرة الدُّغل صار أشبه بلوحٍ مربَّع، وتحوّل إلى صمت داكن. تركتُ حقيبتي في مكانها على المقاعد الخلفية ثم دخلت إلى المنزل عبر تلك التعريشة الشعثاء.

كان أبي جالساً لِصْقَ النافذة المطلَّة على الجبل يتكئ برسغه على الوسادة، مثله كمثل صمتٍ مختلفٍ وُضِعَ في جوف الصمت السائد في الأرجاء. دنوتُ منه وأخذتُ يدَه لأقبِّلَها. انفرجتْ شفتاه قليلاً ولكنَّه لمْ

ينبسْ ببنت شفة. نظر إلى وجهي بعينيه المخضلَّتين وأومأ لي برأسه مرَّة بعد أخرى.

بعد أن تناولنا عشاءنا رفعت أمي السّماط وراحت إلى الخارج لتنفضه، فدخلت العمة (كولفم) علينا متوكِّئة على عكازتها:

– جئت الآن، خشيت ألّا أراكم في الصباح الباكر – قالت وهي تجلس إلى الكنبة: سوف تسافرون غداً مبكرين، أليس كذلك؟

– نعم يا عمة! – قلت لها – علينا أن نسافر قبل طلوع الفجر.

قالت عمَّتي وهي تمدُّ رقبتها باتجاه أبي:

– يا عزيز! بلِّغْ سلامي إلى طبيبي، هل فهمت؟

– عليكم السلام، قالها أبي بنبرة محمّلة بآيات الشكر والعرفان كأنه يهمس. ومن دون أنْ يتحرَّك من مكانه حيث كان يستلقي.

نهَضَتْ العمَّة (كولفم) مستندةً على عكازتها وهمَّتْ بالذهاب، إلّا أن أمي بدأت تتوسَّل بها قائلة:

– إلى أين أنتِ ذاهبةٌ يا بنت الناس، ما العجلة، هل جئت لتأخذي قبَساً من النار؟

كانت العمة (كولفم) قد توجَّهت صوب المدخل بساقين راجفتين. توقَّفَتْ ثُمَّة أسندتْ إحدى يدَيها على عضادة الباب، والتفتَتْ لتنظر إلى أبي مجدَّداً:

– يا عزيز! قالت بصوت مشفق: قُلْ له أن يعالجك كما عالجني. قُلْ له ألّا يبخل معك في أي شيء. أن يستخدم كل امكانيّاته من أجل معالجتك. هل اتفقنا؟

– تمام – قال أبي.

منذ الصباح الباكر نهضنا ويمَّمْنا صوب (اسبارتا). أبي الجالس في المقعد الأمامي أخذ ينظر هذه المرّة بدقّة متناهية ليس إلى الطريق وحسب، بل إلى المناظر الجانبيّة وكأنه يلتقط تلك المناظر ويحتفظ بها في أعماقه، فضلاً عن أنه لم ينطقْ ولا بكلمة واحدة طوال هذه السفرة التي استغرقت

ساعتين ونصف. أمي لم تتكلَّم أيضاً، ولكنها كانت تكتفي أحياناً بأن تتنهَّد بعمق وهي جالسة في مكانها في المقعد الخلفي. وهكذا وصلنا إلى (اسبارتا) ووجدت ذلك المنعطف الحاد في طريقي لأستدير منه وأعود إلى الاتجاه المعاكس ومن ثَمَّة دخلتُ (جامعة سليمان دميريل) ولكنني لم أجد مكاناً ملائماً في موقف السيارات لأركن سيارتي على الرغم من كون المرآب كبيراً وفسيحاً. بقينا ندور هنا وهناك بين مئات العجلات بحثاً عن مكان نركن فيه سيارتنا. رسمت دوائر كبيرة بسيارتي في استدارات وقمت بمناورات عديدة حتى وجدتُ مكاناً في ركنٍ بعيد عن مدخل المستشفى. أطفأتُ محرك السيارة وتركت والديّ في السيارة وهرعت من فوري إلى داخل المستشفى لأحصل على كرسي متحرِّك لنقل أبي. وبعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة حين هممت بالدخول عبر باب المستشفى قال أبي:

- لنرَ إنْ كان باستطاعة طبيب العمة (كولفم) أن يعالجني؟

فانبرت والدتي وقالت بحِدَّة:

- ما الذي يجعله يمتنع عن معالجتك؟

بعد ذلك أخذنا نتراكض من هنا إلى هناك بين الزحام الذي تغصّ به رُدهات المستشفى. ذهبنا إلى الكافتيريا الموجودة في المستشفى التي تنتشر فيها روائح شطائر مُحمَّصة. جلسنا على الكراسي البلاستيكية بانتظار نتائج التحاليل والفيلم الشعاعي إلى أنْ حان وقتُ الظهيرة. وما إن تسلَّمنا النتائج حتى هرعْنا إلى الطبيب. ارتأينا ألّا ندخل معاً فتركنا والدتي لدى الباب. دخلنا أنا وأبي إلى عيادة الطبيب فكان يتحدّث إلى رجل بطين بعض الشيء غزا الشيبُ فودَيه، بينما وقف شاب يشبه طلاب الثانوية يصغي إليهما، يبدو عليه أنه لا يريد أن يفوت أية واردة ولا شاردة من الحديث الدائر بين الطبيب والرجل. وما إن دخلنا حتى انقطع دابر الحديث بينهم واجتمعوا على رقيقة الفيلم الشعاعي.

قال الطبيب:

- سيد عزيز! مع الأسف هنالك تكلسات مستفحلة لديك في عظام الحوض.

أبي لم يقل شيئاً، فاسترسل الطبيب في حديثه:

- لذلك يتوجب إجراء عملية جراحية لك.

أبي لم ينطق بأية كلمة، وكأنه لم يسمع كلام محدِّثِه.

وضع الطبيب إحدى يديه في جيب صدريته وباليد الأخرى تناول المظروف الأصفر ماسكاً إياه من إحدى زواياه. حرّك المظروف يمنة ويسرة وبخفة ثم أخذ يحدِّق في عينيَّ أنا. سألني بنبرة حميمية وبهدوء تام:

- من تكون بالنسبة إلى المريض؟

- أنا ابنه - قلتُ.

- لا تطلب إلى أبيك أن يوافق على إجراء العملية، قالها بنبرة أضفى عليها شيئاً من الرّجاء: نحن هنا شاهدنا الكثير من أقرباء المرضى ممن كانوا يشعرون بتأنيب الضمير بعد أن أجبروا مرضاهم للقبول بإجراء العملية. نصيحتي هي ألّا تتدخَّلوا في الأمر. دعوه هو يقرِّر. دعْ أباك يتّخذُ القرارَ بنفسه.

- هل تعني العملية لا بدّ منها؟ - سأل أبي.

فقال الطبيب:

- ليس لدينا خيار آخر.

قالَها الطبيبُ وهو يوجِّه نظراته صوب أبي وهو ينشر ذراعيه إلى الجانبين: مع الأسف ليس هنالك حلٌّ آخر. يجب إجراء العملية.

- لا أقبل بإجراء العملية، لا أتحمّل وزرها وأنا بهذاالعمر.

قالها أبي وأخذ يبكي وهو جالس على الكرسي المتحرّك. كنت أمسك الكرسي من الخلف فلم أرَ وجه أبي، بينما كنت أرى دموعه الخضراء المنهمرة. فقد كانت تتساقط داخل قلبي. كلما وقعت دمعة من تلك الدموع إلى داخلي كانت كأنها ضربة مطرقة تقع على رأسي، وتمحَقُني. وما هي إلا بضع لحظات مرَّتْ حتى تمالكْتُ نفسي فوضعتُ يديَّ على كتفيه بحنوٍّ أبوي لكي يشعر بوجودي إلى جانبه. ثم خرجنا من غرفة الطبيب في حالةٍ يُرثى لها، وكأن دماراً أصابنا.

وبشق الأنفس شرحنا الحالة لأمي التي كانت تنتظر لدى الباب. فقالت لأبي:

– حذارِ يا رجل أن توافق على إجراء العملية. رجلٌ في الحادية والثمانين من عمره يجري عملية، هيه! إياك أن ترتكب هذا الخطأ وتوافق على أن يجروا لك عملية! فوالله ستبقى على النقّالة ولن تخرج من صالة العملية حيّاً.

أبي لم يردّ عليها، بل رفع رأسه ونظر إليّ نظرة خاوية في خضم الصخب الذي كانت تضجُّ به ردهة المستشفى. ومن بعد ذلك أشار إليّ صوبَ باب الخروج وقال: هيّا بنا لنذهب!

وهكذا عُدنا إلى البلدة مساء ذلك اليوم. ترجَّلتُ من السيّارة، وبينما كان أبي ينوي النزول من السيارة أردتُ أنْ أساعده ولكنه رفض مساعدتي. حاول بضع مرّات وهمّ بالنهوض من مكانه فلم يستطع أن يتناول عكازته، فمال بخفّة إلى اليمين واستطاع أن يخرج ساقه اليمنى من باب السيارة. قلت له:

– هل تسمح لي أن أحملك على ظهري يا أبَتِ. قلتها وجثوت على الأرض معترضاً طريقه. أوليته ظهري لكيلا أرى وجهه إن كان متردِّداً أو كان يشعر بالخجل خشية أن يراه أحد. ربما نظر يمنة ويسرة مخافة أن يراه أحد ما. فقالت أمي:

– ماذا تنتظر يا رجل! فهذا ابنك. فلذة كبدك.

قالتها أمي بصوت ناعم وبنبرة طريّة مثل المحلبية[20]. فأرسلتُ يَدَيَّ إلى الخلف لكي يتشبَّث بهما وقلتُ:

– هيا يا أبَتِ، وماذا في ذلك هيّا! المسألة لا تستوجب كل هذا الخجل.

فالتصقَ بظهري ومسكَني من كتفي. وما إنْ أردتُ النهوض به حتى صاح بي فجأة:

– قف يا هذا قف! كسرت أضلعي.

20– ارتأينا استعمال هذه التسمية بدلًا من الحلواء أو الفالوذج. وهي نوع من الكاسترد الذي يعمل بالحليب والنشأ – المترجم.

فاضطُررتُ أنْ أدعَه وشأنه. وبعد لأيٍ نهض بنفسه بصعوبة بالغة فوضعنا العكازتين تحت إبطيه. راح يخطو خطوات قصار، يقف خلالها مرة بعد أخرى ليلتقط أنفاسه. وعلى هذا المنوال قطع مسافة قصيرة صوب المنزل. نقل بضع خطوات باتجاه السلّم ثم أحنى رأسه، أما أنا فهرعت إلى السلّم ووقفت على درجاته رافعاً المتسلّقات كي لا تضرب وجهه ويمرّ بسلام. فكانت هذه الحركة السريعة دليلاً على أني ما زلت شابّاً وفي الوقت نفسه كان برهاناً ساطعاً على مدى عجزِه وضعفِه. عندما أحسستُ بذلك شعرتُ بالندم وانتابَتْني الحيرة، لا أدري أين أخفي نظراتي البائسة. ربما لم أستطع التفكير بشكل سليم حين رفعت الأغصان المتسلِّقة إلى أعلى وأنا أريه إياها على أنها ما زالت تشكّل عائقاً أمام كل من جاء إلى المنزل. تلافياً لهذا المأزق قلت له:

– لنقصقص هذا الدّغل يا أبَتِ! هيه ماذا تقول؟

ما إن نطقت بهذه الكلمات حتى أسند كتفه اليمنى إلى الحائط وتسمّر على الدرجة الثالثة من السلّم. نظر إليَّ بوجه يتفصَّد عرقاً وظلَّ ينظر إليّ وكأن به يقول:

– هل فقدتَ عقلَك كي تطلب إليَّ طلباً كهذا! واحتار كيف يمنعني من القيام بقطعِ تلك المتسلِّقات أو التفكير بذلك. بعد ذلك قال بأنفاسٍ متقطِّعة:

– ماذا تقول أنت؟ هل تدرك ماذا تقول؟

مرّ من بيني وبين الحائط مجانباً الأغصان، وما إن صار في الداخل حتّى جلس على الكرسي البلاستيكي الأبيض جنب الأكياس المركونة في الركن الأيسر. أمضى بعض الوقت جالساً على الكرسي فمدَّتْ إليه أمي منشفة تناولَها وأخذ يمسح عرقَه. ثم راح يجول ببصره في أرجاء الغرفة، وكأنَّه يرى محتوياتها لأوَّل مرَّة. سألتْه والدتي:

– هل تريد الذهاب إلى الحمام؟

فأومأ أبي برأسه موافقاً. بينما أخذ والداي يخطوان بتؤدة صوب الحمام الواقع في آخر الصالة بخطوات متأنِّية وكأن الأرضية مغطَّاةٌ بقطعٍ من

الزجاج، رحت أنا إلى الشرفة لأدخِّن سيجارة. جلست هناك أنفث دخان سيجارتي ومن خلف سحابة الدخان طفقت أرنو صوب الأفق البعيد حيث غابت الشمس وخلّفت في الجو من بعدها احمراراً شفيفاً لا يكاد يُرى إلا قليلاً، لكنَّه كان طاغياً في ذرى جبل (جوكالاز). أما الهضبة الفسيحة الممتدَّة إلى مقربة من (جيفريل) فكانت تحفّ بها ارتعاشات لازوردية متلألئة هنا وهناك. يُخَيَّل للمرء أنّها بحرٌ من الصمت مليءٌ بالأفخاخ. يشقُّها طريق (أوشاك) الإسفلتي من الوسط، تسلكه عربات لا يعرف نوعها ولا لونها تبدو كالنمل في رواحها ومجيئها. أما البلدات الصغيرة والقرى الواقعة على ناصية (جوكالاز) وسفحِه، فكانت أضواؤها تتلألأ وتخبو ثمَّ تتلاشى رويداً رويداً. في ذلك اليوم بينما كنت أنظر إلى بعيد وإذا بي أشعر بشجرة الجوز الباسقة في دار خالي (عزّت) تتمايل وأَسمع حفيفَ أوراقها. التفتُّ إليها فجأةً فلمْ أرَ أيَّة ورقة فيها تتحرَّك. أشحتُ بصري عن هامتها الظلماء السامقة في السماء ونظرت إلى أقرب جانب، فرأيت الطفلَ الصغيرَ نفسَه ذا الرداء الأبيض ماثلاً في مرمى بصري. كان قد تسمّر هناك عند عطفَة الزقاق الهابط نحو الوادي المحاذي للمقبرة، واقفاً هناك وكأنه جزء من الحائط المبني بالطابوق. تحرّكَ بخفة بادئ الأمر ثم أسبل ذراعيه وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً. يصعد تارة وينزل أخرى. تتراقص نصاعة قميصه النازل إلى حد ركبتيه مع كل حركة من حركاته وفي غدوُّه ورواحه. بعد ذلك أخذ جسمُه يتمطَّى، يتمدَّد حيناً وينكمشُ حيناً آخر. كأنَّه كان يُسحب من هنا ومن هناك من أنحاء جسمه. بدا لي أن الطفل يتبع نصاعة القميص حيناً، وفي حين آخر خيّل لي أن النصاعة كانت تلحقُ به. كانت أمي منهمكة مع أبي تساعده في الحمام، لذلك لمْ أسألْها عن أصْل ذاك الطفل وفصْلِه! ثمَّ إنَّ الطفلَ هو الآخر لم يمكث إلا قليلاً. تقدَّم صوبَ عطفة الزُّقاق وانحدرَ إلى الأسفل كأنه يتزلَّج على الجليد. اختفى في لمح البصر، ولم تبقَ منه سوى قطعة من نصاعة مشعّة من أشعّة قميصه، كأنها قطعةٌ من منديل، ظلَّ المنديل يسبحُ في الفضاء لدقائق. يحلّق ويرسم لدى تحليقه دوائرَ شتّى وينساب يمنة ويسرة. ظلّ محلّقاً فوصل إلى مستوى سطح دار خالي (عزت) وأخذ يعتلي ويعتلي

حتى صار بمحاذاة المدخنة ثم اختفى فجأة. حين اختفى أشعلت سيجارة أخرى وفكرت بالحصان الذي ظل هناك في (كورأوغلو بيلي).

حين عدت إلى الغرفة كان أبي جالساً إلى أحد أركان السرير، وبمساعدة أمّي يحاول التحرُّر من الطرف الصناعي الذي كان يلبسه. تناول الأدوية المضادة للآلام بوجه ممتعض ثم استلقى على جنبه بتؤدة. لا بد أنه كان متعباً لأنه استسلم للنوم حالما غطَّته والدتي.

بعد أن استسلم أبي لهَدأة الكرى بسبع أو ثماني دقائق دخل علينا خالي (عزت) بخطوات مضطربة. كان هلوعاً، كأنه جاء ليطفئ حريقاً شبّ في بيتنا. مرَّ من أمام سرير أبي وجلس إلى الكنبة المركونة جنب الشباك المقابل. ومن شديد اضطرابه كان وجهه مغطى بسحابة من بخار أنفاسه. وما إن جلس حتى تكشَّف الهدف من مجيئه. سألني بصوت جهوري، رافعاً صوته أكثر ممّا يلزم في حالات كهذه. فحدّثته عما جرى لنا في (اسبارتا) من دون أن أخوض في التفاصيل. استمعَ إليّ باهتمام بالغ على غير ما كان متوقعاً منه. حتى أنه أومأ برأسه مراتٍ عديدة. بعد ذلك رفع سحّاب معطفه إلى ما تحت رقبته ثم ثبَّت نظره على نقطة وهمية ما أمامه، وغرق في صمت عميق. عندما سكَتُّ أنا سكَتَ هو أيضاً. في الواقع لم يكن لديّ ما أقولُه، ففي أثناء ذلك كنت أفكر بالحصان الذي ظل هناك في (كور أوغلو بيلي). ومن لحظة رجوعي من الشرفة كان الحصان يتكوّر داخل رأسي ككرة من نور ساطع ولا يتوقف عن الصهيل قَط. كان يعدو بلا توقف. يعدو باتجاه خالي حين أنظر إليه. ويعدو باتجاه أمي حين أنظر إليها، وكذلك بالنسبة إلى أبي. حيثما ولَّيتُ وجهي كان يعدو صوب تلك الوجهة. لهذا السبب أدرت رأسي وأخذت أنظر إلى الجبال التي كانت تظهر عبر النافذة وكان الظلام يغشاها رويداً رويداً. ثم رحت أنظر إلى الغيوم المتلبِّدة التي كانت تجول حول القِمم الصخرية، بعد ذلك بدأت أراقب كتل الغيوم الآخذة بالتمدُّد والانكماش والفُسَح الزرقاء الظاهرة من بينها وأتنفَّس بعمق. ولا بدّ أنّ الضجر قد بلغ بي مبلغه حين وجدت نفسي أقصُّ على أمي وخالي عن ذلك الحصان الذي ظلَّ يتبعني في الأمس.

– هل يتبعك في كل مرّة تمرّ من هناك؟ سألني خالي وهو يتخلَّص من وضعية الجلوس أمام مصوِّرٍ شمسي.

– لا يظهر لي في طريق العودة – قلت له – بل عندما آتي من أنقرة إلى هنا. وهذه هي المرة الثالثة التي يظهر لي فيها. ظهر لي في المرة الأولى عند (بولاتلي) وفي المرة الثانية ظلّ يعدو خلفي إلى (سيفري حصار) وفي الثالثة ظلَّ يتبعني حتى وصلتُ إلى (كور أوغلو بيلي).

فرش خالي ذقنه على صدره وقضى بعض الوقت يفكر، وراحت سبابته تنزل تارة وتصعد أخرى لتصل إلى صدغه. قال بنبرة الواثق من نفسه تماماً:

– كلا أنت على خطأ يا ابن أختي. إنه ليس الحصان نفسه. ففي كل مرة ترى حصاناً آخر مختلفاً.

– لست على خطأ يا خالي! – قلتُ – إنه الحصان نفسه في كل مرة.

أما أمي فقالت بصوت أجشّ:

– خير إنْ شاءَ الله، خير إنْ شاءَ الله – قالت وهي جالسة على الوسادة الصغيرة.

في تلك الأثناء تماماً سمعت صهيل حصان عند الباب، فانتفضتُ واقفاً. سألتُ والدتي بوجه مكفهرّ:

– ما هذا؟

فقالت أمي بهدوء:

– اجلسْ يا ولدي اجلس. إنه خالك (حسين)، حصانه مات قبل شهرين.

– وما علاقة ذلك بهذا الصوت!

– بعد موت حصانه أوصى أولادَه أن يبدِّلوا نغمة الرنين في هاتفه الجوّال بصوت صهيل حصان. فعندما يرنُّ الهاتف تسمع صهيل حصان.

رحتُ إلى النافذة وأزحتُ الستارة المخمليَّة فوجدت خالي (حسين) لاصقاً رأسه بهاتفه. منكبّاً عليه، يتكلَّم بصوت مخنوق بجانب السلالم. يمسك سيجارته باليد الأخرى. تخرج كلماته مع حزمة من الدخان. وإن كان صوته غير مسموع إلا أن كلماته كانت تتلبَّد كغيوم دخان، تتكوَّر في الجو

كأنها عناقيد متدلِّية، محلِّقة، تأبى أن تنقشع. كان خالي يخطو بضع خطوات بهذا الاتجاه، وبضع خطوات أخرى في اتجاه آخر، فبدا لي أنه يتجول بين عناقيد كلماته. وبينما كنا كذلك جاءت العمة (هجران) ومرَّت من بين تلك العناقيد، ثم يمَّمَتْ صوب السلالم. وبعد ذلك راحت تصعد السلَّم درجة فأخرى. دفعتْ الباب ودخلت يتبعها خالي (حسين).

جاء من بعد زوجته يخطو خطوات واسعة ومرَّ بسرعة من وسط الغرفة. جلس متربّعاً إلى طرف من الكنبة، بعدها أسبل ذراعه لينزل المسبحة ذات الحبات الصفر إلى متناول يده، وأخذ يسحب حباتها برفق، فكان صوت طقطقة الحبات مسموعاً يتصادى داخل الغرفة، لذلك أخذتُ أنظرُ رغماً عنّي إلى المسبحة. فانتبهتْ أمي إلى المكان الذي كنت أنظر إليه فراحت هي الأخرى تراقب خالي ومسبحته. آنئذٍ صوَّب خالي إليَّ نظرة من تحت حاجبيه بوجه متجهِّم، ثم ابتسمَ بخفّة.

قال له خالي (عزت):

- أبدلْ هذه النغمة يا أخي! كيف يمكن وضع صوت صهيل الحصان بدلاً من نغمة رنين الهاتف؟

فلم يُلْقِ خالي (حسين) بالاً لكلام أخيه الأكبر، وظلّ يطقطق حبّات مسبحته. أما زوجته (هجران) فقد التفتت في تلك اللحظة إلى خالي (عزت) وقالت:

- يا أخي! أخوك هذا يريد أن يرنّ هاتفه على الدوام بصهيل الحصان، وفوق ذلك يطلب إلى الفتيان (موسى) و(داوود) و(كرم) أن يتَّصِلوا على هاتفه لكي يشنّف سمعه بصوت الصهيل. ويؤكد عليهم أن يتَّصِلوا على هاتفه في أيِّ وقت، إنْ كان ذلك في النهار أم في الليل، لا يهم.

قال خالي (حسين):

- عندما يرّن الهاتف يتصوّر المرء أن الحصان واقفٌ عند الباب.

نظر إليه خالي (عزت) باستهزاء:

- يا ابن أختي أتدري كم أنا مشتاقٌ لرؤية ابنتي!

قالها خالي (حسين) وقد التفَتَ نحوي:

– صدِّقْني يا ابن أختي عندما يرنّ هاتفي وأسمع صهيل الفرس أشعر بنارٍ تشبُّ في قلبي.

حين قال كلامه هذا رفع يده التي كان يمسك بها المسبحة ولطم بها صدره. فأفلتَتْ دمعتان من عينيه. ثم مال إلى شماله ومسح دموعه برفق بظاهر كفِّه.

التفَتَ خالي (عزت) نحونا بسرعة:

– هذا الرجل لم يكن يبكي على أشياء كهذه قبل هذا.

قالها ثمّ أنزلَ سحّاب معطفه إلى وسط صدره، ومدّ رقبته بسخرية سائلاً إياه:

– يا ولد هكذا إذن؟ يبدو أنك هرمت قبل أخيك الكبير...

لم يفهم ما قاله خالي (عزت) بل ظلّ ينظر إليه بنظرات خاوية من أي معنى.

– أنا أكبركم ولكن يبدو أنك قد هرمت قبلي! أليس كذلك هيه؟ – قالها خالي (عزت).

– لا! – قالها الآخر – ألا ترى أنني ما زلتُ قويّاً. أستطيع تسلُّق قمَّة جبل (بيشبارماك) ثلاث مرات على التوالي. أصعد وأنزل، أصعد وأنزل!

– هراء! – قالها خالي (عزت) – لا تنسى أنك تدخن سجائر. في السابق عندما كنت تمشي كانت الأرض التي تطؤها تهتز تحت قدميك.

– أيْ، أيْ – قال الآخر.

– ألا تدري ماذا يعني هذا يا ولد! أي أنَّ الأرض التي تمشي عليها لمْ تعدْ تهتز بل أنت الذي ترتجف.

فكفّ خالي (حسين) عن الرد على كلام خالي (عزت) وأخذ يفكّر بفرسه الميت بكل جوارحه وراح يعدّ حبّات مسبحته.

لا بدّ أن أبي قد سمع الحديث الذي كان يجري بينهم ففتح عينيه. بعد

ذلك جاءت العمة (كولفم) مع زوجها العم (أيوب) وهي تنقر الأرض بعكازتها. وجاء من بعدهما (زبير) وزوجته تتبعهما أخت زوجته، بعد ذلك جاء (جاويد) و(بكير) أولاد عمة أبي ومن بعدهم جاءت عمتي الوسطى ومعها ابنها وكنّتها. وما إن دخل هؤلاء حتى وصل خالي (وقاص) يحيط به ولداه من جانبيه، فامتلأت الغرفة بالضيوف. الأمر الذي دفع قسماً منهم إلى أن يتراءى لأبي ويقدم تمنياتِه له بالشفاء ويذهب إلى صالة الاستقبال. وهكذا اضطر نصف عدد الضيوف إلى الجلوس في صالة الاستقبال. فغصّتْ الغرفة بضجيج عارم تُشكِّلُه أصواتٌ غليظة وأخرى ناعمة، ترتفع إلى فضاء الغرفة. وبعد مرور بعض الوقت بدا كل شيء منتظماً وعلى أتمّ ما يُرام. ثم بدأ الجالسون في الغرفة بالحديث عن أبي ورفضه إجراء العملية. وبهذه المناسبة ذكروا أسماء الأشخاص الذين مَرّ طريقُهم عبر صالة عمليات واضطروا إلى الاستلقاء تحت مشرط الجرَّاحين، وعدَّدوا أسماء من تكلّلت عملياتهم بالنجاح وخرجوا سالمين معافين مثل الحُصُن. وأسماء من ظلّوا مطروحين على مصطبة العمليات. قالوا ما باليد حيلة إنه تقدير إلهي وترحّموا عليهم. قال قائل منهم الشخص الفلاني كان قد أعطى لطبيبه مبلغاً من المال يقال له (ثمن المشرط) وذكروا شخصاً آخر منح طبيبه مبلغاً خيالياً يدعو إلى الدهشة. وبينما كانوا يغوصون في الماضي ويتذكّرون كل هؤلاء الأشخاص راحوا يتجاذبون أطراف الحديث ويغوصون في تفاصيل الأمراض التي أودت بحياة بعض المذكورين آنفاً. ويحاجج بعضُهم بعضَهم الآخر في تلك التفاصيل، وراحوا يتنقَّلون بين المواضيع كما لو كانوا يتزلَّجون على الجليد. يقول أحدهم إنّ فلاناً كان يعاني من كليتيه، فيعترض الآخر بقوله «لا بل كان يشكو من معدته...». ويذهب الآخر إلى أن الداء كان في بطنه. شخصٌ آخر كان يقول «لا أنت على خطأ ففلان كان يشكو من طحاله...». وهكذا طال الكلام وطال حتى لجأ بعضٌ منهم إلى هواتفهم النقالة واتصلوا بهذا وذاك ولم يرتح لهم بال حتى تعرفوا على المرض المعني عن طريق الاستفسار من المصادر المقرَّبة الموثوقة. ولم يستطع (جاويد) أن يقنع الحاضرين على التصديق بكلامه، رغم أنه خابر شخصاً ما وسأله قائلاً: «يا سليمان أية عملية

أجريت لجدك؟ نعم قل يا هذا قُل!»، ثم قال للحاضرين «ألم أقل لكم!»، ولكنه عندما أفرط في الضحك الذي لازمه لم يصدقه أحد من السامعين، وظنوا أنه أجرى مكالمة هاتفية مع شخص خيالي وغير موجود أصلاً. ولهذا السبب عمد واحد من الحاضرين إلى مكالمة سليمان هذا على هاتفه وتوجيه السؤال إليه: «ولك سليمان! جدُّك لِمَ عمل عملية؟».

فيما كانت تجري كل هذه الأقاويل هنا في الغرفة كان الجالسون على الوسائد في الصالة يتداولون أخباراً حَرَّى عن أسعار الكروم، ويخوضون - كأية زمرة متفكِّكة - في سيرة التجّار المحتكرين الذين يتفقون فيما بينهم على توحيد الأسعار من أجل الاستحواذ على محصول الكروم بأبخس الأثمان. كانوا يلوِّحون بأذرعهم بغضب نحو معامل النبيذ الكائنة على بعد أربعين أو خمسين كيلومتراً من هنا، أو يشيرون باتجاه مواقع مختلفة بعيدة كل البعد عن حقول الكروم. وأخيراً أقلعوا عن الكلام في هذا الموضوع معتقدين أنهم إنما يخرجون من هذه المعادلة صفر اليدين. أراد واحد منهم أن يبعث الحياة في هذه الثرثرة بقوله «سحقاً لهذا المحصول! فلا الرَطب منه يساوي عُشر مِعشار ولا المجفَّف». إلا أن أحداً منهم لم يردّ عليه فسكت. ثم عرّجوا على دور الشركات التي تسلَّطتْ منذ أشهر عديدة على تلك الجبال الجميلة بدعوى التنقيب عن الرخام. وراحت تحفر هنا وتنبش هناك مثل حيوان الخلد وتفسد جمال تلك البقاع، حتى إنها بدأت تقضُّ مضاجع الهوام والحشرات وتلوِّث نكهة الحياة بالغبار والدخان. بدؤوا يخوضون في سيرة أولئك الدُّخلاء ويلعنون المفسدين من منتسبي تلك الجهة الرسمية التي منحتهم التراخيص للقيام بهذه الحفريات.

كان الجالسون في الغرفة يعدّون أسماء المتمسكنين الذين يقدمون طلبات الإعانة إلى القائمْمَقاميّة للحصول على معونات مادية أو معونات من الفحم، ولا يندى جبينهم من الوقوف في طوابير المتسوِّلين. وكلّما ذُكر اسمٌ من أسماء أولئك الذوات تعالت صيحات الجالسين أنْ «سحقاً لكم يا سفلة! سحقاً لكم يا جاحدين». ولم يكن أحدٌ منهم يتوانى عن شتم هؤلاء بقولهم:

«يا سافل، يا منحط! ليملأْ الترابُ عينَيك. يا بخيل يا دَيُّوث!»، حتى لكأنَّ تلك الوجوه كانت حاضرة أمام أعينهم فيدفعونها إلى الخلف بظاهر أكفُّهم ممتعضين من رؤيتها. كانوا يدفعون تلك الوجوه فيخيَّل للمرء أنَّ أصابعهم تطول بشكل غريب. وبمناورة فريدة أداروا دفَّة الحديث إلى المقبرة، وبدؤوا بذكر أسماء الموتى واحداً فواحداً ومن منهم دفن ولم يضع أهله قطعة من الحجر كشاهد عند رؤوسهم، ثم ذكروا أبناءهم العاقّين الذين لم يوفّوا قطرة واحدة من الحليب الذي رضعوه من أمهاتهم. ثم قاموا بتطعيم حديثهم بما سمعوا من أهوال جهنم، ثم أطنبوه بصور شتى عن الجنة. ثم انتقلوا إلى أحداث السنة الماضية فتذكَّروا ما فعلَتْه الخنازير، حين هاجمت حقول الكروم وأفسدت جذور النبتات. تحدثوا عن البركة وكيف رُفِعَت عن البلدة، عن الشائعات المتداولة في المقاهي وعن العداوات التي عَفَّى عليها الزمن، عن الحكايات القديمة وعن الأحلام والكوابيس المخيفة التي يرتعب المرء من مجرد ذكرها وعن أخبار من سيتزوج عن قريب ومن سيطلّق زوجته.

وبينما كانت الأحاديث تجري على هذا المنوال في الغرفة المجاورة، وفي الصالة على حدة، شهد البيت انتقالات متبادلة بين الغرفة والصالة. فكان الضيوف يتنقَّلون بين الغرفة والصالة حين يكون الحديث الدائر على هواهم في أي مكان من الأماكن. يغيّرون أماكنهم ويتنقّلون بين الغرفة والصالة بحسب أهمية الحديث وجاذبيته. في حين كان بعضٌ من الكسالى لا يغادرون أماكنهم بل يرسلون مداخلاتهم إلى المجلس المجاور من المكان نفسه حيث يجلسون، دون أن يتجشَّموا عناء التحرُّك من أماكنهم.

نحو منتصف الليل أخذتْ حدّة الثرثرة تتهاود شيئاً فشيئاً، كما خفّت حركة الأيدي واصطبغت الوجوه بمسحة مائلة إلى الاصفرار بسبب التعب. بعد ذلك قال قائلٌ منهم لقد تأخَّر الوقت فغادروا المكان بشكل جماعي.

وما إن ابتعد الضيوف وتلاشى وقع أقدامهم في العتمة ظلَّ أبي ينظر إلى المكان كأنه غير مصدِّق بما يرى. أخذ ينظر إلى مكان كل واحد من الذين كانوا جالسين هنا قبل قليل.

– ما هذا؟ – قالها – لقد غدا رأسي مثل قِدْر! زيارة المريض تكون مقبولة إذا كانت قصيرة، أليس كذلك! إذ ليس من المعقول أن يثرثر الناس إلى هذا الحدّ عند رأس المريض.

– لا تقلْ هذا يا رجل! – قالتها أمي وهي تلملم أقداح الشاي الفارغة المبعثرة هنا وهناك – يزورونك لأنهم يحبّونك ويقلقون على صحَّتك يا رجل!

هزّ أبي رأسه بمعنى «نعم أعرف». بعد ذلك طلب إليَّ أن أزيح ستارة الشباك في صالة الضيوف، ثم مال بتؤدة إلى الجانب الآخر ووضع يده على الطنف الإسمنتي للشباك وأرسل بصره إلى بعيد. راح يرنو إلى الجبال التي كانت تجأر في جوف الظلام.

كنت أفكّر بالعودة إلى (أنقرة) فقلتُ:

– هل هنالك عملٌ ما أقوم به هنا من أجلكما؟

– ماذا تريد أن تفعل أكثر من هذا يابني!؟ – قالت والدتي – الله يرضى عليك يا ولدي. كما تعرف فإنَّ أباك لا يريد أن تُجرى له عملية جراحية، فلا تتأخَّرْ هنا بلا طائل. ارجعْ لتكون مع أُسرتك.

– هل تريدني أن أعود يا أبَتِ؟ – سألتُ أبي.

كان أبي يريح ذقنه على ذراعه وينظر باتجاه الجبال التي لم تكن تُرى. لم يسمعني ربما.

– لا أدري ماذا أقول! – قالها أبي حين سألتُه للمرة الثانية. رفع رأسَه وأدارها على مهل: أنت أدرى! ليس لك عمل آخر لتقوم به هنا.

وفي صباح اليوم التالي وبعد الفطور الصباحي نهضت واقفاً على رجليّ وقلت:

– عليَّ الذهاب.

وبينما كنت أودّع أبي سألني:

– مفتاح الترباس في سيارتك هل هو على شكل (J).

– نعم – قلت.

– لقد صنعوا أنواعاً مختلفة منها، وكأنها دمى أطفال، قالها وهو جالس في مكانه فاتحاً ذراعيه إلى الجانبين على هيئة مفتاح الترباس. ما أعرفه هو أن يكون المفتاح على هيئة فراشة لكي تستعين عليه بقدمك لدى استعماله في فتح الصامولات، أو عند استخدام الرافعة[21] حتى أنه يمكنك استخدام أنبوب حديديّ معه لتسهيل استعماله. من رأيي عليك أن تبدِّل هذا المفتاح على الفور!

– حسنٌ يا أبي سوف أبدله – قلتُ لكي أريحه.

بعد ذلك ودَّعتُ أمي وخرجتُ من البيت حاملاً حقيبة سفري. مرَرْتُ بشكل جانبي من تحت متسلِّقات الكروم والبرقوق ثم خرجت إلى باب الحديقة حيث كانت سيّارتي مركونة. كنت جالساً أمام المِقود حين جاءني عَمِّي (أيوب) مسرعاً. نظرت إلى المرآة الجانبية فوجدتُه يكبُرُ فيها، يكبُر ويكبُر حتى مَثُل بكامل هامَته أمام باب السيارة. حدّقَ بي بعينيه الرماديَّتين ومال على زجاجة الباب.

– هل أنت ذاهب؟ – قالها بأنفاس متقطِّعة وكأنه قطع مسافة طويلة جرياً على قدميه.

– نعم أنا ذاهب يا عم أيوب. إلى اللقاء – قلت.

– توقَّفْ! – قالها ومدّ كفَّه الفارغة نحوي – ترجَّلْ من السيارة لنتكلَّم على انفراد.

فتحت حزام الأمان ونزلت من السيارة على مهل. فيما كنت أحاول فتح باب السيارة تراجع عمي (أيوب) إلى الخلف باتجاه الحائط المبني من الصخر.

كان وجهه مكفهرّاً كما شوهد ليلة أمس. ولولا عينيه البرّاقتَين لقلتُ إنه ما زال نائماً.

– تفضَّلْ يا عمَّاه! – قلت واقتربتُ منه.

21– كريكو في بعض المناطق العربية. رافعة صغيرة تستعمل في السيارة لرفعها وتبديل الإطارات – المترجم.

مال بثقله ما استطاع إلى أمام لكي يكلِّمني بصوتٍ خفيض، قال:

- بلغني أنَّ حصاناً يتبعُك أثناء مجيئك وذهابك، هل هذا صحيح؟

- نعم - قلتُ.

فجأةً شبك ذراعيه إلى أمام كأنه يقف للصلاة، وظلَّ برهةً من الوقت على هذا الحال. طأطأ رأسه وظلَّ ينظرُ إليَّ من تحت حاجبيه.

- يا ولدي - قالها ورفع رأسه ببطء - أمَّا الحصانُ الذي يتبعك فهو حصان الأجل الموعود. بالتأكيد هو كذلك طالما أنه يجري بنفس السرعة التي تقود بها سيارتك، ولا يأبه بك. إنَّه حصانُ الأجَل.

لم أعرف ماذا ينبغي عليَّ قولُه في تلك اللحظة، ولكنني بلعتُ ريقي مع شعوري بشيءٍ من الرهبة وفي الوقت نفسه شعرتُ بالخجل وكأنني أنا من خلق ذلك الحصان.

فاسترسل عمي (أيوب) قائلاً:

- حصانُ الأجل الذي رأيتَه، لا بدّ أنه كان منطلقاً في طريقه إلى شخص ما ليقبض روحَه. ذلك الشخص من المحتمل أن تكون أنت أو شخص آخر غيرك. فإذا كان الشخص المراد قبض روحه غيرَك تراءى لك، وهكذا هو يستمر في انطلاقته.

فقلت له:

- حسنٌ يا عمَّاه! إذن في هذه الحالة هل يمكننا القول إنَّ حُصُن الآجال تنطلقُ من (أنقرة) بهذا الاتجاه؟

أسبل عمي (أيوب) يديه ونظر إلى وجهي باستغراب. ثمّ قال:

- يابني إذا فكّرنا بمسار حصان الأجل هذا فإنَّ مكاناً مثل (أنقرة) لا تساوي ولا حبّة واحدة من الرمل.

- قلتُ له بتعقُّل: فهمت.

- انظرْ يا ولد! - قالها العم (أيوب) وهو يخفض صوته أكثر من السابق - ما دام حصان الأجل قد تراءى لك فعليك ألّا تفشي سرَّك هذا. عليك أن تكتفي بالسكوت وتصون هذا السر. أظن أنّك فهمتَ ما أعني، أليس كذلك؟

فأومأتُ برأسي.

وبينما أدرتُ محرِّك السيَّارة وبدأتُ بالسير بها كان عمّي (أيوب) واقفاً هناك، ينظر إليَّ بعينيه الرماديَّتين من تحت حاجبَيه.

– قُدْ السيَّارة على مهلك، الأمان يا ولدي على مهلك! – قالها فيما كنت أبتعد بسيارتي.

نزلت عند رغبته بالطبع وأخذت أسوق على مهل، ولم أزدْ من سرعتي قَطّ، حتى وصلتُ إلى (أنقرة).

بعد ثلاثة أيام حين كنّا نتهيأ للجلوس إلى مائدة الطعام لتناول وجبة العشاء رنّ الهاتف فرُحتُ إلى آخر الصالة وتناولت السماعة.

– آلو... قالت أمي. وما إن نطقتُ بهذا الكلام حتى أنشأت تبكي وتنشجُ في بكائها.

– ماذا حدث يا أماه؟ – سألتُها بهلع.

– أواه يا بني! لقد فقدناه يا ولدي! – قالت ذلك من بين شهقات البكاء.

بدأ العرقُ يتصبَّبُ من أنحاء جسمي نتيجة خوفي الشديد، فألقيت عليها السؤال ثانية:

– من هذا الذي فقدناه يا أماه؟ قولي لي يا أمي من الذي فقدناه.

فاضطربتْ أمّي أشدَّ الاضطراب وهكذا ظلَّتْ تنتحب في الجانب الآخر من الخط، حتى أنني بتُّ أسمع صوت اللَّطْم بوضوح. لا بدَّ أنها كانت تلطم ركبتها. أما أنا فبقيت واجماً، عاجزاً، لا أدري ماذا ينبغي عليّ القيام به. انفرجت عيناي على آخرهما من شديد الخوف.

– يا ابني! – قالتْ أمي بعد مدة من الصمت – للأسف فقدنا اليوم خالَكَ عزت... أجل خالك عزت!

فتسمَّرتُ في مكاني واجماً بلا حراك، وسماعة الهاتف في يدي. حينها استبدَّتْ بأمي نوبة أخرى من البكاء.

– خالك يا ولدي! لا ندري من الذي وضع هذه الفكرة في رأسه. كيف تسلَّق شجرة الجوز. وصعد إلى أعلاها. لا ندري إن كان قد شعر بالدوار

أم وطأ غصناً ضعيفاً، أم زاغ بصره وسقط من أعلى شجرة الجوز على رأسه. سمعنا الصياح والعويل يا ولدي فهرعنا إلى بيت خالك. وما راعنا إلا أن وجدنا خالك ذا الجثة الضخمة مطروحاً على الأرض مضرَّجاً بدمائه. خابَرْنا فجاءت سيارة إسعاف نقلته إلى (دنيزلي) في الحال. إلَّا أنَّ جميع المحاولات في إنقاذ حياته باءت بالفشل.

- البقيَّة في حياتكِ يا أمُّي - قلتُها بصعوبة.

- لا تعتبْ علينا يا ولدي لأنَّنا لمْ نخبرك في الوقت المناسب. كانت مفاجأة، وكل شيء حدث على وجه السرعة، وفي غضون سويعات قلائل. نحنُ أيضاً أصابنا الارتباك. لم نكن نعرف ماذا ينبغي علينا القيام به! بعد صلاة العصر أتمَمْنا دفنَه. في الحقيقة حتى لو أخبرناك في تلك الساعة لما استطعت اللّحاق بمراسيم دفن الجنازة.

-6-

بعد أن تلقَّيتُ نبأ موت خالي (عزت) اعتكفتُ في بيتي، وبقيت أدُوْر داخلَه مثل المغزل. وفي كل مرة أشعر فيها أن الجدران تضيّق الخناق عليَّ كنتُ أهرع إلى الخارج، إلى الشرفة لألتقط أنفاسي. اعتدتُ أن أمضي ساعات طويلة وأنا جالسٌ لوحدي إلى الكرسي هناك، أدخّن السيجارة تلو الأخرى. وبروح متعبة أرنو إلى بعيد عبر الفضاءات التي تكوّنت بين صروح العمارات.

في اليوم الرابع نزولاً عند رغبة ابنتي (آيبري) خرجنا معاً كأب وابنته في نزهة صغيرة حول المجمَّع السكني. كان هدفها من هذه النزهة هو أن تطمئنَّ على أصدقائها من القطط السائبة التي أطلقت على كل واحد منهم اسماً مثل (لكة)، (آوجي)[22] و(جو) وكانت تقوم بجولة كهذه في الأقل لمرة واحدة في الأسبوع. كنا نقدم ما يتوفر لدينا من ماء وطعام لتلك الحيوانات. كنا نشعر بالذنب عندما نهمل واجبنا تجاهها لأيّ سبب مهما كان، لذلك كان الواحد منا يسأل الآخر لدى خروجنا أو عودتنا إلى البيت، إن كنا ذهبنا للاهتمام بها أم لا. بالطبع كان يفرحني كثيراً تولّد هذا الحس لدى ابنتي (آيبري) وهي بعمر الزهور. حينما قالت لي إنها مشتاقة لرؤية القطط قمت من فوري وذهبت معها دون تردُّد. كنّا محمَّلين بالأطعمة. قمنا بالبحث عن القطط بين نباتات السياج وفي رواحنا وغدوّنا حول المجمَّع السكني ألقينا النظر مراراً إلى أسفل الحيطان. وأخيراً وجدناها في الجولة الثالثة.

22- تعني الصياد - المترجم.

القطّة (لكة) كانت تتصرف ببرود كما هو عهدها، وتحتفظ بمسافة كافية بينها وبيننا. اقتربت بحذر والتقطت نصيبها من النقانق وتناولتها بعدد من المضغات، وابتعدت على وجه السرعة وكأنها تريد الالتحاق بمكان ما. لكن (آوجي) لم يتصرف مثلها بل راح يقوم بحركات نزقة حالما وقع بصره على (آيبري). ألقى بنفسه تحت قدميها وراح يهزّ ذيله الشبيه بشرابة طويلة وغليظة وأخذ يتمرّغ على الأرض تارة على جنبه الأيمن وتارة على جنبه الأيسر. أما (جو) فقد وجدناه فيما بعد متسكّعاً في «بارك» الأولاد، يفترش الرمل الساخن ويتمتّع بكامل حرّيته. بينما جلستُ أنا على المصطبة هناك لكي آخذ قسطاً من الراحة هرعت (آيبري) إلى الزلّاقة وتزحلقت مرّتين من أجل أن تجذب انتباه الهر (جو). وفي كل مرة أثناء التزحلق كانت تنادي: «جو انظرْ إليّ جو! انظرْ إليَّ!»، ولكن ذلك الصياح لم يُفِدْها بشيء. لأن (جو) لم يأبه بها، ولم يغيّر من وضع جلوسه. وعندما جوبهت (آيبري) بالصدّ من جانبه، راحت تشحذ قريحتها وتخرج من بنات أفكارها ما يفيد بأن هذه الهررة إنما هي في الأصل أطفال عوائل. وأن قطط (أريامان) تجتمع سراً مرةً في الشهر في الطابق الأرضي من العمارة التي نسكن. ثم أخذت بيدي وقادتني إلى الكوّة الموجودة في أسفل أحد الجدران لتريني المنفذ الذي تدخل القطط من خلاله إلى الطابق الأرضي. ومن بعد ذلك قالت لي:

– هيا قل لي يا بابا أيُّ حيوان هو أحب إلى نفسك من بين الحيوانات؟

تردَّدتُ بعضَ الشيء ثم قلت لها:

– أكثر الحيوانات التي أحبّها هي القطط.

فالتفتَتْ ونظرت إليَّ بعينين مفتوحتين إلى الآخر. كأن نظراتها كانت تكذّبني بقولها:

– في حين كنت تحب الحُصُن أكثر من أي حيوان آخر. أما صرحت بهذا الكلام قبل مدة؟

ساعتها لم أستطع تبرير كلامي، لأنها صغيرة السن، ولم أستطع

التعبير عن مكنونات نفسي، والسبب الذي دفعني إلى القول إني أحب القطط أكثر من الحُصُن. ذلك أن شيء ما يشبه التأتأة لازمني ولم أجد كلاماً مناسباً لأجيبها. ولكنني استطعت أن أجد منفذاً للإفلات من هذا الموقف المحرج، إذ غيرت دفة الحديث إلى وجهة أخرى. سألتها لماذا أطلقت هذا الاسم على الهر (جو). فقالت:

- إذا دقَّقتَ النظر فيه لعرفْتَ السبب.

التفتُّ إلى (جو) لكي ألقي عليه نظرة متفحّصة على الرغم من أنني ملأت عينيّ بمرآه. إنه قطٌّ مقطوع الذنب قليل المواء. تنتشر على جسمه نقاط صفراء وبقع بيضاء ورمادية، تتخلّلها نقاط بلون القهوة. إذا نظرت إلى حركاته لوجدتها بطيئة وذلك قد يكون بسبب تقدّم العمر به. كان قد ابتعد عني وراح يتبختر في مشيه على مقربة من المراجيح. ومن هناك كان ينظر إليَّ.

- ها، فهمت الآن؟ - سألتني (آيبري).

- لا يا ابنتي لم أفهم! - قلت - هيا لا تتعبيني أنتِ اشرحي لي.

- لم تمعن النظر بدقة يا أبي، لم تمعن النظر كما ينبغي. قالتها (آيبري) وهي تميل برأسها ذات اليمين وذات الشمال:

- في الحقيقة كان اسمه خرزة في السابق. وبعد أن تعرض لحادث مروّع وبُتر ذيله من منبته، كذلك بَتَرْتُ أحرفاً من اسمه ولم يبقَ منه سوى (جو)[23].

- هم م م م م... هذا شرح جميل.

- ولكن (جو) له لقب يعرف به أيضاً - قالت وهي مبتسمة.

- وما هو لقبه؟ - سألتُ.

- مارتيسي! - قالتْ بمرح وأضافت: هيا يا أبَتِ انطقْ بالاسم مع اللقب، هيا!

23- تعني خرزة بالتركية وبعد الحادث الذي تعرّضت إليه الهرَّة (بونجوق) بقي حرفان من اسمها وهما (جو) - المترجم.

- جو مارتيسي[24] - قلتُ.

فابتسمت (آيبري) برقّة.

نحو المساء أكملْنا جولتنا هذه دون الرجوع إلى سيرة الحُصُن. عدنا إلى البيت ونحن نمر من بين أشجار الصنوبر، برودة العشب الندي تلفح وجهينا. وما إن دخلنا البيت حتى راحت (آيبري) وألقت بنفسها في حضن والدتها، وأخذت تحدّثها عن مهارات القط (آوجي). أما أنا فرُحتُ إلى الهاتف واتصلت بـ(دنيزلي) للاطمئنان على صحّة والدي.

- أبوك ليس على ما يرام البتَّة - قالت أمي بصوت مظلم ومخنوق كأنه قادم من أعماق جُبّ - لا أدري ما الذي حصل له؟! ما السبب الذي جعله يضعف فجأة. ولم تعد له طاقة للتحمل. وصار لا يقوى على المشي حتى بعكازتين.

- حسنٌ فكيف يقضي حاجته إذن؟ - سألتها.

- آه لو تدري كيف يذهب أبوك إلى الحمام يا ولدي! - تلكأت أمي بعض الشيء ثم قالت: بالكاد يقوى على قضاء حاجته. أبوك يذهب زاحفاً إلى الحمام ويعود زاحفاً. بالطبع ينبغي عليَّ أنا أن أتواجد إلى جانبه دائماً، لأنه لا يستطيع القيام بذلك لوحده.

أصابتني الدهشة لا أدري ماذا أقول لأمي. هي الأخرى كانت في حيرة من أمرها لا تدري ماذا تقول. قضينا بعض الوقت ساكتين، لا نعرف ماذا نقول. وهكذا ودّع أحدنا الآخر وكل واحد منا يغمره الشعور بالإحباط.

بالطبع انتابتْني نوبةٌ من الحزن، رحت على أثرها أدور في أرجاء الصالة في البيت ثم رميت نفسي خارجاً إلى الشرفة. جلست هناك أفكر في أبي. قضيت بعض الوقت أدخن. وقد دخنت بضع سيجارات الواحدة تلو الأخرى.

كانت (أرياما) غارقةً في الظلام، تتراءى لي هامات أشجار الصنوبر

24- عندما يُنطق اسم الهرّ (جو) مع اللقب (مارتيسي) فتكون الكلمة (جومارتيسي) وتعني يوم السبت - المترجم.

العالية في الحديقة وقد اتخذت شكلاً غريباً، أما نباتات الوشيع التي تكوّن منها السياج فقد بدت في جوف الظلام هذا وكأنها انسلخت من كونها نباتات وتحوّلت إلى جدران قاتمة السواد. أما العمارات الأخرى الواقعة خارج حدود مجمّعنا السكني فقد تلاشت أشكالها ولم تعد تُشاهد. إلا أن ثمة مساحات ضوئية صفراء راجفة تعلن عن وجود نوافذ، وكأنها مستطيلات معلَّقة في الفراغ الضبابي. وفي أعالي السماء كانت هنالك نجوم توقظ في النفس مشاعر الوحدة واليأس، نجومٌ لا تُعَدّ ولا تُحصى، صغيرة الحجم وأخرى كبيرة تأتلق هنا وتنطفئ، وتلمع هناك في أماكن بعيدة.

أجلّ هذا اليوم، وفي أمسيتي هذه، بينما كنت أرنو إلى بعيد وأتأمل تلك النجوم المتألِّقة في عنان السماء لا أدري كيف انتشرت رائحة المازوت. فقد أدرك أنفي خيطاً رفيعاً منها. جاءت من مكانٍ بعيدٍ جدًّاً. ظلَّت تأتيني طوال نهاري. ربما كانت تأتي من المجمع السكني الواقع قبالة الشارع العام، أو من الزقاق المحاط بأسيجة نباتات الوشيع. من يدري لعلها قادمة من مكان مجهول. لم أبذل أي عناء في التفكير بكل الاحتمالات. نظرتُ إلى النجوم للمرّة الأخيرة وقُمتُ من مكاني ودخلتُ البيت. حين دخلت البيت تصوَّرتُ أنَّ الرائحة سوف تتلاشى بمجرَّد ذهابي إلى الداخل، إلا أنها ظلَّت ملازمة لي، أستنشقها أينما حلَلْتُ.

وفي اليوم الثاني ظلَّت الرائحة تتبعني، حتى بدأتُ استسيغها رويداً رويداً. إذ كانت تحوّلني إلى طفل صغير حينما أستنشقها. ففي كلّ مرّة أشعر كأنَّ يداً عطوفةً، رقيقة، جُبِلتْ من ضبابٍ رقيق، تمتدُّ إليَّ من مكانٍ مجهول لتمسّد شعرَ رأسي برأفة. تغمرني بالسعادة وتملأ قلبي بالمحبة. رائحةٌ لها نكهة عصية على الوصف. وهكذا كانت تقضّ مضجعي فأغدو كالملدوغ. أجول في أرجاء البيت، ولا أستطيع المكوث في مكاني.

حين ذهبت زوجتي (سحر) إلى عملها و(آيبري) إلى بيت جدّتها وبقيت وحيداً، رحتُ أدور داخل البيت بلا هدف. وبعد عدة دورات

ارتديت ملابسي من فوري وألقيت بنفسي خارج المنزل. فبدأت أسير على مهل وأنا ساهٍ عمّا يدور حولي. مرَرْتُ من بين الأزاهير الحمراء في الحديقة دون أن أعرف ما هي وجهتي. ولا إلى أين ذاهبٌ أنا. كأن رائحة الكازولين وضعت الخِطَامَ على أنفي وصارت تقودني أينما تشاء، وأنا مستسلم لها أنقاد بكل طواعية. كنت منقاداً إليها بكل جوارحي. أحدّث نفسي وأقول «هذه الرائحة تفوح بشكل رائع، ومن الروعة بمكان لو لم تكن تسحبني خلفها ماشياً، لجَثَوتُ على ركبتَيَّ وحَبَوتُ مثل الطفل خلفها».

وهكذا في ذلك اليوم قضيتُ وقتاً طويلاً في التجوال على غير هدى. لا أدري ماذا أنا فاعلٌ! ولا أدري كيف قادتني قدماي إلى تلك الأماكن. إذ وجدت نفسي في (أوستيم) في فترة ما بعد الظهر. دخلت معرضاً لمعمل تصنيع الكراسي المتحركة. ووجدتني وجهاً لوجه مع شاب يرتدي قميصاً أبيضَ. يريني صفّاً من الكراسي المصنَّعة، ويشير إليها واحداً تلو الآخر. يشرح مواصفات كلّ كرسي على حدة. في حين كان يتناهى إلى سمعي من الخارج هديرٌ مكتوم لمكائِن تشتغل وضجيج محرّكات السيارات. كانت هنالك سيارة حمل مترهّلة تثير هديراً ثقيلاً، يحاول سائقها ذو العينين المحمرَّتَين المتعبتَين أن يجد مكاناً يركن فيه عربته. يقوم بعدّة مناورات ليركن سيّارتَه. يفتح باب السيارة من جانب السائق، ويميل بنصف جسمه إلى الخارج لينظر إلى الخلف دون أن يغادر محلّ جلوس السائق. ينظر إلى الإطارات وإلى الأرجاء التي تنتشر فيها روائح المازوت. بعد ذلك تعدَّل في جلسته، أغلقَ الباب وذهب بسيارته إلى منتصف الشارع ليعود بها مجدداً. حينما كان يرجع بها إلى الخلف كاد أن يدخل المكان الذي كنت أقف فيه مستمعاً إلى الشاب. أما الشاب فكان يسرق بضع نظرات إلى سيارة الحمل التي بدأت تجعجع ثم يعود إليّ ليزيد من اهتمامه بي، لئلّا يوصف بإهمالي كوني زبوناً. وما هي بضع لحظات مرّتْ حتى قرَّرْتُ مع نفسي أنْ أشتري كرسيّاً من هذه الكراسي المتحركة. رحتُ أسأل الشاب عن مواصفات البطارية الملحقة

بماكينة الكرسي. كيف تشتغل؟ كيف يتم تبديلها وعن كيفية تنظيم السرعة. طلبت إليه أن يشرح لي كل ذلك بالتفصيل لكي أتقن استخدام الكرسي. وما إن انتهى هذا الفصل من حِواري مع الشاب حتى جاء اثنان من العمّال، حملا الكرسي ووضعاه في الصندوق الخلفي لسيارتي.

وفي غداة اليوم الثاني تهيأت للسفر. أخبرت زوجتي (سحر) وابنتي (آيبري) عن نيَّتي في السفر، قلتُ ربَّما سأتأخَّر لعدَّة أيَّام، ورُحتُ سالكاً الطريق إلى (دنيزلي). بعدما تركت (أنقرة) ورائي بمسافة لا بأس بها كنت أفكِّر وأقول لنفسي إنَّ هذا الكرسي المتحرك سيكون مفيداً جداً لأبي المُقْعَد الذي بَلِيَ في الفراش، وسوف يكون سبباً في تغيير حياته على نحو كبير. إذ سيكون بمقدوره أن يخرج من البيت وقتما يشاء، ويتجوَّل في المدينة كما يحلو له. ينزل إلى سوق البلدة متى شاء، يرتاد المقهى ليشرب الشاي ويقضي وقته في الدردشة مع أصحابه. وكل هذا سيتسبب في رفع معنوياته بشكل غير متوقَّع. وبينما كنت أكلِّم نفسي هكذا كانت أغاني (حاجي تاشان) التي أستمع إليها تبدو لي كأنها تتحوّل إلى مصابيح برّاقة تضيء العربة من الداخل. وفي الوقت ذاته كنت أشعر بخفة لذيذة تتولَّى روحي.

وبينما كنت أسلك طريقي من بين التلال الصغيرة في منطقة (بايات) صاعداً باتجاه (كور أوغلو بيلي) كان قد ذهب بيَ الخيال إلى خمارة (بيريك يشار) فرأيت (حاجي تاشان) قد استبد به التعب فوضع قيثارته جانباً، ركنها على سفح جبل (ديناك) وفسح المجال للمغنية (فاطمة توركان ياماجي) وكانت في تلك اللحظة تماماً تغني أغنية:

تجمّعت الثلوج على رأس الجبل المقابل ولا وجود لدخان،
محبوبتي تعتنق ديناً إلا أنها بلا إيمان...

وعلى الرغم من حبي واعجابي بهذه الأغنية إلا أنني لم أتفاعل معها،

لأنني كنت أقترب إلى المكان الذي اعتاد الحصان الذي كان يلاحقني أنْ يغيب فيه عن الأنظار، وكنت أتوقَّع أنه سوف يظهر لي بين اللحظة والأخرى وهو يصهل بمرارة كالمعتاد كما في كل مرة. حينما وصلت إلى العطفة المحاطة من كلا الجانبين بمصدّات معدنية رصاصية اللون، قلت بيني وبين نفسي إن كان هذا الحصان هو حصان الآجال حقاً، وكان يأتي من أجل قبض روح خالي (عزت) فإنه لن يظهر إلى الوجود طالما أنهى مهمَّته وقبض روح خالي بالفعل. لقد أراحني هذا الكلام بعض الشيء، وبدَّد هواجسي. تنفَّستُ بعمق وتنحنحت في مكاني، ثم مدَدْتُ يدي لأرفع صوت الموسيقى. وبعد لحظات اهتزّت أشجار الصنوبر التي كانت على يميني واضطربت، ثم تلاطمت أغصانها، وصار بعضها يضرب بعضها الآخر. ثم تمزقت ظلال الأشجار وتبددت أشكالها كما لو كانت تعصف بها الريح. بعد ذلك مباشرة ظهر الحصان بكلّ أبّهته من بين ظلال الأشجار مبدِّداً إيّاها شذَرَ مَذَر. فالطبيعة في تلك اللحظة كأنما ولدته من بعد مخاض وزلزال أخضر. وما إن وُلِدَ الحصان حتى انطلق يعدو على الحافة الترابية للشارع الأسفلتي الذي كنت أسلكه بسيارتي. كان يجري خبباً، ثم طفق يتبعني ويصهل بألم. عندما بلغت المكان الذي تكثر فيه المطاعم وأماكن استراحة المسافرين واجتزت المرتفع الذي يليه، بدأت أضغط على دواسة البنزين على مهل، فازدادت سرعة السيارة بينما كنت أنزل من فوق المنحدر باتجاه (ايسجة حصار) وبرغم ذلك لم أتخلص منه. بل واظب على اقتفاء أثري كظلٍ أشهب. وهكذا بدأت تراودني هواجس عجيبة وغريبة. ظل يتبعني ويجري بكل ما أوتي من قوة حتى وصلت إلى مدخل (صانديكلي) وعندما دخلت البلدة وصرت بمحاذاة مبنى المعهد المهني انطلق الحصان كأنه يريد بلوغ عنان السماء. اعتلى رافعاً قائمتيه الأماميتين وغاب عن الأنظار.

بعد ساعتين من السياقة بلغتُ بلدتنا. وكانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. ركنت السيارة أمام باب الحديقة لكي يتسنّى لي أن أخرج

الكرسي المتحرك من صندوق السيارة وأحمله إلى الداخل. كان الكرسي ثقيلاً إلى درجة أنني استعنت بأمي في حمله إلى الداخل. وضعناه في ملاءة قديمة طُوِيَتْ طويتَين. ثم حملنا البطارية بوجبة أخرى. وضعناها على سكَّتها المخصَّصة لها على الكرسي. وأوصلنا السلك الخاص بها. قالت أمي وهي تشير إلى البطارية:

- يا ولدي! إنها ثقيلة مثل جثّة كافرٍ مَيْت.

كانت في صوتها ومضاتٌ مؤتَلِقة من الفرح. باستطاعتي رؤيتها بيُسر.

حينما ذهبتُ إلى باب الغرفة التي كان أبي قابعاً فيها لأريه الكرسي أعربَ لي عن شكره بشكل مجرَّد من أيّ حميميّة. ربما كان قد فكَّر بينه وبين نفسه، على أنه انتهى أخيراً كمُقْعَدٍ يجلس على هذا الكرسي (الخردة) ولسان حالِه يقول: «إيه بعد أن كنّا نملك في وقتها أحسن الباصات وأحدث سيّارات الحمل العظيمة وكنّا نسوق مركبات طويلة صرنا الآن مجبرين على أن نجلس على سقط المتاع هذا». وبدلاً من أن يهتم بي وبما جئت به من أجله لم يُعرنا أدنى انتباهه، وكأنه إذا فعل سوف يكون ذلك بمثابة إهانة يوجّهها إلى نفسه كسائقٍ قضى سنوات طويلة من حياته في هذه المهنة. انتابته الحيرة لا يدري ماذا يفعل. وفي الحقيقة أنه تردّد بعض الشيء ومن وراء وجهٍ متجهِّمٍ ملبَّدٍ بالغيوم ظلَّ ينقل نظراته بيني وبين الكرسي حتى وصل خالي (حسين). دخَلَ عبر الباب ومسبحته في معصمه. شاهد الكرسي المتحرِّك وسط صالة الضيوف فأمعن النظر فيه. دار حول الكرسي دورة كاملة ثم التفت نحوي وسألني:

- هذا يتحرك ذاتياً، أليس كذلك؟

- أجل يتحرك ذاتياً - قلت.

أومأ برأسه عدة مرات وكأنه يقول نعم أعرف ذلك.

مرّرت والدتي يدها على الكرسي بتؤدة كما لو كانت تداعب صبيّاً وتمسِّد شعر رأسه ثمّ راحت وجلست على الكنبة.

في حين ذهب خالي (حسين) بخطوات طويلة وتربّع في جلوسه على

الكنبة المواجهة لأبي، ورفع يديه بمحاذاة صدره وأخذ يحرك حبات مسبحته. وكانت تسمع طقطقة الحبات بوضوح. جلوسه بهذه الطريقة قبالة أبي ذكّرني بخالي (عزت). افتقدت خالي ودفعني هذا الافتقاد إلى أن أتحسَّر على ذكراه وشهقْتُ بعمق.

– شغلة هذا الكرسي قد جاءت في محلّها يا صهري – قالها خالي (حسين) وكأنه يتكلَّم بواسطة المسبحة التي كانت في يده – يمكنك بعد هذا أن تجلس على هذا الكرسي وتذهب أينما تشاء! تذهب إلى السوق يومياً، تتجول في الأزقة فتشعر بالراحة.

اكتفى أبي بالنظر إلى الكرسي من مكانه على السرير ولم ينبس ببنت شفة.

– ولكن هنالك معضلة في هذا الموضوع! – قالها خالي والتفت نحوي على حين غِرّة، كيف يصعد هذا الكرسي وينزل عبر درجات السلالم؟ أنا أرى أنه يتوجب تهيأة منحدرٍ خاصٍّ به.

– أنت محقّ يا خالي – قلتُ له – نكلّف مَنْ لتنفيذ هذا العمل؟ هل تعرف أحداً من الأسطوات؟

– موسى ابني يحلّ المسألة – قال خالي.

– هل هو موجود في الجوار؟ – سألته.

– ما زال يتقافز هنا وهناك – قالها خالي بنبرة يائسة: لم يجدْ عملاً لحدِّ الآن.

– هل يفهم (موسى) في أعمال كهذه من أعمال البناء؟

فقال خالي:

– ليس هنالك من عمل لم يشتغل فيه من الخبازة إلى النسيج، ومن الحدادة الباردة إلى أعمال رصف الكاشي والسيراميك. ولهذا السبب لم يجد عملاً مناسباً له، وهكذا يجول في الأرجاء كأيّ خائب يعاني من البطالة.

أما والدتي ومن مكان جلوسها على الوسادة المفروشة عند طبّاخ (البوتوجاز) قالت:

– يفهم في كل شيء يا بني، ولكنه لا يثبت على مهنة معيَّنة. لا يستقر في مكان واحد أبداً.

في صباح اليوم الثاني جاء خالي (حسين) مبكراً وراح يعاين الموقع. أخذ يعدّ درجات السلّم وسيجارته بين أصابعه، ثم طفق يذرع الجوار جيئة وذهاباً. رأيناه عبر النافذة، قلنا له مرات عديدة: نحن نتناول فطورنا الصباحي، تعالَ وشاركنا ولكننا لم نستطع جلبه إلى الداخل. كان يضع إحدى يديه على جنبه ويهز رأسه إلى الخلف كإيماءة يريد بها أن يقول من بعيد، ما معناه أنه لا ينوي مشاركتنا في الفطور. كان يبتعد عن النافذة ويذهب صوب الباب الخارجي وكأننا سوف نذهب إليه ونرغمه على الجلوس معنا إلى الخوان. وفي تلك اللحظة تماماً رنَّ الهاتف في جيب خالي بصوت الصهيل. أخرج الهاتف من جيبه ونظر إلى الشاشة بضجر ثم تنفَّس بعمق وذهب بالهاتف إلى مقربة من أذنه وأخذ يصب جام غضبه على محدّثه بصوت قاس: «أين أنت يا هذا، أما زلت تتعفَّن في الزرائب؟ لماذا تأخَّرت!»، وتشدَّق بكلام آخر في وجه المقابل ولكنني لم أفهم ما كان يقول ولمْ أعدْ أتذكَّر ما كانَ يتطاير من فمه سوى الدخان الذي أراه، وكان ينفثه بلا هوادة.

من زاوية الزقاق المنحدر إلى الطرف النائي من المقبرة جاء (موسى) وهو يترنّح وكأنه يمشي على أنغام مزمار القربة[25]. جاء من فوره وراح يدقِّق النظر في درجات السلم الحجري، تارةً يميل بكامل جذعه إلى اليمين وتارةً إلى الشمال. سأل:

– ماذا سنبني هنا يا معلّم؟

25– آلة موسيقية هوائية من أقدم الآلات الموسيقية في التاريخ، تُعزف عن طريق النفخ فيها. تتكون من كيس جلديّ هو القربة مرتبط بعدة مزامير. مزمار ينفخ فيه العازف وفيها العديد من القصبات لضغط الهواء وإخراج الأصوات والتحكّم بها – المترجم.

فقلت له:

– يا موسى لنبنِ هنا منحدراً ليّناً غيرَ حادٍّ، يستطيع أبي أنْ ينزل منه بكرسيه المتحرّك ويصعد به دون الاستعانة بأحد.

– درجات السلّم هذه هل علينا إخفاؤها كلّها؟

– ليكُن – قلْتُ – يبدو لي أنه لا يمكن أن تبقى درجات السلّم كما هي أليس كذلك؟

– أجل – قالها موسى. لا يمكن أن يكون على شكل آخر. علينا أن نبدأ بتسليط المنحدر مع أصل الدرج الأول. إنْ لم نفعل ذلك سيكون الانحدار حادّاً جدّاً. كما يتوجَّب علينا أنْ نباشر ببنائه ببضع خطوات من الخلف.

– عليك ببنائه كما ينبغي – قلت لموسى – أنا لا أفهم في هذه الأعمال.

– أنا أيضاً لا أفهم في كتابة الروايات قالها (موسى) وهو ينظر في عينيَّ ويرسم ابتسامةً رقيقةً على شفتيه.

عندئذ قال خالي:

– ما يقوله هو الصدق – قالها وأخذ يربّت على ظهري، موحياً لي أنه يقدّر كتاباتي وكأنه قد قرأ رواياتي كلها.

ولّى (موسى) وجهَهُ صوب سوق البلدة وأخذ يتحدث بالهاتف إلى شخص ما طالباً إليه أن يقوم بتجهيزنا بالرمل والإسمنت. ثم قال علينا أن نسند الفراغ الموجود في أصل المنحدر بالأحجار قبل أن نصب خلطة الإسمنت والرمل. وهكذا بدأنا أنا و(موسى) بالتقاط الأحجار من هنا وهناك وتجميعها في أسفل السلّم، ثم انضم إلينا خالي ولحقته أمي. أخذنا نجمع الأحجار من كل الأرجاء. حينها جاء أبي زاحفاً باتجاه الباب الرئيس وأسند ظهره إلى دعامة الباب وجلس عند العتبة يراقبنا. لا بدّ أنه كان متلهفاً لمعرفة ماذا نحن فاعلون. وفيما كان أبي يتابعنا ومسحة من الحزن ترتسم على مُحيَّاه جاءتنا العمة (هجران) وانضمّت إلينا. ثم جاءنا (زبير) يعدو هو

وزوجته وأخت زوجته. بعد ذلك مرَّ بنا (جاويد) ورآنا فيما كان ذاهباً إلى البستان مع زوجته لتقليم الأغصان. أذاع (جاويد) الخبر فتبعه أخوه (بكير). حتى خالي (وقاص) البطين جاءنا وهو يزرّر مريلته المقلّمة بالأبيض يتبعه جميع أفراد عائلته. لم يمضِ وقت طويل حتى حضرت خالتي الوسطى مثل ريح لها جناحان أحدهما ابنها والآخر كنّتها. وهكذا رحنا نمسح الأرض وصولاً إلى أقصى ركن في الحديقة بحثاً عن الأحجار. ومن ثَمَّة انتقلنا صوب الجدار الخارجي. نجمع الأحجار صغيرها وكبيرها وننقلها إلى مقربة من السلّم. أما أبي فكان يراقبنا من مكانه في عتبة الباب، فوق السلالم. ويتفحّص جيّداً كل صخرة نضعها هناك. ينظر إلينا نحن الذين كنا نعمل تحت إمرة (موسى) لكي ننشئ الجسر الذي سيربطه بالحياة. جسرٌ بسيط ولكن معناه عميقٌ جداً. بلا شك أنه جسر سيوصله إلى الشمس. إلى ظلال الأشجار والأماكن المعشوشبة التي تضوع بروائح الزهور، إلى زقزقة العصافير التي تنطّ هنا وهناك. سوف يجول في أرجاء البلدة ويسلك شوارعها المزدحمة التي يمور فيها دخان المازوت المحروق الذي ينطلق من عوادم السيارات. إلى المقاهي ومناضدها المغلَّفة بنايلون المشمَّع، وإلى أقداح الشاي التي توضع عليها وإلى الأحاديث المتنوِّعة التي تدور حول تلك الأقداح. بدا أن الجميع كانوا على دراية بهذا الأمر حين انشدّوا إلى هذا العمل بكلّ ما أوتوا من قوّة.

بعد مرور وقت ما جاءت (كولفم) مع زوجها العم (أيوب) ووقفا جنباً إلى جنب لدى باب الحديقة. لون وجهها لم يكن كما كان في السابق. فقد تدهورت حالتها الصحية، وبدأ جسدها بالضمور حتى صارت عبارةً عن هيكل بشري هزيل يرتجف بين اثنين من العكازات. قلتُ لها:

- أين منكِ يا عمّة، كنت تمشين بعكازة واحدة قبل هذا؟

- آه أين تلك الأيام! - قالت بصوت واهن أشبه بخيط الدانتيلا: لقد ساءت حالتي يا ولدي. لم أعد أقوى على الحركة، ولا أقوى على المشي حتى بهاتين العكازتين.

- ماذا وراءكم؟ - قالها العم (أيوب) - لماذا تجمعون الأحجار وتكدِّسونَها هناك؟

قلت لهما:

- جئنا بكرسي متحرّك لأبي، وننوي عمل منحدرٍ له.

فرحا كثيراً عندما سمعا هذا الكلام، فشمّر العم (أيوب) عن ساعديه وراح يجمع الأحجار بهدف المساهمة في هذا العمل الخيِّر. طوى ركبتيه وأحنى ظهره وصار يتقافز من هنا إلى هناك كأي أرنب ولكنه كان أرنباً ذا «كاسكيتة».

أزجَتْ العمة (كولفم) بعض الوقت تنظر إليه وتراقب حركاته، ثم راحت إلى مقربة من السلالم بخطواتها العرجاء. وقفت هناك وظلت تنظر إلى الجوار بحزن. عندما شعر العم (أيوب) بذلك ترك الأحجار التي جمعها. رماها على الأرض وهرع إليها على جناح السرعة. ولكنه احتفظ بواحدة من الأحجار. نفخ عليها ليزيح الأتربة منها وراح يقدِّمها إلى زوجته كهديّة. كنتُ أراقبُهُما عن كثب، وهما يمثّلان أحداثَ مشهد، وإن كان يبدو بمثابة جملة قصيرة، إلا أنه كان مشهداً طويلاً. مشهدٌ حزينٌ فيه معاني دفينة تتوارى تحت سطح من غبار شفيف، يتجسّد أمام بصري مثل لوحة حواشيها مؤطَّرة بمشاغل الحياة اليومية. مالت العمة (كولفم) بوجهها الذي استنار أو يكاد يستنير وتقدمت بضع خطوات أخرى ثم تلكَّأتْ في مشيها. سحبت نفساً عميقاً، ملأتْ صدرَها بالهواء. بعدها نقلت خطوة أخرى ثم توقَّفتْ ووضعت الحجارة التي كانت بين أصابعها على الأرض جنب السلالم. وبصوتها الذي بدا أنه ينصهر ويسيل ذائباً قالت:

- هاك انظرْ يا (عزيز) أنا أيضاً جئتُ بحجارة.

من خلف متسلّقات البرقوق والعنب المتشابكة أغصانُها أومأ أبي برأسه مراراً دلالةً على امتنانه لها. ومن بعد ذلك عاد إلى صالة الضيوف وهو يمسح عينيه بظاهر كفِّه.

قضى (موسى) سحابة يومِه في العمل وهو يزيح أوراق العنب

والبرقوق عن وجهه. تارةً يدفع بأغصانها يميناً وأخرى يدفعُها شمالاً. وفي بعض الأحيان كان يرفع رأسه من مكانه الذي يقبع فيه لينظر إليها بغضب. حتى قال أخيراً:

- يا معلم! النباتات هنا تعيق حركة المرء. كيف سيمرُّ الكرسيّ، كيف ينزل وكيف يصعد؟ أنا أفضّل أن نقوم بقطع هذه الأغصان يا معلّم!

- المعلم الكبير جالس هنالك انظرْ... إن أردت ذلك فاسألْه! قلت له وأشرتُ إلى أبي.

بالطبع لم يوافق أبي على قطع تلك الأغصان كما في كل مرة، رفع رأسه دلالة على رفضه. قال لموسى:

- لا يا ولدي لا، كيف تقطعها كيف؟ إنها لا تضرّ أحداً.

فأذعن (موسى) لكلام أبي وثنى رقبته، ثم انتهى من عمله وقال:

- سوف يجفّ هذا غداً نحو الظهر. إلى ذلك الحين أرجو ألّا يطأَهُ أحد.

وفي اليوم الثاني بعد الفطور كان المنحدر جاهزاً فقلت لأبي: «هيا دعنا نجرب هذا الكرسي، وننزل به إلى السوق». إلا أنه أبى أن يمتثل لكلامي. أخذ يدمدم في الكلام، ولم يصغِ لكلام أحد. لم يأبه حتى لكلام والدتي. بل أخذ يردِّد بسرعة: ليس وقتاً مناسباً الآن، ليس الآن! وهو يحرك يده مثلما فعل عندما وصلنا إلى (جومو).

وفي اليوم الثالث عندما ذهب إلى الحمام زحفاً على بطنه كأنه طفل ذو شعر أبيض. وفي طريق عودته وقف في صالة الضيوف ونظر إلى الكرسي المركون جانباً من تحت حاجبيه. وفي اليوم الذي يليه تصرَّف بنفس الطريقة عندما عاد من الحمام، ولكنه لم يمر بالكرسي مرور الكرام وحسب، بل توقف عنده. لا بد أن الكرسي قد جذب اهتمامه. وبعد أن أطال النظر فيه وعاينه ملياً سحب نفساً عميقاً ثم قال: «إيه... أين هو مقوده؟». أريته ذراع القيادة المثبت عند مسند اليد اليمنى من

الكرسي وقلت: «هذا هو المقود». لم أكتفِ بذلك بل رحت جالساً إلى الكرسي واختبرته أمام أنظاره. وضعت مؤشر السرعة على السرعة البطيئة وبدأت أتحرك بالكرسي إلى الأمام وإلى الخلف، إلى اليمين والى اليسار. راقبني وأخذ يحرك رأسه وكأن به يقول: «كفى كفى... رأيت ما فيه الكفاية». ثم توجّه إلى غرفته وهو يحبو والعرق يتفصَّدُ على جبينه. وبالكاد استطاع أن يبلغ عتبة الغرفة وهو يلهث ويتأوَّه. هناك دفن وجهه في الوسادة المطرزة بالنقوش وظل يتنفس بعمق ليسترد أنفاسه. فتلاشت صورة وجهه بين نقوش الوسادة.

– هكذا هي المسألة يا ولدي! إذا ذهبنا إلى الحمام مرتين وعدنا على هذا المنوال البطيء لانقضى نهارنا وداهمَنا المساء.

ذهب أبي إلى السرير وكأنه يزحف على بطنه، مسك طرف الفراش بيده وأراد أن يرفع جسمه للصعود إلى فوق فلم يقدر. ثم أعاد الكرّة بأن راح إلى ساقه اليمنى التي شلّت تقريباً وسحبها من مرفق الركبة بيده ووضعها فوق، في محاولة أخرى لرفع جسمه والصعود إلى السرير فلم ينجح، وظلَّ يتلكَّأ على حافة السرير. «هيه يا (عزيز) أفندي كأنك حمّلت شاحنتك من (آدنة) وتسير بها تريد أن تتسلّق جبال طوروس»، قالها وهو يضغط على أسنانه من شديد غيظه. ثم رفع رأسه إلى السقف وقال بصوت واهن: «يا ربّ لا أدري ماذا اقترفتُ من ذنب كي تذيقني كل هذا العذاب؟ هيه قل لي ماذا جنت يداي؟». حين نطق بكلماته هذه كانت دموعه قد بدأت تنهمر. والدتي هي الأخرى كانت تبكي معه سوية وهي تسند ظهرها إلى الحائط خلف الطباخ الذي لم يزحزحه أحد من مكانه لا في الصيف ولا في الشتاء. ثم واصل أبي مناجاته مع ربّه قائلاً: «يا ربّ إنْ كنت تريد الانتقام مني فما ذنب أهلي هؤلاء! لِمَ تأخذهم بجريرتي؟».

لم أستطع تحمل أكثر من هذا فرحت إليه ووضعت يدي على كتفه وقلت:

– هيا يا أبي لأساعدك أنا.

ولكنه رد يدي التي امتدت إليه، كما كان يفعل في كل مرة. قالت أمي بنبرة فيها تشكّي وهي تذرف سيلاً من دموع حرى:

– ألا تراه يا ولدي! لا يسمح لأحدٍ أن يلمس ولو شعرة في جسمه. عندما تلمس أي مكان في جسمه يتوجع.

فقال أبي وهو يزمجر:

– يا ناس يبدو أنكم لا تفهمون الكلام! أشعر بالألم في كل وصلة من أوصال جسدي.

وبعد جهد جهيد تمكن من إلقاء نفسه على السرير. استند بظهره على الوسائد هناك والتفت صوب النافذة التي كانت إلى يساره وراح يتأمل المرتفعات الصخرية التي كانت تأتلّق تحت أشعة الشمس. لا أدري لماذا طفق يسكب الدموع، هل لأنه استصعب رؤية ابنه له وهو يحبو ويزحف على الأرض، أم أنه تذكّرَ سني شبابه التي قضاها على سفوح تلك الصخور. لا أدري ولكنني رأيته ينشج في بكائه وقد تبلَّلتْ أجفانه وصار صدره مثل منفاخ الحدّاد، يمتلئ ثم يفرغ، يصعد وينزل. حينئذ دنت والدتي إليه بتؤدة وأخذتْ بطرف البطانية وغطَّتْه بها.

مكثت في البلدة بضعة أيام أُخَر وأنا أقول لنفسي: «عسى أن يرضى باستعمال الكرسي فأمدّ له يد العون في ذلك»، إلا أنه لم يقترب من الكرسي طيلة بقائي هنا.

في اليوم السادس اضطررت إلى العودة إلى (أنقرة).

-7-

بعد عودتي إلى (أنقرة) صرت أخابر (دنيزلي) كل يوم لأسأل عن أبي. إن كان قد بدأ باستعمال الكرسي أم لا؟ وبعد مضي أسبوعين قالت أمي وهي تكلّمني على الطرف الآخر من خط الهاتف:

– لا يا ولدي! لقد نسينا أمر الكرسي، وهل بقيت لأبيك القدرة على رؤية الكرسي!؟

– ماذا حصل؟ – سألت.

– آه يا ولدي! – قالت أمي – لقد أقلع أبوك عن الأكل والشرب تماماً، وأصابه الهزال حتى صار جلداً على عظم. فإذا أراد أنْ يأكل شيئاً لأكَل بقدر ما يأكل الكتكوت. أنا يا ولدي بالنسبة إليَّ أفضّل أن نعرضه على الأطباء، لا من أجل مشيه بل من أجل أكله. ليعالجوه كي يعود إلى الأكل والشرب في الأقل.

قلت لها:

– حسنٌ لنعرضْه.

بعد ذلك اتصلت بالمستشفى الحكومي في (دنيزلي) واستحصلت موعداً له، ثم اتصلت بأخي (نهاد) الذي يعيش في (تاواس) وأعلمته باليوم الذي سنكون فيه هناك في المستشفى لكي يحضر معنا.

وهكذا خرجت لوحدي نحو الظهر إلى الطريق متوجهاً صوب (دنيزلي). خرجت هذه المرة قبل يوم واحد من الموعد المقرّر. أخذت معي أحد المؤلفات التي كتبت عني، ظناً مني بأنني ربما سوف أجد

متّسعاً من الوقت للقراءة. وفي الطريق وصولاً إلى (آفيون) شغّلت المسجل بشكل متواصل ودون انقطاع، واستمعت إلى تسجيلات المطرب (طالب أوزقان)[26] بدءاً بأغنية (يهطل المطر). كانت قيثارة المعلم (أوزقان) تجوب تضاريس روحي، أما صوته فكان يحلق فوق الجبال، يلامس الهضاب ويتردد رجعه في الوديان ويختلط مع خرير الجداول. وبعد أن وصلت إلى (آفيون) استغرقت بعض الوقت أستمع لأغاني (أرجووان)[27] وبينما أنا كذلك خيّلَ لي أنني أنهض من مكاني من خلف المقود وأجوب القرى الموحشة التي تأتلق تحت ضوء القمر. أمرّ بصبايا لم يخضّبن أكفّهن بالحنّاء منذ سبعة أعياد. يفترشن الظلال في فناءات البيوت. كأن بي ألتقط أنفاسي عند المروج، أتنفس السهول التي تعرف كيف تغمر الإنسان بجودها وكرمها، أهيم في البراري أجمع أزهار البنفسج، أسبر أعماق المحيطات والبحار والأنهر ثم أخرج لأتطلع إلى النجوم المتلألئة في جوف الليل. بعد أن انتهت أغاني (أرجووان) أعاد (خليل زارالي) الكرة وبدأ يلعب دوره من جديد. وبصوته الرخيم -

---

26- طالب أوزقان: ولد في دنيزلي (1939) وتوفي في أزمير في العام 2010، مطرب يهتمّ بالغناء الشعبي التركي. عمل في إذاعة (أنقرة) ثم انتقل إلى إذاعة اسطنبول. بعد عشرين سنة من الخدمة في دار الإذاعة التركية (TRT) سافر إلى فرنسا، وأقام في باريس ليعمل كمدرّس في كونسرفتوار باريس. وفي الوقت نفسه واصل دراسته العليا وعمل رسالته في (علم الموسيقى الإثنية) - العلم الخاص بموسيقى الشعوب أو الجماعات العرقية - لنيل الدكتوراه. وبعد سنوات من إلقاء محاضراته في المعهد العالي التابع لجامعة روتردام أحيل إلى التقاعد. توفي في العام 2010 في مدينة إزمير التركية - المترجم.

27- بلدةٌ من أعمال محافظة (ملاطيا) تقع في الشمال الغربي من مركز مدينة ملاطيا. جوُّها بارد قارس في الشتاء وحارّ في الصيف. تعاني من الجفاف في موسم الصيف. أراضيها وعرة غير صالحة للزراعة، ما عدا فسحة ضيقة إلى الجنوب تمتد من بين المرتفعات الصخرية لتتصل بسهل ملاطيا. أغلب نباتاتها برية تتجذب مربِّي الأغنام والماعز. عرفت (أرجووان) بأغانيها الحزينة حتى أنها اقترنت بالحزن. فعندما تقول أغنية من أرجووان أو أغنية أرجووانية فذلك يعني أنّ الأغنية من النوع الحزين - المترجم.

الذي بدا كأنه دخان كثيف تبرق فيه ومضات طفولية تتولّد من رحم الهجر، وتصب في قلب الوحشة - بدأ يغني أغنيته: «أيها الحمّامِيّ أيُّ الجميلات يأتين إلى هذا الحمّام».

في أثناء ذلك كنت قد اجتزت أماكن الاستراحة المزدحمة بالباصات والمسافرين، واقتربت إلى (صانديكلي) أضغط على دواسة البنزين لمواصلة طريقي في الشارع الصاعد أمامي. في كبد السماء، فوق نهاية الشارع كانت هنالك غيوم ناصعة البياض تتلبَّد مثل قطنٍ منفوش. بياضُها يبهر العين، فيشعر الإنسان بألم في جبينه. بعد أن اجتزت هذه المنطقة انتابني القلق بطبيعة الحال لأنني وصلت إلى مكان صرت فيه بمحاذاة بناية المعهد المهني. وكنت أجول ببصري في الجوار. وبينما أنا على هذه الحال أنظر هنا وهناك بطرف عيني وإذا بشاحنة تجتازني مسرعة، تهزّ الأسفلت هزاً، وتنطلق كالسهم ثم تختفي في لمح البصر مخلّفة من بعدها دخان مازوت ورائحة مطّاط محروق. وبعد أن تبدَّدت غيمة الدخان وولّت الرائحة لم يظهر الحصان على الرغم من أنني صرت على قاب قوسين أو أدنى من بناية المعهد. فواصلت المسير وأنا أرسم نصف دائرة واسعة في المنعطف القريب. حين وصلت إلى ذلك المكان حيث يصطف باعة البطاطس والبصل الذين كانوا يفترشون الرصيف، كنت قد اجتزت بلدة (صانديكلي). بدأت بتشغيل أغنية: «لم أعانق الحبيبة حين كانت الفرصة سانحة، فلا تضربني ضرباً مبرحاً وحسب بل اقتلْني»، لـ(خليل زارالي)، ثم أبدلت ناقل الحركة إلى رقم خمسة وزدْت من سرعة الشاحنة. ففي أثناء انطلاقتي هذه ظهر الحصان على قارعة الطريق في لمح البصر. ظهر كما لو كان ومضة برق مفاجئ ضربت الأرض، لا أعرف كيف ومن أين خرج الحصان! حتى خيل إليّ أنه هبط من السماء أو خرج من باطن الأرض في آن معاً. أو لكأن الأرض صارت شفة سفلى والسماء تحولت إلى شفة عليا فاجتمعتا وبرز إلى الوجود فم. ثم انفرجت الشفتان وفتح الفم قليلاً ليخرج الحصان من بينهما. وما إن خرج حتى بدأ يشرئب ويطلق الصهيل بمرارة. راح يعدو بكل

ما أوتي من قوة ليلحق بي كما هو دأبه في كل مرة يظهر فيها. وفي كل مرة كان يقترب إلى (دنيزلي) لذلك لم أضغط على دواسة البنزين أكثر من المعتاد. لم أزد من سرعتي بل واظبت على السير بسرعتي المعتادة وهكذا ظل الحصان يتبعني غير آبه بالمرتفعات والمنعطفات كأنه ضياء مجنَّح ظلّ ملازماً لي حتى بلغت سفوح جبل (مايمون) وما إن وصلنا إلى (جارداق) حتى رفع الحصان قائمتيه الأماميتين فجأة واختفى.

عندما وصلت إلى البلدة كان أبي يتّكئ إلى الحائط وخلف ظهره وسائد عديدة، وقد تحوّلَ إلى هيكل من جلد وعظم. دخلت عبر الباب فانتبه وكأن الحياة دبَّتْ في بدنه. سألتُه كيف حالك يا أبَتِ؟ قال:

– كيف يكون حال من هو مثلي يا ولدي! – قالها وأشار إلى الأدوية المكدّسة بالقرب من وسادة رأسه – لقد تحوّلت إلى مجرشة لطحن الحبائب. أطحن بلا هوادة.

لم أستطع التفوُّه بأي كلام. جلست إلى الكنبة وأنا غارق في اليأس على نحو لا يوصف.

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا أنا ووالـداي قاصدين (دنيزلي) فوجدت أخي ينتظرنا على الرصيف قبالة المستشفى الحكومي وقد جلب كرسياً متحرّكاً من الداخل. تكاتفنا نحن كشقيقين على حمل أبينا فأنزلناه من السيارة على وجه السرعة لئلّا نتسبب في إعاقة حركة المرور. وفيما أرسلتهم ليدخلوا إلى المستشفى رحت أبحث في الأزقّة الجانبية عن مكان ملائم لأركن سيارتي. في تلك الساعة من ذلك اليوم كان الجو حارّاً خانقاً، يخال المرء أنّ المحيط كلّه يشتعل. والإسفلت في الشارع على وشك الانصهار، يفور ويمور على نحو ما، بحيث يمكن رؤيته بالعين المجردة، يكاد يتبخر ويتلاشى من شدة الحر. بعد أن قضيت وقتاً في التجول في الأزقة بحثاً عن موقف للسيارات لكي أركن فيه سيارتي اهتديت إلى قطعة أرض سُوّيتْ وسُيّجَتْ بالطوب الإسمنتي، واتُّخِذَ منها موقفٌ خاص للسيارات. عُدت أدراجي مشياً على الأقدام. قبل أن أدخل

المستشفى وقفت تحت شجيرات الأكاسيا ودخّنت سيجارة أولاً، ثم أخذت أسترق النظر إلى بناية المستشفى من وراء سحابة الدخان الذي رحت أنفثُه. بعدها بدأتُ أنظر إلى البناية بحميميّة وكأنني ألتقي صديقاً قديماً. حين كنت في الثامنة من عمري وبسبب دملة ظهرت في قفاي أُدخلتُ إلى المستشفى. رقدت في هذا المبنى لمدة أربعة أيام. تكاد الردهات تتصدع من شديد صراخي الذي كنت أطلقه في أثناء تضميد جرحي. أما مرافقتي في المستشفى المرحومة جدتي، أم أبي، فكانت تردد دوماً: «أنت هزيل يا ولد! عندما تكبر ربما ستكون طيّاراً». حين أنتظر دوري للذهاب إلى غرفة التضميد كنت أعشّش طوال اليوم عند نافذة غرفتنا مثل عصفور شُدَّ رأسُه بعصابة. ومن خلف الزجاج أراقب بوابة المستشفى بعينين حزينتين، أعدّ الداخلين عبر باب الحديقة واحداً واحداً. وفي الحقيقة كنت أنظر بلهفة لعلّني أرى أبي بينهم. ما إن أودعنا أبي المستشفى حتى غاب عنا. سافر إلى (بورصا) لكي يشرف على تحوير الشاحنة الصغيرة التي اشتراها، وكان يهدف لتحويلها إلى (ميني باص).

وفي مرة أخرى حين كنت أعمل مع أبي معاوناً[28] في الميني باص جئنا إلى المدينة لكي ننقل جثمان واحد من قرويّينا. مات هنا في المستشفى. طلب إليّ أبي أن أمكث في السيارة لأنني كنت صبياً طريّ العود. حذرني بألّا أنزل من السيارة وألّا أتدخل في الأمر. قال لي: ابقَ جالساً هنا في السيارة ولا تنزل قطّ. بعد أن انتظرت قليلاً لم أستطع مقاومة فضولي ففتحت الباب وترجّلت بخفة. جاءت ثلّة من العاملين في المستشفى يرتدون بذلات زرقاء يحملون بصمت تابوتاً طويلاً كأنه زورق. عندما اقترب أبي بسيارته رفعوا التابوت بصمت أيضاً. حين رفعوا التابوت ليوصلوه إلى مستوى سقف السيارة انحسرت بذلاتهم الزرق فانكشفت أذرع بعضٍ منهم إلى الرسغين وأجزاء من أجسام بعضهم الآخر. كأنهم كانوا عراة تحت بذلاتهم. دُهشت عندما رأيت عريهم. ظهر ثلاثة رجال آخرين مع أبي فوق سقف السيارة، لا

28- معاون السائق في سيارات الأجرة. (سِكِنْ) باللهجة العامية العراقية - المترجم.

يتكلّمون قط. ساعدوا أبي في تلقّي التابوت الثقيل المصنوع من الخشب الطبيعي، وفي وضعه إلى جانب السلال والأكياس التي كانت موجودة فوق السقف. ثم أحكموا شدّه بالحبال. كانت هنالك امرأة كهلة ذات برقع أبيض. ربما هي من أقرباء المتوفي. كانت تضم وجهها بين راحتيها، تكتم صوتها لكيلا تزعج الآخرين. لم يندّ عنها أي كلام سوى أنها كانت تتأوّه قائلة: آه (محمد)ي، أوآه يا (محمد)ي! وكان الصوت أشبه بطنين النحل منه بالبكاء. لم ترفع برقعها إلا عندما أرادت أن تلقي نظرة إلى التابوت حين رفعوه إلى أعلى. راقبت الرجال الثلاث فوق سقف السيارة دون أن تأتي بأية حركة. ظلت تشيع التابوت بنظراتها وكأنها كانت ستتلقفه كي تمنع سقوطه إذا ما انزلق من بين أيدي الرجال. أوعز إليها أبي أن اصعدي. قال لها: هيا نحن ذاهبون! فصعدت لتأخذ مكانها في أحد المقاعد في آخر الباص، ومنذ بدء الرحلة وحتى وصولنا إلى البلدة لم تأت بأية حركة سوى أنها رفعتْ رأسها ونظرت ثلاث أو أربعَ مرات إلى أعلى، نحو سقف السيارة. يومها لم ينبس أحد من المسافرين ببنت شفة، ولم يفتح أي واحد منا فمه. حتى أبي لم يتفوّه بأي كلام.

أطفأتُ سيجارتي ودخلتُ المستشفى بخطى مسرعة.

قضينا وقتنا كما في كل مراجعاتنا نهرول على طول الردهات الطويلة الضيقة المزدحمة التي تخيّم عليها همهمة مكتومة، ندفع الكرسيَّ ذا العجلات الذي يجلس عليه أبي ونحن نتنقّل به من مختبر إلى مختبر. ربما كنا نشق طريقنا عبر الصخب في الردهات ونمرّ من بين تلك الصرخات التي أطلقتها أنا هنا في المكان نفسه قبل سبعة وأربعين عاماً. حصلنا على رقم تسلسل لمراجعة الطبيب وانتظرنا متى يأتي دور أبي. التقطوا له صوراً شعاعية وتبرّعنا بأكياسٍ من الدم، ولكن مهمتنا لم تنتهِ، لأننا اضطررنا إلى العودة إلى البلدة. رجعنا في اليوم التالي منذ الصباح الباكر لنعيد الكرَّة في المراجعة، أملاً في تسلّم نتائج الفحوصات والتشخيص. وهكذا عشنا القلق نفسه. جلسنا هنا وهناك ظناً منّا بأننا سوف نتسلّم

نتائج الفحوص المختبرية. طال انتظارنا إلى وقت العصر. خرجنا فيه إلى الحديقة، جلسنا في ظلال شجيرات الأكاسيا[29]. وعلى الرغم من أننا كنا نراجع كل ساعة إلا أننا لم ننجح في الحصول على جميع التقارير ونتائج التحاليل لعرضها على الطبيب المختص. بينما كنا جالسين في الحديقة راح أخي (نهاد) وقابل الطبيب، ثم عاد ليقول لي: يا أخي الكبير لا تجلب أبي غداً، لا داعي لذلك. أنا سوف أتسلّم النتائج وأعرضها على الطبيب. وهكذا عدنا نحو المساء إلى البلدة، تاركين أخي (نهاد) في (دنيزلي) لأنه سوف يذهب إلى (تاواس). لقد تجشّم أبي عناءً كبيراً خلال اليومين الماضيين، وقد نال التعب منه. فكان أن انطفأ بريقُ عينَيه وغام بصره.

في اليوم التالي اتصل (نهاد) بيَ هاتفياً. أجبته «ألو!»، فطلب إليّ بصوت خفيض أن أذهب إلى الخارج إن كنت داخل البيت. نهضت من فوري وبيدي هاتفي. انتعلتُ خفّاً وخرجت. توقّعتْ أنه سينقل إليَّ خبراً سيئاً لذلك انتابني الخوف.

- حصلت على نتائج التحاليل يا أخي وذهبت بها إلى الطبيب. قالها بصوت حزين.

- أي نعم! - قُلت - ماذا كان التشخيص؟

- الليمفوما! - قال (نهاد)[30].

29- الأكاسيا: اسم مجموعة من النباتات تُسمَّى أيضاً (بالميموسس) تنمو وتتكاثر في معظم الأقطار الدافئة، ويندر أن تنمو في المناطق الحارة الجافّة، لكنها من الممكن أن تنمو وتصبح شجرة ضخمة الجذع في الأقاليم ذات المياه الوفيرة. ينمو الأكاسيا بسرعة لكنه لا يعمِّر طويلاً - المترجم.

30- الليمفوما: سرطان الغُدد الليمفاوية أو ورم الغدد اللمفاوية أو الليمفوما أو اللِمفُومة: هو مجموعة أورام خلايا الدم التي تنشأ من (الخلايا اللمفاوية) الموجودة في الجهاز اللمفاوي حيث تشكّل هذه الخلايا ما يعرف بالشبكة البطانية، وكثيراً ما يشير هذا الاسم إلى الأنواع السرطانية من هذه الأورام. وتشمل العلامات والأعراض المُصاحبة لهذا المرض: تضخّم العقد الليمفاوية، والحمّى، والتعرّق الغزير خاصة بالليل، بالإضافة إلى فقدان الوزن، والحكة، والشعور بالتعب. ولا يصاحب المرض أي آلام - المترجم.

كلانا صمتنا لبعض الوقت.

- حسناً - قلتُ بعد برهة من الصمت - أعتقد أن هنالك أنواعاً من الليمفوما! فأيُّ العقاقير سيقترحها الطبيب؟ أم أنه سيلجأ إلى العلاج بالجرعات الكيمياوية؟[31]

- لا يا أخي! للأسف لم يوصِ الطبيب بأي دواء. بل قال لا تتعبوا مريضكم أكثر من اللازم. خذوه إلى البيت كي ينعم بالراحة.

انتابتني الحيرة. لم أعرف ماذا أقول. أدرت رأسي يمنة ويسرة كمن يبحث عمن يسدي لي العون. ولا أدري لماذا تعلّقت نظراتي بشجيرتي العنب والبرقوق اللتين تعرشان على مدخل بيت العائلة. وما إن أدرت رأسي أكثر صوب الشمال حتى تعلّقت نظراتي بشجرة الجوز الباسقة وسط الفناء في منزل خالي (عزت).

- هل تعني أنه ليس لنا سبيل آخر لإنقاذه. قلت لأخي (نهاد): هل وصلنا إلى طريق مسدود حقاً؟

- ليس لدينا حل آخر. قال (نهاد).

بقيت أجول في الخارج أمام البيت وبيدي هاتفي.

- نهاد! قلت: ليبقَ هذا سراً بيننا، أنا وأنت فقط! لا تخبرْ الوالدة.

- أنا أيضا من رأيي أن نفعل هكذا - قال (نهاد).

حين دخلت إلى البيت كان أبي قد أدار وجهه وهو ينظر باتجاه الباب. سألني:

- لماذا ذهبت إلى الخارج؟ ولمْ تتحدثْ معه من هنا؟

- تحدّثت إليه وفي الوقت نفسه دخَّنتُ سيجارة يا أبي.

- حسناً! ماذا كان رأي الطبيب؟

- يقول ليس هنالك ما نخاف منه يا أبَتِ، سوى انعدام شهية مؤقّت. وما هي إلّا عشرة أيام حتى يعود إلى سابق عهده.

31- العلاج بواسطة الجرعات الكيمياوية - المترجم.

قضى أبي بعض الوقت يحدّق في وجهي بعينين جامدتين، من دون أن يرفّ له جفن، ثم هزّ رأسه بلطف. في اليوم التالي ظننت أن أبي انقطع عن الطعام والشراب لئلا يذهب إلى الحمام بشكل متكرّر. وفكرت أنه لا يتصرف هكذا بشكل مقصود، قلت في نفسي إنه ربما لا يقوم بذلك عن دراية. بالطبع لم أتحدث معه بشكل مباشر عن هذا الأمر، ولكنني اقترحت عليه أن نغيّر غرفة نومه. طبعاً بعد أن كسبت أمي إلى جانبي.

– إلى أين تقول، إلى أي غرفة؟ – سألني أبي.

– لننقلك إلى الغرفة الأخيرة في الطابق الأرضي، قلت هذا بصوت ناعم. وهي قريبة إلى الحمامات، تذهب وتؤوب بسهولة.

مال إلى الخلف وهزَّ رأسه علامة على رفضه الفكرة. قال:

– لا! تلك الغرفة لا تلائمني يا ولدي. لا أقبل بذلك قطعياً. فأيّ الأماكن يمكنني رؤيتها من هناك؟ هل كُتِبَ عليَّ أن أظلَّ أنظر إلى الحائط المشيَّد في بيت خالك (عزت) وأن أعدّ قطع القرميد طوال نهاري؟ هنا مكان ملائم لي، فإذا انقلبت على شمالي رأيت الجبال، أما إذا نظرت من خلال النافذة الأخرى لرأيت كل المارّة الذين يسيرون عبر الزقاق.

– أنت محق في هذا – قلت له.

في الحقيقة كان أبي محقاً بجَد، ففي النافذة التي تقع على شماله كانت هنالك جبال تعانق السماء رائعة المنظر. أما النافذة الأخرى فقد كانت مطلّة على زقاق مزدحم يمرّ عبره الناس طيلة النهار. كما تمر منه الأغنام والماعز. والحمير المحمَّلة بالحطب. بالطبع كانت تنعكس على هامات أولاء المارة ألوان تأتي من بعيد، تلاحقها ظلال وروائح وومضات مؤتلقة. بالنسبة إلى أبي كانت البلدة حاضرة هنا بكل حيويتها. تتجسد الحياة بكل عنفوانها، هناك في الخارج. تسيل بنسق واحد كما هي في كل آن. وكل هذه الأشياء تصب في رافدين يتدفقان يمنة ويسرة من كلا النافذتين.

حين تأكد لي بما لا يقبل الشك أن اقتراحي هذا كان غير ملائم وليس في محلّه، فكرت بحلول أخرى لعلني أكون بلسماً شافياً لمعاناة أبي. أخذتُ أسرع في حركاتي. ذهبت إلى السيارة فنادى بي خالي (حسين):

– إلى أين يا ابن أختي؟

ظهر لي خالي من عطفة الزقاق النازل إلى الوادي المحاذي للمقبرة. كان يمشي مقبلاً عليَّ يحمل بين أصابعه مسبحته التي يشع ضياء حباتها الصفراء.

– هيا تعال معي لنتجول في البلدة – قلت.

فجاء على الفور وجلس حذوي في المقعد الأمامي. جلس راسماً ابتسامة مائلة على طرف شاربه. فأدرت محرك السيارة وخرجت به صوب (دنيزلي) ولكنني بعد مرور وقت قصير شعرت بالندم لأنني قررت اصطحابه. فقد كان هاتفه الجوال يرنّ بين اللحظة والأخرى بصوت صهيل الحصان. وكلّما رنّ الهاتف تناوله بتنهيدة عميقة ونظر إليه بحزن وانكسار. بطبيعة الحال كلما سمعت الصهيل يتصادى قريباً مني اقشعرّ بدني، وانتابني القلق والارتباك. أكاد أفقد صوابي فلا أجرؤ على النطق بأية كلمة، أو الالتفات إليه خشية أن يظن أنني إنما أفعل ذلك لأنني أستخفّ بكثرة تعلّقه بحصانه. ومن محاسن الصدف أن رحلتنا هذه لم تدمْ طويلاً، إذ ذهبنا إلى (دنيزلي) على عجل. لم نتأخر هناك سوى أنني اشتريت مقعداً يستعمل كمرحاضٍ متنقل. عدنا على الفور ووصلنا بعد ساعتين.

عندما وقع بصر والدتي على المرحاض المتنقّل قالت:

– قل لي يا ولدي! برأيك هل يستطيع أبوك استعمال هذا الشيء؟

– ما الفرق بينه وبين المرحاض الغربي؟ – سألت والدتي وشرحت لها كيفية استعماله.

رفعتْ أمي إحدى يديها إلى ذقنها ونظرت إلى هذا الشيء بريبة

وامتعاض وكأنه قطعة نجسة. أو لكأنني جئت بشيء نجس يحرّم إدخاله إلى البيوت.

– يا أمّاه! يذهب أبي مرات عديدة في اليوم الواحد إلى الخلاء الكائن في الطرف القصيّ من المنزل. يزحف في ذهابه وإيابه ويتألّم كثيراً. انظري! تحتفظين بهذا المقعد في الحمام. وعندما يريد أبي قضاء حاجته تأتين به إلى الغرفة. تضعينه لصق فراشه، وبعد ذلك تعيدينه إلى الحمام. أليس هذا أسهل؟

قالت أمي:

– إذا دخل علينا أحدهم في أثناء ذلك، ماذا سيحدث هيه؟

– الصبر يا الله! هتفت بحيرة، تقفلين الباب يا أمي وتسدلين ستائر الغرفة.

أدارت أمي رأسها صوب الباب واسترقت النظر في ذلك الاتجاه مخافة أن يكون أبي قريباً من هنا فيسمعنا ويعاتبنا.

– نحن يا ولدي لم نغلق أبوابنا يوماً من الداخل – قالت وكأنها تتحدث بينها وبين نفسها – تعرف ذلك جيداً بأن مفاتيحنا موجودة في أقفالها على الأبواب. فمن يأتي إلينا يفتح الباب ويدخل.

في أثناء ذلك صاح أبي من الداخل:

– أَيُّهَؤلاء، ما هذه الثرثرة؟

مشت والدتي وراحت تغذُّ السيرَ صوب الغرفة.

– يا أمّي، همست لها: دعيني هنا الآن، ربما سوف يشعر أبي بالخجل من وجودي. ادخلي أنتِ واشرحي له مسألة المرحاض المتجوِّل.

فأومأتْ برأسها أنْ لا ضيرَ سوف أتولَّى الأمرَ بنفسي.

في اليوم الثاني بعد الفطور الصباحي اتَّكأَ أبي إلى الخلف وأطالَ النَّظر عبر النافذة المطلَّة على الزقاق. كأنَّه كان ينتظر قدوم أحدهم، أو كأنه يشعر بالاندحار بسبب عجزه عن المشي. وفي بعض الأحيان كان يبدو أنه يحدِّق إلى مكانٍ بعيد إلى بؤرة مجهولة تكوَّرتْ خارج الزمن.

- ذاك الولد أليس هو (جاويد)نا؟ - قالها وهو يمطُّ رقبتَه إلى أمام.

أنا وأمي التفتنا إلى الاتجاه نفسه معاً.

- لا بل هو الأصغر من (جاويد)، إنه (بكير) - قالت أمي.

في أثناء ذلك ظهر (بكير) وكان يجرجر حماره من رسنه. مرّ عبر الزقاق وغاب عن الأنظار، ففرغت النافذة. التفت إليَّ أبي وقال:

- شغلناك عن عملك يا ولدي.

فقلت له:

- لا تفكّر هكذا يا أبَتِ.

هزَّ رأسه وعلامات الرضا ترتسم على مُحيَّاه.

بعدها نهضتُ من مكاني، ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى. انكفأتُ على وجهي على إحدى الكنبات ورحت أقرأ في الكتاب الذي جلبتُه معي.

كنّا قد تعارفنا مع مؤلِّف الكتاب قبل ثلاث سنوات. إنه شابٌّ ذو لحية حمراء. أكاديميّ يدرّس في إحدى الجامعات. وفي الوقت نفسه ينشر كتاباته النقدية في المجلّات الأدبية. استعان بواحد من معارفي ليلتقي بيَ فالتقينا نحن الثلاثة في أعالي (تشانقايا) في مطعم كائن في شارع (أرجنتين). كان الجو بارداً معتدلاً في تلك الأمسية، يجول بين أقدامنا حفيف أوراق صفراء. أحاديثنا التي تجاذبناها في حديقة المطعم هي الأخرى كانت تلعب بها الريح، حتى أن النسائم ذهبت بنصفها تقريباً حاملة إياها إلى بعيد.

وبعد أن تراءت لنا تُمَالات كؤوسنا الفارغة كان حديثنا قد تشعَّب حتى استقرت وجهة صديقنا الأكاديمي على كتاباتي، وأخذ يكشف عن نواياه في عمل دراسة رصينة عن أعمالي وعن حياتي. قال: «أتمنّى أن تتفهَّموا أسباب إصراري على إجراء حوارات مطوَّلة معكم وأن تدركوا هدفي النبيل في الاستعانة بأرشيفكم، وأن تتحمَّلوا أسئلتي التي سأوجِّهها إليكم. كل ذلك من أجل أن يظهر العمل على نحو لائق». وعلى الرغم

من أنه كان شخصاً على درجة كبيرة من الوقار إلا أنه كان يشعر بالحرج إزاء طلبه هذا. وبعد أن أجرينا مناقشات مطوَّلة وتعرَّفتُ على شخصيته أكثر فأكثر، وقُيِّضَ لي كذلك أن أتعرف على بعض التفاصيل قبلتُ بطلبه. وقد فرح كثيراً بقراري هذا. تجلَّى ذلك الفرح في حركات يديه حتى أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل بهما. فأخذ الكأس التي كانت على المنضدة أمامه، وصار يقلبها بين يديه ذات اليمين وذات الشمال بشكل لا إرادي. ففي تلك الأمسية قطع على نفسه وعداً بقوله: «كن مرتاح البال، وأرجو أنْ تكون على يقين بأنني سوف أقوم بشطب أية فقرة أو جملة، وحتى أية كلمة غير مرغوبة من قبلكم. سوف أمسحها ولا أضمِّنها دراستي». كان قد قطع عليَّ وعوده وهو يتكلّم محدِّقاً في عيني، مظهراً حميميّة عميقة غير مسبوقة، أثار بها مشاعري حتى أنني كدتُ أنفجر باكياً.

وفي أثناء ذلك - وبعد أن قرعنا كؤوسنا بعضها ببعض وشربنا الأنخاب - قطعت أنا الآخر عهداً على نفسي أمام هذا الأكاديمي الشاب ذي اللحية الحمراء ألَّا أتدخَّل في عمله، وأن أمنحه كامل الحرية في دراسته، إن أراد أن يرفع بي إلى عنان السماء أو أراد أن يطمرني في قعر الأرض. ولكنّني قلتُ: «إذا تضمَّن العمل أية جملٍ واهية، أو كان فيها تدليس وتخرُّص يمسّني شخصياً أو يعني أحداً من المحيطين بي فمن حقي أن أتدخَّل».

وهكذا تمَّ الاتفاق بيننا على هذه الشروط.

بعد ذلك أخذ يكرِّر زياراته لي في البيت على مدى سنتين كاملتين. زارني خلالها سبع أو ثماني مرّات تقريباً. كان يمشي على أطراف أصابعه لئلَّا يزعج أحداً. كما كان يذهب إلى الشرفة لتدخين غليونه. جئتُ إليه بالعلب الكارتونية التي حفظت فيها مجلاتي القديمة وجميع قصاصاتي من الصحف اليومية ووضعتها تحت تصرُّفه. فأخذ يستنسخ منها ما يشاء. وبذلك أعرب مراراً عن شديد امتنانه، وجزيل شكره لي لقاء ما فعلتُ من أجله وما قدمت له من تسهيلات، وكذلك من أجل تفهُّمي لمهمّته هذه.

لقد كان تواضعه ودمائته وشخصيته الجذّابة ذا تأثيرٍ بليغٍ عليَّ، لذلك أقدمت على تلبية دعواته بضع مرّات خلال هاتين السنتين للقاءٍ خارج البيت. فاخترنا أماكن هادئة في منطقة (قزل آي) أو في (غازي عثمان باشا) بعيداً عن الصخب والضوضاء. جلسنا متقابلَين وتنادمنا على شرب بضعة أقداح من العرق، وفي الوقت نفسه استغرقنا لمدة ساعات طويلة في الحديث عن رواياتي وعن جوانب من حياتي. كان يقول لي: «أرجوك أن تأخذ راحتك في الحديث»، كان يكرر هذه الجملة طيلة لقاءاتنا، ويلقيها على مسمعي بمناسبة أو دون مناسبة. وفي الوقت ذات كان يذكّرني بالوعد الذي قطعه على نفسه بقوله: سوف أمسح أية جملة في دراستي إذا وجدتَ أنتَ حضرتُك أنها غير مرغوبة.

في الحقيقة عندما قرأت دراسته بتمعن، كانت هنالك فروقات عديدة مغايرة لما كنت أنا عليه في الواقع. كانتْ تصوّرني وتصوّر الناس المحيطين بي بشكل مختلف. طلبت إليه أنْ يحذف بعض تلك الأسطر مما كتبَه فأبى. لقد حَنِثَ في وعده لأنه لم يعدْ بحاجة إليَّ. ولم تعدْ لديه أية أسئلة يوجِّهها إليَّ. وبذلك وضعني في موقف الأبله المضحوك عليه. قال لي: «لا لا يمكن حذف هذه الجمل!»، وأكد لي أنه إذا قام بحذف تلك الجمل فإن دراسته ستفقد الكثير من علميَّتها. ثم أضاف قائلاً: «إن أية دراسة من هذا النوع، وخاصة تلك التي تُدعم بتناول السيرة الذاتية للكاتب لا بدّ لها أن تسلط الضوء على تلك الجوانب الخفيّة». ولم يكتفِ هذا الأكاديمي بتصرّفه هذا وحسب بل راح يكشف عن واحد من تلك الوجوه المظلمة التي ظلّ يخفيها طيلة المدة المنصرمة، وهو أنه له حقٌّ مكتسب منحه هو بالذات لنفسه نتيجة اختياره إجراء دراسة عن رواياتي، ذلك أنه صاحب فضلٍ عليَّ، وأنني محظوظ لأنه كتب عنّي وتناول أعمالي دون الآخرين. وفي آخر المطاف قام بنشر الدراسة وطبعها في كتاب منفصل. هذا الكتاب الذي أعنيه هو نفسه الكتاب الموجود في متناول يدي. ها أنا ذا بصدد قراءته الآن في الغرفة الجانبية.

كلما قرأت في هذا الكتاب أوشكت على الخروج من إهابي، وازددتُ غضباً على غضبي لما فيه من مغالطات كثيرة. الأكاديمي آنف الذكر هذا الذي يقوم بكتابة دراسة عن أعمالي، ويدّعي أنها علمية أكاديمية يتصوّر أن الراوي والروائي هما شخصية واحدة. على سبيل المثال يختار واحداً من شخوص إحدى رواياتي، يمسك به من ياقته أو من تلابيب ردائه أو حتى من ردن بنطلونه ويسحله رغماً عنه، يجرجر به هنا وهناك ويلصقه عنوة بمرحلة معينة من مراحل حياتي. والأنكى من ذلك أنه راح يؤكد أن كل الزيجات التي تناولتها في رواياتي هي عبارة عن تجارب مريرة عشتها أنا شخصياً. وراح يربطها بمحطات معينة في حياتي. أما الأخوال والأعمام والجدود الذين كتبت عنهم، هم - بحسب رأي الدارس - أخوالي وأعمامي أو جدودي. حتى الأطفال الذين يتوالدون في الروايات هم أولادي. وقد أثقل هذا الناقد كتابه بقائمة طويلة وعريضة من المصادر المعتمدة وأغرق صفحات الكتاب بالهوامش المطوّلة، من أجل أن يعرض عضلاته أمام أصحاب الشأن من الهيئات التدريسية في الجامعات والكليات، وليدهش الكثيرين بمنجزه هذا، على أنه من ذلك النوع الذي يحق له أن يجلس على كرسي الأستاذية برخاوة مائلاً إلى أحد جانبيه، ويضع ساقاً على ساق كأيِّ دَعِيٍّ متسكِّعٍ مواظبٍ على الحضور في أيّ مقهى. ويلقي محاضراته في درس الحيّاة على أسماع تلاميذٍ في المرحلة الابتدائية. إضافة إلى ذلك كان يطعّم بعض صفحات كتابه بالفكاهة ويروي حادثاً طريفاً.

وراح يُشهر مهارتَه الفريدة التي لا يتّصف بها أحدٌ غيره من معاصريه، ويلوّح بذلك المعول ذي النصل الحاد الذي طاب له أن يسمِّيه أداة المنهج العلمي، وأخذ يحفر به لينقّب في أعماق النص. وخرج على الملأ بدلالات تلك الإيماءات التي كانت جزءاً من شخصيّتي، حين كنت طالباً في المرحلة الثانوية قبل أربعين سنة، ويقوم بوصف المشهد وتفسير حركاتي مثل وضعيّة كتِفَيَّ أو تقطيبة حاجبَيَّ. بالطبع لم يكتفِ

بكل هذا وحسب، بل أراد أن يصف كل هذه التصرفات، فاستلّ قلمَه وأخذ يدبّج صفحات مطوَّلة في الوصف، يهدف فيها إلى تلقين الجميع درساً في الوصف وحرفة الكتابة. ولسان حاله يقول على مهلكم انظروا ماذا أنا فاعل. بطبيعة الحال لم يكن ليستطع كبح جماح نفسه في الإطناب والاسترسال في الوصف إلا عندما يحين الوقت للانتقال إلى فصل آخر. ولم يكن ليسيطر على انطلاقه إلا بالكاد. كان يتساءل ببلاهة عن سبب احتواء أعمالي أشخاصاً من شريحة المخاتير وأئمة المساجد! في حين لا يوجد فيها أي دور للمعلّمين. وفي أحايين أخرى كان يسدِّد نظره الثاقب إلى صورة الإمام (علي) المعلقة إلى حائط الغرفة في البيت الموجود في الرواية، وكيف يقوم بخلعها من مكانها والذهاب بها إلى المسجد وتعليقها هناك. ثم العودة إلى تبرئة ساحته كناقد، محمّلاً إياي تبعة هذا الأمر. منوِّهاً إلى أنَّ الكاتب هو من فعل ذلك وليس هو. ثم تنتابه ثورة من الغضب، يرغي ويزبد خلالها رافعاً رأسه من بين القوالب الجاهزة التي جاء بها، ناشراً ذراعيه إلى الجانبين وهو يصرخ: «بالله عليكم هل يجوز وضع صورة الإمام (علي) في المساجد».

النقطة المضيئة التي كان الكتاب يحتويها بين طياته هي أن كاتبها ارتضى أن يصنع من أشخاص قبضايات مثل (كل عليتشو)، (قوجا يوسف)، و(قدرتلي مهمت) ممن نشرت جرائد أيام زمان أخبارهم وشهدت الموسوعات بمناقبهم حتى طبقت شهرتهم الآفاق في منطقة (إيجة)، ارتضى أن يزوّدهم ببنادق وتَرَكَهُم يصولون ويجولون بين طيّات ذلك الكتاب وهم يرتدون سراويلهم الجلدية المدهونة بالزيت[32]. وأن يعلق صف رصاص جلدي على صدور أولئك الأبطال كما لو كان يقلّدهم أَنْواطَ شجاعة. وهذا بحد ذاته يعتبر مأثرةً تستحق

32- سروال يُعمَل من جلد العجول يرتديه المصارعون في المصارعة التقليدية في مهرجانات المصارعة الدهنية التي تقام سنوياً في محافظة (قيرق بينار) التي اقترن اسمها بهذا النوع من المصارعة. يطلق على هذا النوع من المصارعة تسمية (المصارعة الدهنية) حيث يتم دهن جسم المصارعين بالزيت السائل قبل النزال - المترجم.

الثناء والتقدير تُسجَّل لصالح المؤلِّف. ومن الجدير بالذكر أن المؤلِّف لم يكتفِ بربط أشخاص رواياتي بحوادث عشتها هنا أو هنالك في مسيرة حياتي وحسب بل كان يستبيح الأماكن ويخبط الأحداث التي تجري في رواياتي خبط عشواء. وبطريقة غاية في الغرابة، تدفع حتى العم دوستويفسكي إلى الارتباك والتساؤل بينه وبين نفسه: «أَيُّهَذا، تُرى أين وضعتُ الفأس الملوّث بالدماء؟ يتوجَّب عليّ أن أجده وأتخلَّص منه قبل وصول الشرطة». أو لكأنّها تصيبُ جدِّي سرفانتس بنوبةٍ من الضحك، يقع بأثرها على الأرض ليتلوّى من شدة الضحك.

كلما قلّبت صفحات الكتاب صفحة إثر أخرى كانت تواجهني معلومات غير مطروقة عن حياتي الشخصية وعن حياة أقربائي. على سبيل المثال علمت أن الكتاب يصوّر أحد أخوالي على أنه دودة كتب. برغم علمي علم اليقين أنه لم يقرأ أي كتاب طيلة حياته. الأمر الذي دفعني إلى أن أسأل نفسي: «يا للغرابة! هل كان خالي كذلك حقاً!».

كما علمت أن حفل زفافي الذي أقيم في بيتنا في البلدة على أنغام الطبل والمزمار البلدي إنما أقيم في إحدى صالات الأعراس في المدينة، دُهِشْتُ إزاء هذه المعلومة الجديدة وبقي فمي مفتوحاً بطول شبر واحد. ثم إن النساء اللائي كن يجنين محصول العنب في بساتين بلدتنا، بينما كن يتحملن أنواعاً من المشاق في أثناء العمل حول القدور الكبيرة التي كانت تنصب من أجل استخراج دبس العنب، وكن يشكين من آلام الظهر وهن ينقلن الأكياس المليئة بأثقال العنب لم أكن أعرف أنهن حين يتحلقن حول القدور الكبيرة في المعصرة إنما كن يجتمعن لكي يرقصن فرحاً، ويهززن وسطهن على أنغام راقصة.

كلما قلّبت صفحات الكتاب كانت تواجهني مسائل تثير حيرتي لأنها منافية للحقيقة. مثل المنارة الخشبية التي تعلو فوق مسجدنا في البلدة. ولم أكن أدرك أنها موجودة بالفعل. إذ لم يسبق لبلدتنا منذ تأسيسها ولحد هذا اليوم أن أنشئت فيها منارة من خشب. ومن المفارقات الكبيرة

هي أنني علمتُ فيما بعد أن البيت الذي ولدتُ وترعرعت فيه كان يقع بالقرب من ذلك المسجد ذي المنارة الخشبية.

ملخص القول بالنسبة إلى هذا الكتاب الذي يشاع عنه أنه نموذج مشع ينبغي فرشه على أعتاب القرن الحادي والعشرين، أو تعليقه على عضادة بابه لكي يحتذي به الباحثون، وينهل من نوره الدارسون والأكاديميون في كيفية قراءة أي نص أدبي. أما بالنسبة إلى القرّاء من خارج أوساط البحث العلمي فإن حياتي التي يصورها الكتاب لهم ليست هي بالضرورة الحياة نفسها التي عشتها في الواقع. حتى البلدة التي ترعرعت فيها لم تكن مثلما كنت أراها أنا بل كانت من منظار البحث الأكاديمي مجرد بلدة أنشئت على سفح جبل. فيها مسجد ذو منارة من خشب... وإلى آخره... أما إذا كان أهل البلد لا يبصرون تلك المنارة العظيمة فذلك لِعِلَّةٍ في نعمة البصر فيهم. أي أنهم أصيبوا بالعمى. وإن دلَّ هذا على شيء فانما يدل على مدى بعدهم عن العلم. كما يريد القول إن هذا بحد ذاته خير دليل على افتقارهم للمعرفة.

بطبيعة الحال أنا بدوري لم أكن أنا. فقد ذهب السيد مؤلِّف الكتاب في حديث له عن أحد أبطال رواياتي إلى أن شخصية (بدران) بالذات تمثّلني. أي أنَّ (بدران) هو الروائي بعينه. وهو حين يتطرَّق إلى الفصل الذي بدأته بجملة أقول فيها «إن أكثر ما يزعجني هو تطهُّري من الآثام»، كان يشير إلى بعض المسائل بمجرد إلقاء النظر عليها في القصص لأنها كانت تلائم القيم التي تربَّى عليها، في حين كان يركن العديد من الحقائق جانباً بسبب احتكامه إلى قيمه الأخلاقية.

وفي فصل آخر يستلُّ قلمَه ويلوّح به في أعماق روحه ويناوله إلى مقدِّم مبتذل من مقدِّمي برامج فضائح النجوم ليسلّط الضوء على حياتي الشخصية، متطاولاً في الحديث عن شخص ما، كونه قد أدمن على تعاطي الخمر، وصار بمثابة قربةٍ تنزُّ ما في داخلها. ثم يعرّف تلك الشخصية على أنها تمثل أبي.

نحو الظهر من اليوم الثاني عندما اطلعت على هذه المعلومة العلمية التي تخصّ أبي بالذات أقلعتُ عن قراءة الكتاب. رميته من يدي. كانت أوصالي ترتعد من شدّة الغضب، فألقيت بنفسي إلى الشرفة. هناك دخنت سيجارتين الواحدة تلو الأخرى. لا أدري أيُّ منهج قاده إلى ذلك، وأية طريقة فذة أرشدته لكي يتوصل إلى هذا الاستنتاج. لربما استشفَّ رأيه من الجملة التي كنت قد كتبتُها عن الآباء، أقول فيها: «ترسو جنانهم أحياناً على تخوم موانئ الخمر، مثل قِرَبٍ تنزف وكأن فيها خَرْقاً من الداخل». لا أدري بأيّ وازعٍ من ضمير تمّ التطاول على أبي. اكتشاف كهذا لا أدري ما الذي سيضيفُه إلى دراسة من هذا النوع. لم أتوصَّل إلى مخرج في هذا الشأن؟ لا أدري لمن يتوجب عليَّ أن أحزن؟ لشخوص روايتي المساكين الذين جِيء بهم عنوة وأُقحموا في حياتي؟ لنفسي؟ أم لهذا الذي يسوق هذه الآراء؟ أم أحزن من أجلنا جميعاً نحن الذين وُجِدْنا معاً في الزمن نفسه!؟ مكتبة سُر مَن قرأ

اضْطُرِرتُ إلى إطفاء سيجارتي والذهاب إلى الداخل. وبينما كنت أهُمُّ بالدخول إلى الغرفة الأخرى سدَّد أبي إليَّ نظراته من مكانه حيث كان يستلقي، كأن به قد قرأ على وجهي كل ما كان يجري في الخارج بالفعل. ومن بعد ذلك سأل:

- مالذي جرى لك؟

- لا شيء. قلت وأنا أمر لأجلس على الكنبة المواجهة له.

تنحنح أبي قليلاً في جلسته، وأبعد البطانية من فوقه ثم اتّكأ على كوعه.

- تعال يا هذا! - قال لي - لقد ضجرت من الاستلقاء على جنبي، أريد أن أنقلب على الجنب الآخر. لأنقلب!

هرعت إليه من فوري. مددتُ يدَيَّ إليه فبقيتا مشرَّعتَين في الفراغ، لأنني أعرف أنه لم يكن يسمح لأحد أن يساعده. انقلب على الجهة الأخرى وهو يتأوَّه. أما أنا فشغلتُ يديّ العالقتين في الفراغ، ورحت أنقل الوسائد إلى

الطرف الآخر من الفراش. تعدَّل أبي في جلسته وكأنه نصف جالس على فراشه. بذل ما بوسعه وهو يضغط على شفته السفلى ووجد مُتَّكَأً له.

فيما كنت أهُمُّ بالجلوس مجدَّداً إلى الكنبة أخذ يحدج في عيني. قال:

– هنالك أمر ما، أنت منزعج بسببه.

كان قد استجمع البطانية وجعلها مثل كرة في حضنه، ووضع يديه عليها.

تجاهلتُ سؤاله هذه المرة عمداً لكيلا أشغله بهذا الكتاب وهو على هذه الحالة من المرض الذي أقعده تماماً عن الحركة والمشي.

– لا – قالها لي مجدداً – أنت تخفي أمراً ما عنّي.

لم أُطِق ما قاله هذه المرّة فكلّمتُه عن الكتاب الذي كنت أقرؤه. وبالأحرى فإنني بدأتُ أقصُّ عليه الحكاية منذ اليوم الأول الذي تعرَّفتُ فيه على الباحث الأكاديمي ذي اللحية الحمراء. شرحت له الموضوع دون أن أخوض في التفاصيل المملّة، وضربتُ له بعض الأمثلة ذاكراً بعض الجُمَل التافهة التي ظلّت عالقة في ذهني. وبطبيعة الحال لم أُعَرِّج على ما جاء في الكتاب بصدده. أما الأمثلة التي سُقتُها فقدت تعمّدتُ ذكرها لكي تكون سبباً في إثارة روح الفكاهة في نفسه. ولكنه لم يبتسم ولا مرّة، بل كان يمطّ رأسه إلى أمام ويحاول فهم كلامي.

– هكذا إذن! قطع الرجل عهداً على نفسه، ثم نكث بوعده.

– نعم هكذا!

ثم سألني:

– وحفلُ زفافك أقيم في المدينة.

– نعم في المدينة – قلت.

ظلَّ ينظر في وجهي نظرةً خاوية من أيّ معنى.

– وتلك المنارة المصنوعة من الخشب، أين كانت من البلدة؟ – سألني وكأنه يهمّ بالقيام من مكانه ليذهب لإلقاء نظرة عليها: هل يدّعي الكتاب الذي قرأتَ وجودَ تلك المنارة؟

– كيف لا يدّعي! والأنكى من ذلك أنه يؤكد أنها كانت قائمة بالقرب من بيتنا.

مال برأسه إلى أمام واستغرق بعض الوقت يحدّق في يديه. وفي أثناء ذلك صار التقعُّر في خدَّيه أكثر قتامة، لا أدري أي تسمية أطلق على ذلك التجويف الصغير الذي حُفِر هناك. لمحت فيهما ارتجافاً متكرِّراً.

– يبدو لي أنك قد انزعجت كثيراً – قال – ألهذا الحد سيِّئ هذا الكتاب الذي قرأت.

– ماذا تقول يا أبي! – قلت – لو طلبوا إليّ أن أتخيَّل دراسة عن حياتك لما استطعت تخيُّل وتقبُّل كل هذه التفاهات عنك.

هزَّ رأسه علامة على أنه فهمني، ثم أخذ يرمقني بنظرة ثاقبة. سألني عمَّا سيكون ردُّ فعلي إزاء هذا، قالها وهو ينظر في أعماق عينيَّ.

– سأرفع دعوى قضائية ضدَّهُ يا أبَتِ. حتى أنني سأقاضيه لتطاوله على المقرَّبين إليَّ، ولكل كلمة كتبها عن أيّ شخص، كائناً من يكون، ووصفه له بما ليس فيه.

كان يستمع إليَّ بكل جوارحه. وينظر إليَّ من دون أن يرفَّ له جفن.

– دعه يذهب – قال أبي فجأة – لا ترفع أية شكوى. إذا كسبت الدعوى أو خسرتها سيّان عنده. النتيجتان تريحانه، لأنك سوف تقتصُّ منه في هذه الدنيا. ألم يكن الله حاضراً هناك ليشهد على كلامه عندما عاهدك. بلى لقد شهد الله كلامه! هذا لا شك فيه، لا شك فيه البتَّة! فذلك الرجل ومهما كانت غايته التي أراد أن يحقِّقها فإنه يُعَدُّ مرائياً يكذب على الله. لهذا السبب دعه وشأنه، فالله سيقتصُّ منه في الوقت المناسب، وسوف يصفعه صفعةً لا يستطيع أحدٌ غيره أن يوجِّهها إليه.

– أنت محق – قلت.

لاذ بأذيال الصمت، ثم أخذ يشهق بعمق وهو ينظر إلى البقع الغامقة على ظاهر يديه.

– كائناً من يكون ذلك الرجل فإنه قد امتطى ظهْرَ حصان الكِبْر – قالها

أبي ثمَّ أضاف: سترى كيف يكبو، وإنَّ كبوَتَه قريبة. عليك أنْ تفهم هذا. ولكنني لا أدري إنْ كان يشعر هو بسقوطه الوشيك أم لا؟

إتيانه بسيرة الحصان لم يسرّني أبداً. سكتُّ لكي أفسح المجال له لكي يغير الموضوع. لم أنبس ببنت شفة، بل فضَّلْتُ الركون إلى الصمت برغم أني كنت توّاقاً إلى الكلام.

– لأنّ...! – قالها أبي وتوقف برهة ثم أردف قائلاً: معظم الذين يمتطون حصان الكِبْر لا يعرفون متى يسقطون. ذاك الشخص إن كانت له زوجة وأولاد فسوف يسقط أمام أنظارهم.

استمرّ سكوتي عن الكلام لأن الحديث لم يبتعد عن سيرة الحُصُن.

لاذ أبي بأذيال الصمت لبعض الوقت، التفتَ في أثناء ذلك إلى نافذة الصالون وأخذ ينظر إلى الجبال. كانت يداه تستريحان على البطانية جنباً إلى جنب.

– إذن لقد خان عهدك وهو يحدق في عينيك! – قالها والتفتَ نحوي مجدداً – أتسمح لي أن أقول لك شيئاً يا ولدي!؟ أنت قمينٌ بك أن يخونك الآخرون. يليق بك أنْ يخانَ عهدُك!

عندما سمعت هذا الكلام هاجتْ مشاعري وانتابتْني الحيرةن لا أدري ماذا أقول. بلعت ريقي بصعوبة. في الحقيقة شعرت برغبة في داخلي تدفعني إلى أن أنهض من مكاني وأنطلق إلى أبي لأحتضنه، ولكنني لم أفعل، بل اكتفيت بالنظر إليه. هو الآخر ظلَّ ينظر إليّ دون أن يرفَّ له جفن. وفي تلك اللحظة تماماً خُيّلَ إليَّ أننا تعانقنا بنظراتنا. بعدها قال أبي:

– هل تذكر روايتك المسمَّاة (لانهائية النقطة)! فيما مضى من الأيام قلّبت الكتاب وألقيتُ نظرة على بعض صفحاته. كنتَ تتحدَّثُ فيها عن سائق (الميني باص). في البدء شبّهت السائق بنفسي. ثم تمعَّنتُ جيّداً وإذا بي أجد شخصاً اسمه (بدران) يشتغل مساعداً لدى هذا السائق، فأدركت أن لا علاقة تربطني بتلك الشخصية، لأنني لم أستخدم مساعداً

بهذا الاسم. وهل بدران هذا اسم؟ لم أسمع طوال حياتي أن رجلاً سمَّى نفسه بدران!

- نعم يا أبَتِ - قلت له - نعم يوجد هنالك من يتسمَّى بهذا الاسم.

فهزَّ رأسه موافقاً على كلامي، وكأنّه يقول «فهمت!».

- صاحبك هذا (بد...)[33] - قالها وسكتَ لبرهة من الوقت، لا بدّ أنه أراد أن يقول (بدران) ولكنه لم ينطق الأسم بالكامل، إذ سمعنا صراخ أمي قادماً من خارج البيت.

التفتُّ لأنظر من خلال النافذة، ولكنني لم أرَ سوى (بكير) ابن عمة أبي. كان يرتدي «جاكتة» بالية، باهتة اللون، يميل إلى أصل سياج الحديقة، يفتح ذراعيه وكأنه يريد احتضان شيء ما، كان مرميّاً هناك، ولكنه قبل أن يتم عمله يعود فيتعدّل في وقفته. وما إن يقف بطوله حتى ينظر بارتباك يميناً وشمالاً.

- ماذا يحدث هنالك؟ - قالها أبي.

- لأذهبْ وأرى ماذا هناك - قلتُ وهرعتُ من فوري إلى الخارج، وانطلقتُ بأنفاس متسارعة صوب باب الحديقة. حين وصلت إلى هناك كانت أمي تجلس عند الجدار، تذرف دموعاً حرَّى، ولا تتوقَّفُ عن لطم ركبتيها.

- أوَّاه يا ولدي أوَّاه! - قالت حين وقع بصرها عليَّ: انظرْ واسمع ماذا يقول (بكير)!

- ماذا حدث يا أخي (بكير)؟ - سألتُه.

- كنت قد أخبرت أمّك عن الرؤيا التي رأيتُها ليلة البارحة. قال (بكير) وكأنه نادم على إخبارها.

- أخبرنا مجدداً بما رأيت! - قالت أمي.

فطأطأ (بكير) رأسه إلى أمام وهو يشعر بالذنب.

33- (بد): كلمة فارسية بالأصل، تستخدم في التركية بنفس المعنى وتعني: قبيح، سَيِّئ الطالع، مذموم - المترجم.

- اشرحْ لنا ما رأيت يا (بكير) - أعادت والدتي الكرَّة، هيا أخبرنا!

- رأيت فيما يرى النائم - قال (بكير) - رأيت أنني عائد من البستان. كنت قد حمّلت حماري كِسَراً صغيرة من الحطب نشعلها عادةً تحت صفيحة (الصاج) حين نعمل الخبز. كنت أتقدَّم على الحمار وأسحبُ رسنَه. كان المساء قد حلّ توّاً وقد أظلم المحيط بعض الشيء. ثم أنني استدرت من هنا بالضبط، من هذا ا لوجه مع خالك (عزت). بالله وتالله كان طويل القامة يبلغ طولُه ضعفي ما كان عليه في الواقع. كان متسمِّراً يقفُ وسط الزقاق، كان حافي القدمين، يحمل كفنَه على كتفه. في حقيقة الأمر كان ينظر إلى منزلكم من دون أن يرفّ له جفن. حين دنوت منه سألتُه: «ألم تكن قدْ متَّ يا معلّم (عزت)؟»، فقال المرحوم بطبقة خشنة من صوته، مثلما كان معروفاً عنه، قال: «أجل كنت قد متُّ يا هذا! وهل بإلامكان أن أعيش إلى الأبد!». فقلت له: «هيه... إن كنت متّ بجَدّ فلماذا رجِعتَ إذن؟!»، فما إنْ سألتُه حتى لاذَ بأذيال الصَّمت لبرهة من الوقت، ثم أدار رأسه ونظر باتجاه منزلكم. فعاجلتُه بالسؤال مرّة أخرى: «إن كنت قد متَّ يا معلم (عزت) فلِمَ غادرتَ قبرَك وجئت إلى هنا؟ قلْ لي عم جئت تبحث؟». فقال لي: «يا (بكير) لقد جئت من أجل أن أصطحب صهري العزيز». سألته بالطبع مرة أخرى: «حسنٌ هل ستأخذه وترحل؟»، فاستدار مرة أخرى صوب بيتكم وقال: «لا... فهمت أنني جئت بلا طائل! يبدو أنهم لم يجهِّزوا مِتاعه بعد».

مكتبة
t.me/soramnqraa

-8-

حُلمُ (بكير) كان قد أزعج أمي كثيراً، وبسبب هذا الحلم تغيّرت طريقة نظرها إلى أبي. طفقت تنظر إليه كما لو كانت تنظر إلى شيء ثمين سوف تفقده بشكل مباغت. لذلك كانت توليه جُلَّ اهتمامها. تستجيب لطلباته دون إبطاء وعلى جناح السرعة. تتصرف بدقة حين تطعمه أو عندما تسقيه ماءً، وترتبك حين تناوله الدواء. حتى أن بدنها كان يقشعر أحياناً على نحو غير محسوس، لا يشعر به أحد.

أخذت أمي تقصّ الحلم على أسماع (نهاد) الذي جاءنا بعد يوم واحد من (تاواس) حاملاً حقيبة سفر صغيرة. أوقفته عند أول المنحدر الإسمنتي ونقلت إليه الخبر قبل أن يمر من تحت متسلقات البرقوق وأوراق العنب التي تتشابك لدى مدخل البيت. قالت بين كلامها:

– أتوسل أليك يا ولدي! قالت وهي تمسح عينها بطرف فوطتها: لا تخبر أباك. ولا تتكلما قط عن هذه الرؤيا في حضوره.

– لا نتكلم – قال (نهاد) – كيف يمكننا أن نتكلم عن هذا الموضوع!

– لقد وصلت لتوك من السفر – قالت أمي – اذهب وتراءى لأبيك. خذ قسطاً من الراحة، ثم اذهبا أنت وأخوك إلى السوق. اشتريا من العطَّار علبةً كبيرة من اللقم وكارتوناً من البسكويت، ووزِّعاه على الصبية والأطفال الذين ترونهم في الأزقة، في طريق العودة. تصدقوا بها عسى أن تكون نتيجة الحلم مبشِّرة بالخير. هل تعملان هذا من أجلي؟

نظر الواحد منا في وجه الآخر من بين أغصان المتسلقات. عندئذ قلت لها:

– هل بقي هنالك أطفال في الأزقة يا أماه؟ ما تقولينه كان فيما مضى، أنتِ تتصورين أن الطرقات ما زالت مزدحمة بالأولاد، وما زال هنالك العشرات منهم في كل زاوية وكل عطفة، يحملون بأيديهم مصاريعهم الخشبية[34] تلك التي نحتوها بالسكاكين وصقلوها بقطع من زجاج، ومعهم خيوط مشحّمة، وآخرون يلعبون لعبة الصكلة[35] ومنهم من يلوّح بفرّارات وخرخاشات ملوّنة.

– إيه؟

– يعني! لم يعد هنالك أطفال في الأزقة يا أمي. لا أحد سوى الجان يلعبون الكرة في الدروب! أما الأطفال فتجدينهم الآن مجتمعين أمام شاشات التلفزيون، أو يجلس كل واحد منهم أمام حاسوبه. إذا مضينا باتجاه السوق مشياً على الأقدام فلن نرى في طريقنا أكثر من أربعة أو خمسة أطفال.

– في هذه المرحلة بالذات لن تجدي واحداً من هذا الجيل مَنْ يستسيغ البسكويت والحلقوم – قال (نهاد) – بدلاً من هذا يمكننا الذهاب إلى أحد المقاهي ودفع شايات عن جميع الحاضرين.هذا سيكون أفضل، أليس كذلك يا أمي؟

لَمْ تَحِرْ جواباً، وظلّت تنظر إلى بعيد، بينما كانت تتراقص على وجهها ظلال أوراق الشجر.

34– قطعة خشبية بحجم الكمّثرى مخروطية الشكل تنتهي بطرف منبّل في آخره رأس معدني يطلق عليها (المصراع) في أغلب مناطق العراق. تسمّى (الدوامة) في الأردن، (الطرومبة) أو (الطرومبية) في الجزائر والمغرب، وتسمى (الزريوط) في معظم مناطق تونس. وفي مصر يطلق عليها (الخذروف) – المترجم.

35– لعبة شعبية يجريها الأطفال. لها تسميات مختلفة بحسب كل بلد من البلدان العربية، ومن الممكن أن تختلف التسمية من مدينة إلى أخرى. تتكوّن من عصا طويلة هي (الصكلة) يبلغ طولها حوالي نصف متر، وأخرى صغيرة يطلق عليها (لاك) تبلغ نحو خمسة عشر سنتمتراً. تُبرَى من الطرفين شرط ألا تكون حادة. يضرب اللاعب العصا القصيرة باستخدام العصا الطويلة. ومن يرسل العصا الصغيرة إلى أبعد مسافة يعتبر فائزاً. في ليبيا تسمى اللعبة (طق طربق) وفي الأردن تسمى (الحيّط) – المترجم.

– يا إلهي! انظروا ما جرى لنا، قالت ذلك بهمس: والله يا زمن، صرنا لا نستطيع عمل الخيرات حتى. في الماضي كان الناس يوزعون الطعام واللحم. كنا نضع قطعة من اللحم وقليلاً من البرغل ونلفّها في نصف رغيف، وما إن كنا نخرج إلى الزقاق كانت رائحة اللحم تنتشر فيتحلّق الأطفال حولنا. يتهافتون في الحصول على ملفوف اللحم والبرغل. وكانت أفواههم وبطونهم وأفئدتهم تعيش نسائم العيد. ولو كنا نوزّع كسر الحمص لكانوا يتسارعون إلى الخروج والتقاتل فيما بينهم كأنهم سرب من عصافير.

– أماه لنوزع بسكويت الويفر – قال (نهاد) – لنشترِ من النوع الجيد، ذي الجودة، وليس من النوع الرديء المعروض في الهواء الطلق والذي يباع بالكيلوات. وإن لم نجد أطفالاً في طريق العودة نقوم بطرق الأبواب باباً تلو الباب ونعطي لكل بيت ثلاث قطع أو خمس قطع من البسكويت.

– إيه، افعلوا كما يحلو لكم – قالت أمي.

ثم دلفنا معاً إلى مكان أبي وجلسنا معه. وبعد أن قضينا بضع دقائق جالسين نهضنا أنا وشقيقي. سألَنا أبي:

– إلى أين؟

قبل أن نجد ما نجيب به أبانا انبرت والدتي بالقول:

– هبَّ الأولاد بوازع من حبهم للخير، وقرروا أن يشتروا كمية من بسكويت الويفر ويوزعوه في المنطقة.

فأومأ أبي برأسه علامة على رضاه مما نقوم به، من دون أن يغادر فراشه. قال وهو يغمغم:

– نعم ليوزعوا. فعمل الخير والإحسان من الأعمال المستحبة.

أنا وشقيقي (نهاد) رفعنا أغصان البرقوق والكروم المتشابكة لدى الباب. تناولناها من يدٍ إلى يد، ثم نزلنا عبر المنحدر الإسمنتي وذهبنا إلى باب الحديقة، ومن ثَمَّة صرنا في الخارج. تركنا جوزة خالي (عزت)

خلفنا[36] وأخذنا نمشي هوناً في نزولنا عبر المنحدر نحو سوق البلدة دون أن يكلّم أحدُنا الآخر. وبينما كنّا كذلك كان بعض الناس يلقون بالتحية علينا ويمرّون عن يميننا أو عن شمالنا. وبعد ابتعادهم بمسافة كافية كنت أسأل شقيقي (نهاد) عن هؤلاء لأنني لا أعرفهم. فكان يميل إليَّ هامساً في أذني بما يعرفه عنهم. وهكذا كنت أشعر بغرابة وضعي بينما كنت أتأرجح بين الميلان والإصغاء لأخي وبين مسايرته في المشي وبين تلقي تحايا المارة. وهكذا سرنا حتى وصلنا إلى الجامع. فكانت طيور «الفاختة» تصدح بشكل متقطع مثلما كانت تفعل قبل هذا عندما كنت أمر من هنا أيام طفولتي. كانت الحمائم وكأنها تحفر في صفحة السماء بهديلها المؤثر وصداحها المنتشر. أو لكأن صوتها يرمي بمسامير ليصيب جسد الزمن هنا وهناك. حينما سمعت تلك الأصوات انحنيت من وراء (نهاد) الذي كان يمشي حذوي. نظرت إلى السطح ثم إلى أشجار التوت السامقات في باحة المسجد، ولا أدري لمَ لمْ أحظَ برؤية أية حمامة في ذلك اليوم. وبعد برهة من الوقت انقطع دابر صداحها، ولم يبق من بعد ذلك غير صدىً بدا لي أنني ورثت سماعه قبل سنوات عديدة.

فيما بلغنا مشارف سوق البلدة قلت لأخي (نهاد):

– ها نحن كما ترى بدأنا نخفي بعض الأشياء عن أبي. لم نذكر له السبب الذي دعانا إلى توزيع بسكويت الويفر، لم نذكر له أي شيء عن الرؤيا، ولم نفصح له عما توصل إليه الأطباء في تشخيص مرضه.

– حتى أمي لم تسمع بتشخيص المرض أليس كذلك؟ – سألني (نهاد).

– لا تعرف – قلت – يفضَّل ألا تعرف فذلك أحسن برأيي.

فأومأ (نهاد) برأسه بمعنى: «طبعاً أفضل لها ألّا تعرف».

في ذلك اليوم عدنا إلى البيت بعد ساعتين ونصف تقريباً، قضيناها

36– شجرة الجوز الموجودة في بيت (عزت). كأن يقول نخلة خالي – المترجم.

ونحن نوزع ملء علب الكارتون من بسكويت الويفر في طريق العودة. وحينما دخلنا المنزل كانت أمي تجلس على وسادة قريبة إلى البوتوجاز، أما أبي فكان مستلقياً على ظهره، يسحب بطانيته إلى حد رقبته، وقد ترك يديه خارجها. جئنا نحن الأخوان وجلسنا إلى الكنبة المركونة جنب الشباك.

– هل وزعتم؟ – سألتنا أمي.

– نعم وزعنا! – قال (نهاد) – أخذنا من أحد البقالين مئة وخمس عشرة قطعة، ومن بقال آخر اشترينا مئتين وخمس وأربعين قطعة وتم لنا توزيعها كلها.

فأومأت والدتي برأسها عدة مرات وراحت تكرر قولها:

– حسناً فعلتما، حسناً فعلتما!

قالت أمي وهي تشيّعنا بنظرة استحسان وكأننا بذلك أقمنا جداراً من بسكويت الويفر كسدّ منيع في طريق الحلم الذي رآه (بكير) ولا يسعها إلا أن تفخر بنا لأننا تمكنّا من حرف الحلم عن مساره. أضاء وجهها على حين غرة فالتفتت إلى الفراش الواقع على شمالها، ونظرت إلى اليدين اللتين كانتا مبسوطتين خارج البطانية، وقد انتشرت عليهما بقعاً قهوائية اللون فعادت العتمة وأرخت سدولها على وجهها. يومها بدا لي جبل (بيشبارماك)، الذي كان يتراءى لنا عبر النافذة، أنه جيء به إلى وسط الغرفة في لمح البصر ثم انحسر ثانية إلى مكانه وتحوّل الفراغ الذي خلّفه إلى صمت عميق. أما نحن فسكتنا لكي نصغي لذلك الصمت الموحش. ثم نهضت أمي وراحت إلى الغرفة التي كانت تتخذها بمثابة مخزنٍ لحاجياتها. أخذت تقلّب الأشياء هناك. ولم تمضِ مدة طويلة حتى عادت تحمل بيدها حبلاً متيناً. أنا و(نهاد) بقينا نراقبها من مكاننا بصمت، ومن دون أن نأتي بأية حركة. ننظر إليها متسائلَين ماذا ستفعل!

– هيا! – قالت – لا تقفا هكذا! خذا هذا الحبل واربطاه في السقف عند رأس أبيكما.

حينها شعر أبي بالحركة حوله فرفع رأسه قليلاً ونظر إلينا من مكانه. فأومضت مقلتاه بوميضين أخضرين.

– من أين جاءت مسألة الحبل! – قال.

فقالت أمي:

– أيها المؤمن! أنت لا تستطيع بنفسك التقلّب من هذا الجانب إلى جنبك الآخر، وإذا أردت تتعدّل في فراشك فلا تستطيع أن تتنحنح في سريرك. وتجدني أقوم بأعمال هنا وهناك. ربما أكون في تلك اللحظة في المطبخ أو في الحديقة، ولربما أكون في زيارة إلى الجيران لأمر ضروري، أو أكون قد ذهبت إلى السوق للتبضع، فإذا كان هنالك حبل عند رأسك لمسكت به وتقلّبت في مكانك دون الاستعانة بأحد. أليس هذا أفضل؟

أومأ أبي برأسه علامةً على موافقته على كلامها.

أنا لا أجيد الأعمال من هذا النوع، فراح (نهاد) إلى عدد من الجيران وجاء بمثقب ومسمار إسمنتي وثبت حلقة حديدية في السقف ثم ربط الحبل على نحو يصل طرفه إلى متناول أبي وهو مُمَدٌّ على فراشه. كانت والدتي تراقبه باهتمام بالغ، ولم تبارح المكان منذ البداية. حتى أنها اختبرت الحبل مرات عديدة، بعد أن انتهى العمل. سحبت الحبل وهي تضغط على أسنانها. سحبته بكل ما أوتيت من قوة في محاولة منها لقطعه، أو اختباره، إن كان يسهل قطعه أم لا. ومن بعد ذلك قالت لا بأس بها قوية! ومسدت ظهر (نهاد) علامة على رضاها منه بإزاء العمل الذي قام به. وفي الحقيقة إن أمي أرادت أن يُعَلّق الحبل هناك إلى السقف عند رأس أبي، ليس من أجل أن يستعين به عندما يريد التقلّب في سريره وحسب بل من أجل أن يقاوم خالي (عزت) ويتشبث به إذا أراد أن يصطحبه إلى عالم الأموات عنوةً. لكي يبق متشبثاً بالحياة. أو أن الأمر تراءى لي هكذا في ذلك الوقت بينما كنت أراقبهما من مكاني على الكنبة المقابلة. لهذا السبب انتابتني حالة غريبة. وفجأة شعرت بالحزن.

لم أستطع السيطرة على مشاعري فكدت أنفجر باكياً. هرعت إلى الشرفة بحجة التدخين، ومن أجل ألّا يسمعني أحد إذا ما غلبني البكاء.

وفي اليوم الثاني نحو المساء:

- لا هذا لا يروق لي - قالتها أمي، وطلبت أن يرفع الحبل من هناك.

- لِمَ لا يروق لك؟ - سألها (نهاد).

- لمَ يتسنَّ لنا أن نفكّر! - قالت أمي وهي تلملم الحبال إلى أعلى بعجالة وتنظر بقسوة - ألا ترى هذا، إنه يجرح كفّ أبيكما.

أخذ (نهاد) يتبلعم وينظر إلى الحبل تارة وإلى السقف تارة أخرى. وما هي لحظات مرت حتى هرعت والدتي إلى المخزن وجاءت بملاءة وقصَّتها بالطول على شكل شرائط طويلة، ثم تناولت إبرة وخيطاً وأخذت تبرم تلك الشرائط لكي تكون بغلظ كافٍ لكي يتمكن المرء من المسك بها بسهولة وراحت تخيط بعضها ببعض. ثم طلبت أن تُعلَّق في الحلقة الحديدية الموجودة في السقف.

- الآن صارت أحسن من السابق، قالت أمي وقد شبكت يداً بيد، وراحت تنظر إلى السقف. ثمَّ مرَّت إلى الطرف الآخر وجلست إلى الوسادة عند الطباخ. في حين كان أبي يغطّ في نوم عميق تحت البطانية.

كان الليل على وشك أن يرخي سدوله. الأصوات القادمة من الخارج قد تكاثرت، وملاءات الشبابيك أمست أكثر قتامةً في العتمة. التفتت أمي إلينا وقالت بصوت خفيض:

- البارحة أبوكم لم يراوده النوم قط! آلامه وأوجاعه لم تتهاود أبداً. لا أفهم لماذا تخونه كل هذه العقاقير رغم أنه مواظب عليها. ثم أنه تذكر (سعاد) صباحاً في أوان الفجر. سألني كيف مات؟ لم يحضر مراسيم الجنازة في تلك السنوات لأنه كان يشتغل سائق شاحنة أجير عند الغير. ماذا أفعل؟ اضطررت إلى سرد الحكاية له. استمع إليَّ دافناً وجهه بين كفيه. وكأنه كان يصغي إليَّ بكل جوارحه. ومن بعد ذلك لم يتحمل أكثر فراح يبكي وهو ينشج في البكاء ويسحب الهواء في منخريه.

– أنا لا أعرف شيئاً عنه، من هو سعاد – قال (نهاد).

– أنت ولدت بعد مرور سنتين على وفاة (سعاد) – قالت والدتي – كيف لك أن تعرف شيئاً عنه؟

– يعني لم تحتفظي ولا بصورة فوتغرافية له...

– لا! – قالت أمي – وهل كانت هنالك ماكينات للتصوير في البلدة في تلك السنوات! تلك الاختراعات ظهرت فيما بعد.

ثم لُذْنا نحن الثلاثة في أذيال الصمت.

– حسنٌ يا أمي – قلت – ألم تحتفظي بأي شيء من بعده كذكرى؟

– كيف يمكن ألّا أحتفظ بشيء يذكرني به! – قالت وهي تتنفس بعمق – أبوك كان قد جلب له معطفاً من الخارج. كان شيئاً يسرّ العين، جذّاباً، ذا أزرار كبيرة. كان تحفة رائعة. لا أدري هل اشتراه أبوك خصيصاً، أم أنه عثر عليه مصادفة وقام بشرائه. كان المعطف أخضرَ غامقاً مثل عينيه. يمكنني القول إنه كان في غاية الروعة. عندما كان (سعاد) يرتدي المعطف كان المعطف بدوره يأسره، يظهره أكبر من عمره. يغيّر مشيته كما يغير نظراته. كان المعطف يليق به بشكل منقطع النظير... وبعد موته قضيت سنوات طويلة أشمّ رائحته في المعطف. وكلّما شدّني الحنين إليه أخرجت المعطف من الصندوق، احتضنته، قبلته وعفّرت به وجهي.

سألتها بلهفة:

– أهو موجود؟

– أواه يا ولدي أواه – قالت أمي – كنت قد خبأت المعطف في صرّة من قماش أبيض، ناصع كالثلج، مطرَّز برسوم الطيور. عندما كنت أخرجُه لأشمَّه وأقبّله في كلّ مرة، كنت أحرص باهتمام على إعادته إلى الصندوق الذي كنت أحتفظ به فيه. في ذلك اليوم الذي سافر فيه أبوك إلى (أنقرة) لعمل ساقٍ اصطناعية له، حيث خابرتك أنت وأبلغتك أنّ أباك قادم إلى هناك. أجل في ذلك اليوم نفسه! لا أدري ربما لأنني كنت أشعر بالوحدة في البيت تذكرت (سعادي) ومرت ذكرياته أمام عيني. سمعت صوته

المعسول الشبيه برحيق الأزهار، تراءت لي ملامحه البريئة وضحكته البراقة... خُيّل إليّ أن فلذة كبدي قد خرج من قبره وجاء إليَّ يتراقص ويدور حولي. يومها تاقت نفسي كي أُخرج المعطف وأشمّه فذهبت إلى الصندوق وجلست عنده. مسكت غطاء الصندوق! لا أدري هل مسكته بيدي أم بقلبي، لا أدري فالمهم أنني مسكت بالغطاء وفتحته على مهل. فتحت الصندوق وما راعني هو أنني لم أجد الصرة ولم أجد المعطف. بحثت عنه في أرجاء البيت. لم أترك فجوة ولا «مزغلاً» إلا وفتشت فيه. صرت أدوِّر بلا هوادة في البيت كالفرّارة، ولكن دون جدوى. لم أجدْه، لم أجدْه! إلى الآن لم أفهم كيف فقد المعطف من البيت، وكأن الأرض انشقّت وابتلعتْه.

- يعني غير موجود الآن؟

- غير موجود يا بني! منذ اليوم الذي سافر فيه أبوك بالقطار إليك، إلى أنقرة!

في تلك اللحظة دبَّت الحركة في أبي. فتح عينيه، وأخذ ينظر إلى محيطه بخواء وكأنه يريد أن يفهم أين هو الآن. فِلأجل ألّا يحزن أو يجدَ سبباً للبكاء سكتنا على الفور، وأغلقنا موضوع (سعاد) إلى الأبد.

(نهاد) كان ينتظر أن يخلد أبي إلى النوم لكي يغادر البلدة. نهض فيما بعد وأخذ يهيِّئ حقيبته. ودّعنا وحمل حقيبته قاصداً (تاواس).

وما إن ودّعت أخي (نهاد) حتى خرجت إلى الشرفة كي أدخن سيجارة. في تلك الليلة كان القمر يستحق المشاهدة، تحيط به هالة ضوء في غاية الروعة. أما البلدة فكان يلفّها ظلام شفيف تتخلّله ارتعاصات رصاصيّة متألقة. يخيم عليها صمت عميق بسبب خلو الأزقة من المارة. لم تكن تتناهى إلى السمع أية أصوات سوى اصطفاق باب هنا وهناك من بيوت الجيران. وكان يسمع صوت محرك إحدى السيارات في أسفل منحدر البلدة حيث كان السوق يقام هناك. تُعَتْعِتُ السيارة قليلاً ثم يتلاشى هدير محركها. وما راعني إلا أن سمعت نباحاً متقطّعاً من الوادي الواقع في آخر

المقبرة. خُيِّلَ إليّ أن الكلب المسكين قد صادف في طريقه شيئاً عجيباً هناك وارتدّ على أعقابه من شدة الخوف. كما تصوّرت أنني أرى عينيه المنفرجتين على آخرهما هلعاً ودهشةً وهما تهمّشان منظر أنيابه وصوت زمجرته. فالرعب المنتشر من بين موجات صوته قد جعل الظلام كثيفاً برغم ضوء القمر. لهذا السبب رحت أنظر إلى محيطي وأولي الأشياء اهتماماً أكثر مما كنت أوليه في السابق. لم تمضِ مدةٌ طويلة عليَّ وأنا أنظر وأصغي هكذا حتى خرج ذلك الطفل ذو القميص الأبيض من عطفة الزقاق المؤدي إلى الوادي المتاخم للمقبرة. كان وجهه أشد بياضاً من ذي قبل، بسبب انعكاس بياض القميص وسطوع ضوء القمر. وما إن وقع بصري عليه حتى قلت لنفسي عليك أن تتصرف بسرعة، فناديت على والدتي. وفي الوقت نفسه هرعت من مكاني وانطلقت إلى الداخل كأنني أطير من فوق الوسائد والبُسُط، ورحت أعدو بخطى طويلة صوب غرفة أبي، ولكن بابها كان مغلقاً. ولا بد أن أمي قد سمعت صوتي، فنادت عليَّ من الداخل: لا تدخل يا ولدي. اصبر قليلاً فأنا أهتم بأبيك. حينها اضطررت إلى العودة إلى الخلف. ولا أدري كيف انتعلت حذائي لأنني كنت هلوعاً. انطلقت عبر الباب الرئيس كي أراه عن كثب، فهاجمت أغصانُ البرقوق والعنب المتشابكة وجهي. من بين تلك الأغصان رأيته جالساً على صخرة عند البوابة الخارجية للحديقة. شاهدني هو الآخر فنهض من مكانه وأخذ يعدو، في الوجهة نفسها التي جاء منها، يجرجر خلفه نصاعة قميصه الأبيض. بدأتُ أركض متتبّعاً خطاه. حتى أنني ناديت عليه عدة مرات أنْ «قف يا هذا! أريد أن أكلمك». ولكنه لم يمتثل لي ولم أستطع اللحاق به، إذ غاب في الظلام الذي يكتنف عطفة الزقاق الحادة التي كان يحدّها جدارٌ مبنيٌّ بالطوب. تلاشت صورة الولد كأنه طائرة ورقية ظلت تتمايل بعدما انقطع خيطها. لم تسلْني أمي لِمَ ناديتُ عليها. وفي خضم كل هذا الاضطراب ربما نسيت والدتي أن تسألني لماذا كنت أنادي عليها قبل قليل. بلا شك فالحلم الذي رآه (بكير) كان قد لخبط كيانها، وجعلها كمن يمشي على الأشواك. عندما تكون

في المطبخ أو في الحديقة وتكون منشغلة بأي عمل مهما كان، كانت تهرع فجأة إلى غرفة أبي، تقف لدى الباب لتنظر إليه مليّاً، لتتأكد إن كان يتنفس أو يتحرك. وعندما ترى أن جفنه يرفّ كانت تتنفّس الصعداء، وتسارع في العودة إلى عملها كي تنجز ما تبقى منه. ومن جانب آخر كانت تجد لنفسها مشاغل لا تخطر على بال أحد. في ذات مرة وجدت لنفسها حجة لتنظيم مكان تلك الأدوات الاحتياطية القديمة التي كانت قابعة في «البدروم» منذ عهد النبي (نوح)، وكانت العناكب قد نسجت عليها من نسيجها. أخذتها أمي من هنا وركنتها هناك في موضع آخر من «البدروم». حتى أنها ظلت لساعات تتخبط بنسيج العناكب. وفي مرة أخرى دخلت غرفة المخزن وأعادت ترتيب كل الأشياء من الألف إلى الياء. حيث جمعت كل ما عندها من حاجيات وسط المطبخ لتعيد ترتيبها في أماكن جديدة. وفي مرة أخرى غيرها دخلت مخزن الأفرشة قائلة: منذ مدة لم تسنح لي الفرصة أن أعيد النظر في اللحف. وأنزلت كل اللحف التي لم تستعمل قط. فرشتها في الصالة وغيرت وجوهها بأقمشة جديدة كانت قد اشترتها من السوق. وفي ذات مرة حين استيقظتُ في الصباح الباكر وجدتُها تجني الطماطم من خطوط السواقي في الحديقة. فتحت النافذة وراقبتها طويلاً. كانت تحمل إناءً بلاستيكياً أزرق اللون. تقطف الطماطم واحدة تلو الأخرى وتضعها في الإناء. كانت الشمس تشرق لتوها من فوق جبل (بيشبارماك) إذ يطل قرص الشمس تماماً من بين قمتَي جبلي (ديرك تاش) و(إينليكايا) وتسلط أشعتها المنهمرة من عِلِّيِّين لتغمرَ البلدة بدفئها الممزوج بأمواج من روائح الصنوبر والخزامى والزعتر والعرعر الجبلي والسنديان والأعشاب والسنابل. ومن هدأة الوديان تصاعدت روائح السنابل والأعشاب الرطبة وروائح الطحالب الملتصقة بالصخور. وبينما أنا واقف أمام الشباك، أراقب هذا المشهد الجَلَل وأرى كلَّ ذلك عياناً، شعرت أن هذه الروائح كانت تنعكس على أديم الطماطم التي تقطفها أمي فلم أطق صبراً. ارتديت ملابسي على الفور وهرعت إلى المطبخ. وضعت أبريق الشاي على البوتوجاز. بعد

ذلك، وبقفزة واحدة صرت في الخارج. كنت آمل أن أساعد أمي في عملها. قلت لها وأنا أقترب إليها على مهل:

– يعطيك العافية يا أمي! دعيني أساعدك.

رفعت رأسها فجأةً وسألتني وهي تنظر في وجهي باستغراب:

– أنت منذ متى لم تقُمْ بجني الطماطم؟

في مواجهة هذا السؤال لم أعرف ماذا يتوجب عليَّ أن أقول.

رفعت رأسها ثانية وتفرَّسَتْ في وجهي وكأنها تكرّر عليَّ السؤال ذاته.

– هيا أجبني إن استطعت!

– لا أدري – قلت لها – على أي حال ربما منذ أكثر من أربعين سنة.

– بِئسَ ما قمتم به حين هاجرتُم إلى المدينة – قالت ذلك بصوتٍ حزينٍ منكسر – هيه انظروا إلى هذا! لم يقطف الطماطم منذ أربعين سنة. وهل هذه الأربعين سنة هيّنة؟ لا... لا ترهق نفسك أبداً. أنت لا تجيد هذا العمل بعد هذه السنوات. سوف تقوم بقطع السيقان والأخضر منها.

– لقد جنيتِ كمية لا بأس بها يا أمي. ماذا ستفعلين بكل هذه الكمية من الطماطم؟

– معجون! – قالت.

– ما كمية المعجون التي يستهلكها شخصان اثنان! – قلتُ – لا داعي لبذل كل هذا الجهد. لنشترِ من الدكّانة.

رفعت أمي رأسها وحدجت في وجهي بحنق، وكأنها تريد أن تنهرني. سألتني:

– ذلك الشيء الذي يُباعُ في الدكّانة ولم يرَ الشمس هل تسمّيه معجوناً؟

فلم أَحِرْ جواباً وتسمَّرتُ واقفاً بين أخدودين ترابيَّين.

– اذهبْ وتناولْ فطورك الصباحي – قالت أمي – عليَّ أن أنهي هذه

المسألة مادام البدر تماماً. إذا توانيتُ عن القيام بهذا العمل فسوف يتأجّلُ الأمر إلى الشهر القادم. عليَّ أن أسرع في العمل.

بالطبع لم أفهم ما كانت تعنيه بكلامها هذا. وأزجيت بعض الوقت وأنا أنظر إليها بنظرات خاوية.

وعندما وجدَتني أنظر هكذا ببلاهة، قالت:

– يا بني! هذه الأعمال لا تنجز حين يكون القمر هلالاً، فعلى سبيل المثال لا تُشرَّح الشعرية ولا تجفف (الطرخانة) ولا يُعمل المعجون ولا يُغلى دبس العنب. فإذا عملت كل هذه الأكلات والقمر هلالاً لفسدت وحلَّت فيها الديدان. وإنْ لم تتكوّن فيها الديدان فلنْ تحلَّ فيها البركة. ومن أجل أن تُحفظَ هذه الأطعمة لمدة أطول يُشترَطُ إتمامها عندما يكون القمر بدراً. هكذا سمعنا من أجدادنا.

– هذا كنت أعرفه – قلت.

كانت تجلس القرفصاء عند أخدود الشتلات، تقدَّمتْ وهي تتلوَّى في جلستها. وما إن وصلتْ نهاية الأخدود حتى وضعت الإناء الذي كانت تحمله وتعدَّلَتْ في جلوسها بتؤدة.

– أنت متى ستعود إلى (أنقرة) – قالت فجأة – لا بدَّ أنَّ أفراد العائلة ينتظرونك.

– لا أستطيع أن أترككم يا أمّاه! وأبي على هذه الحالة – قلت.

فأغضَتْ بصرَها وأزجتْ بعض الوقت تنظر إلى التراب.

– أنت يا ولدي قاسيتَ الكثير، تشتَّتَتْ نفسُك بين (أنقرة) و(دنيزلي) – قالت بصوت حزين – لا أدري ماذا يتوجب علينا أن نفعل! لا أدري يا ولدي. ها أنت ترى وضع أبيك. حالته تسوء يوماً بعد يوم. تحدَّثَ إليَّ ليلة البارحة. أخذ يدور بالحديث من هنا إلى هناك حتى جاء به مجدداً إلى (سعاد). سألني كيف مَرِضَ، كيف مات؟ وكيف كانت جنازته؟ ثم طلب إليَّ أنْ أحكي له كل المجريات وبالتفصيل الممل. وبينما كنتُ أقصُّ عليه الوقائع، كان المسكين يتألم كثيراً ويشعر بنفسه وكأنه يشترك

في مراسِم الدفن. ماذا أفعل يا ولدي؟ طلب إليَّ فأُجبِرْتُ على تلبية طلبه. كان يصغي إليَّ محنياً رأسَه، وبكفَّيه كان يعتصرُ البطانية المسجَّاة على ركبتيه، ثم قال لنعمّر قبر الولد من جديد. الآن وبعد مرور اثنتين وخمسين سنة. وما إن نطق بكلماته هذه حتى أراح وجهه بين راحتيه وأجهش بالبكاء ثانية.

لم أستطع أن أنبس ببنت شفة. لم أقلْ أي شيء ولكنني أومأت برأسي بخفّة دليلاً على أنني أتفهّم مُكابدات أبي.

في الحين شاهدت الخالة (كولفم) والعم (أيوب) خلفها، يتبعها على بعد خطوة واحدة. كلاهما اقتربا إلى حائط الحديقة بخطوات قصيرة، بعد ذلك وقفت الخالة (كولفم) مستندة على عكازتيها. أطلّت برأسها من فوق الحائط بعد أن استطاعت تأمين توازنها بين العكازتين، وراحت تنظر بعينيها الصفراوين.

– هيه، يا امرأة! – قالت مخاطبة أمي بصوت واهن – لم أعد أقوى على صعود المنحدر الذي بنيتموه أمام بابكم، ولا أستطيع الدخول إلى بيتكم. كيف حال عزيز؟ هل هو على ما يرام؟

– كيف هو! – قالت أمي متشكّية – إنه مثلما تعرفينه! لا شيء جديد.

أغمضت العمة (كولفم) عينيها وأخذت تهزّ رأسها يميناً وشمالاً وكأن بها تقول: «أوَّاه، أوَّاه يا لضيعَتنا!».

ومن بعد ذلك وبرغم مشيهم المعهود على خطواتهم القصيرة نفسها غابت العمة (كولفم) يتبعها زوجها العم (أيوب). غابا معاً وكأنهما كانا مجرّد شبحين، مرّا من هنا وتلاشيا فجأة.

قضت أمي سحابة يومها تكدّ وتتعب إلى حلول المساء. جاءت بصلصة الطماطم التي صنعتها، وظلت تفرشها بالمغرفة الخشبية في صواني نحاسية أعدتها لهذا الغرض. ومن بعد ذلك أخرجنا الصواني ووضعناها جنباً إلى جنب في الشرفة لكي ترى الشمس.

بينما كنا نهم بتغطية الصواني بملاءات بيضاء كان الجو قد بدأ يرخي سدوله، والسهل المضبب كان يتخذ وضعية صياد ينصب الفخاخ. والشارع الأسفلتي المؤدي إلى (أوشاك) كانت تتعذّر رؤيته بالعين، أما سلسلة جبال (آخلات) فكانت قد مُحِيَت تماماً. جبل (جوكالاز) الذي بقي خلف كل تلك المعالم كان قد تقهقر إلى الخلف بكل تضاريسه ووديانه الوعرة، والقرى المنتشرة على سفوحه. وفي الوقت نفسه كانت الأشجار قد بدأت تتراصف بعضها جنب بعض في صفوف متوالية. وفيما كانت الأشجار تتراصف فيما بينها كانت مصابيح البيوت تضاء بالتناوب أيضاً، بالتزامن مع إضاءة مصابيح الأعمدة الكهربائية في الخارج.

وما هي لحظات حتى جاء خالي (حسين) قادماً من الباب الرئيس للبيت وهو يلعب بمسبحته التي كانت تلتمع حباتها الصفراء. وبعد سبعِ أو ثمانِ دقائق حضر اثنان من أحفاده مع أحدِ أولاده ومعهم العمة (هجران) ومن بعدهم جاء خالي (وقاص) هازاً كرشه. وفيما كان (وقاص) يخلع حذاءه لدى الباب وصل (زبير) وزوجته وأخت زوجته. وما إنْ دخل هذان عبر الباب حتى جاء (جاويد) و(بكير) ومن بعدهما تقاطَر إلى البيت صهرنا (متين) مع خالتي الصغيرة بصحبة جمهرة غفيرة من أولاده وزوجاتهم. وهكذا صارت الغرفة مثل علبة سردين، لم يبقَ فيها موطئ قدم لأيّ زائرٍ آخر، الأمر الذي دفع صهري (متين) إلى إزاحة طرف البطانية بشيء من الشعور بالخجل، والجلوس على حافة الفراش عند قدمَي أبي. وبرغم هذا الزحام الذي شهدته الغرفة في تلك الأمسية كان خالي (عزت) الغائب يقف هناك بطول قامته بالقرب من خالي (حسين).

كان (بكير) قد مر عبر زحام الغرفة وهو يمسّد رأس الأولاد بحنُوّ ووجد لنفسه موضعاً للجلوس على وسادة في ركن قَصيّ. وكان يجلس دون أنْ يأتي بأية حركة أو ينبس ببنت شفة، مثل قطة اقترفت ذنباً بسكبها إناء حليب. وفي الحقيقة أنّ (بكير) كان يزاور عينيه عن عيني والدتي. يخشى أن ينظر إليها، ولكنه برغم سعيه ألّا تلتقي نظراتهما كان يزداد

ارتباكاً. ويظل خافضاً بصره إلى الأرض لمدة دقائق، حتى كان يخيل للرائي أنه مستغرق في النوم. أحياناً كانت يده تمتد إلى السجادة لتمسّد على نسيجها، أو تتجوّل أصابعُه على الزخارف لتعديلها. وكأنها كانت قد الْتَاثَ بعضُها ببعض. وفي بعض الأحيان كان يعدّل ظهره المحني ويترنَّح مرةً إلى اليمين ومرةً إلى الشمال، وتذهب يدُه باحثةً عن شيء ما في جيوبه. بالضّبط في تلك اللحظة كانت تنتاب والدتي نوبةٌ من القلق قاسية، إذ كانت تتصوّر أنّ (بكير) مقدمٌ على إخراج الحلم من أحد جيوبه وعرضه على أبي. تنفرج عيناها على آخرهما وتخيّم علَى مُحيّاها غيومٌ معتمة. وكأنّ شفتيها تتباعدان، كأنهما على وشك أن تنفرجا عن صرخة مدوّية. أعتقد أنّ (بكير) قد شعر بمدى القلق الذي ينتاب والدتي، فلم يهنأ له الجلوس. وبعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة طلب الإذن بالمغادرة، وخرج خجلاً، منكسراً، دافناً رأسه بين كتفيه.

حين أراد (بكير) أن يغادر الغرفة كان جميع من فيها يتحدثون عن حفل الزفاف الذي أقيم قبل أسبوعين، وعن المأكولات التي قُدّمَتْ، ثم عرّجوا على المشروبات وقارنوا بينها وبين المشروبات التي كانت قُدِّمَت في حفل آخر لم أعرف لمن هو. عندئذ انبرَتْ زوجة (زبير)خالتي الصغرى قائلةً: «أقطع كلامكم بخير!»، وبنبرة فيها ازدراء أخذتْ تعدّ المُخَشَّلات التي كانت تتقلّدها العروس. قالت: «كانت تتقلّد ليرة خماسية[37] واحدة، وثلاثة سوارات مبرومة، وسواران فيهما منمنمات». ثم مثَّلَت ذلك بيدها قائلة: «وكل واحدة منهن بهذا القدر. لا! وفي رقبتها قلادة مرصعة بالكرستال. أظنّ إنك لم ترها. كانت الملاءات الكثيرة في ثوب عرسها تحجب رؤية القلادة». بعدها التفتت إلى صهرنا (متين) وقالت: «أيُّهَذا ألمْ تكن موجوداً هناك؟ أنت أيضاً شاهدت تلك القلادة التي كان سناها مشعّاً، أليس كذلك؟». فلم يَحِرْ (متين) جواباً. اكتفى بالنظر إلى وجهها مستغرباً وكأن به يقول: «وهل أنا ذلك الرجل الذي يهتمّ بأمورٍ تافهة

37- ليرة ذهبية سمكها يبلغ بقدر سُمك خمس ليرات ذهب - المترجم.

كهذه!». وفيما كانت خالتي تتكلم هكذا، انبرت شقيقة زوجة (زبير) إلى القول: «أستغفر الله وأتوب إليه! أنا لم أشاهد قلادة ولا أي شيء مما تذكرين». قالتها وتنفَّستْ الصعداء كأنها تصدَّت لعملاق مهاجم، وطرحته أرضاً بضربة واحدة. وكأن بها ترمي بالخنجر الذي أسكتت به العملاق إلى وسط الغرفة متحدّية كل من يدّعي بوجود القلادة المزجَّجة.

وهكذا احتدم أوار المساجلات بين الحاضرين. بين مَن رأى القلادة وبين مَن لم يرها، منقسمين إلى فريقين. فريق كان يقعي على السجادة في الوسط، وفريق انطوى على نفسه وهم يرسمون بأصابعهم خطوطاً من نسج أخيلتهم، يقسمون بأغلظ الأيمان، وبصيحات (بالله وتا الله) وكانوا بذلك يزيدون صب الزيت على نار المناقشات. وفي أثناء ذلك راح الفرقاء يلمسون أيدي بعضهم بعضاً، ورُكَبَهمْ وأكتافَهم. وبينما احتدم الصخب في الغرفة وأخذ يعلو باتجاه السقف إلى أعلى راح كل واحد منهم يسحب صاحبه من كمّ قميصه، أو يشاجره. أما أبي فكان ينظر إليهم من مكانه فوق السرير، ولا يألو جهداً سوى مراقبة ما يجري، مسنداً جذعه بثلاث وسائد، وضعهُنّ على نحو ملائم لرأسه وكتفيه وظهره.

في تلك الأمسية جاءت المساجلات حول القلادة المزججة بالمرايا بنتائج وخيمة، إذ دخل النقاش المحتدم في طريق مسدود. فكان أن تسلّم (جاويد) زمام الأمور وانبرى مخاطباً جميع الفرقاء. أخذ يرفع صوته، وهو يعيد إلى الأذهان مسألة الدرّاجة النارية. فدارتْ دفّة الحديث بينهم حتى استقرّ على النزاع الذي كان قد نشبَ بين أهل البلدة بسبب الدرّاجات النارية. ثم جاؤواعلى ذكر المسكين (حرمت)[38] الذي أُصيب في إحدى تلك النزاعات. خالي (وقاص) الذي كان منشغلاً طول الوقت يلعب بأزرار صديريته سأل الحاضرين عن كيفية إصابة (حرمت) وعن اعترافات سليمان الذي أصابه في حوضه. سأل الآخرين هل عرفتم شيئاً عن إفادته التي أدلى بها في مركز الدَّرَك؟ فقال (جاويد): «أنا سمعت

38- اسم علم مذكر - المترجم.

القصة ولكن مع ذلك أرجو أن تعيدَها. ربما لم يسمع بها الكثيرون».
قال خالي: «هذا التافه (سليمان) قال في إفادته أنا في الحقيقة قد رأيت شبحاً لهذا السبب أطلقتُ عليه النار. من لم يكن يعرف بحقيقة الأمر استغرب لدى سماعه بإفادة (سليمان) وقال بعضٌ منهم: من يصدق بهذا الكلام! ألم يكن من الأفضل له لو لفَّقَ كذبة أخرى معقولة. من يصدِّق بهذا الكلام؟». شقيقة زوجة (زبير) وحدها كانت تفكر في هذا الموضوع بشكل مغاير تماماً. رفعت ذقنها إلى فوق بقوة وقالت بصوت فيه شيء من الغنج: «وما أدرانا؟! ليس مستبعداً! ربما رأى (سليمان) شبحاً». فمال (زبير) إليها برأسه، ثم مدَّ رقبته ونظر إليها بامتعاض وكأن به يقول «هذه لا تبشر بالخير أبداً». بعد ذلك دار الحديث وجاء إلى ذكر الخنازير التي كانت تعيث في حقول الكروم فساداً.

في تلك الأثناء فجأةً سُمِعَ صوتُ صهيل الحصان من الهاتف النقّال العائد لخالي (حسين). وأنا جالس في مكاني ذُهلْتُ. كأن بي رأى ذلك الحصان ذا اللون الحليبي الذي كان يختفي في (جارداق) على سفح جبل (مايمون) قد فاجأنا بدخوله الغرفة علينا. ثم التفت صوبَ خالي ونظرتُ إليه وأنا أبلع ريقي بخفّة.

مال خالي بجذعه إلى شماله واستلقى على مهل ثم أخرج هاتفه من جيبه.

نظر إلى صفحة الهاتف بعينيه المخضلّتين الحزينتين وكأنهما حارسان كئيبان يقفان على عتبة باب البكاء. تنفّس بعمق ثم قرّب الهاتف إلى أذنه.

– نحن لا بأس بنا يا ولدي! – ثم قال بصوت بارد: أرجو أن تتصل فيما بعد. لا تنسَ أن تكرّر الاتصال بي على الدوام.

– أيُّهَذا! – قالها (جاويد) وهو يسترق النظر إلى خالي الذي كان يحاول إعادة الهاتف إلى جيبه – وهذا الذي اصطاد تلك الخنازير لم يتعرَّف أحدٌ على هويته، أليس كذلك؟

– السنة الماضية أنا رميتُها – قال (زبير) – تلك المخلوقات، النذلة كانت قد دخلت إلى بستاننا الكائن في (كوك بينار) فذهبنا نحن أيضاً، حالنا حال الآخرين، واشترينا بروجكتورات من السوق، غير مبالين بالنقود. اشترينا اثنا عشر بروجكتوراً بالتمام والكمال، أخذناها ووزَّعناها كلّها على محيط البستان. إلا أنها لم تنفعنا بشيء قَطّ. لأن الخنازير لم تكن تأبه للأضواء الكاشفة، وبالإضافة إلى ذلك كانت تأتي إلى الشتلات التي عاثت فيها خراباً قبل يوم واحد، تستدل بها حتى في الظلام الدامس من دون أي عناء.

– نعم والله إنها تعثر على المكان – قالها خالي (وقاص) – ما تقوله هو الصدق بعينه.

فأردف (زبير) قائلاً:

– ففي السنة الماضية حطّمت الخنازير خمسة أو ستة صفوف من شتلات الكروم، ولم تترك من بعدها عناقيد ولا أراك إلا وأفسدتها. وكذلك تسبَّبَتْ في كسر الكثير من الأغصان. عندما رأيت ما آل إليه الوضع في البستان جُنَّ جنوني، وقفز الدم إلى يافوخي. فعاهدتُ نفسي أن أضرب أيَّ خنزيرٍ أراه بطلقٍ ناري بين عينيه تماماً. وفي اليوم التالي انطلقنا إلى البستان على متن جرَّار. نصبنا كمائنَنا حال وصولنا إلى المكان. فأجلست زوجتي وشقيقتها في حفرة. أعطيتهما بروجكتوراً وتعليمات بأنْ تُوجِّها الضوء الكاشف بالاتجاه الفلاني عندما تظهر الخنازير. قلتُ: ستوجهان الضوء بهذا الاتجاه إذن. قلن لي: نعم سنوجه الضوء بالاتجاه الذي طلبته. أما أنا فأخذتُ بندقيّتي وتقدّمت إلى مكان أبعد قليلاً من هنا، ولبدت في خندق خلف أخدود إحدى الشجيرات. بقينا ننتظر هناك إلى منتصف الليل، بلا أدنى حركة، وكأننا غير موجودين البتة. فتيبَّست حلوقُنا من طول الانتظار، وأصاب الخدر أرجلنا وأيدينا. وبعد انقضاء بعض الوقت، لا أدري كم مضى علينا ونحن ننتظر، سمعنا طقطقة أغصان وحفيف أوراقها قادمة من قلب الظلام الدامس. بعدها

أخذت أصوات تكسّر الأغصان وحفيف الأوراق تُسمع بوضوح، حتى حضرت الخنازير إلى المكان نفسه. حيث الأخاديد التي عاثت فيها خراباً ليلة أمس. وراحت تقترب أكثر فأكثر، فما كان من جماعتنا إلا أن أضاؤوا البروجكتورات، فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع خنزير. ولأنني كنت على أهبة الاستعداد وكانت بندقيتي محشوة فصوبت إلى هدفي وأطلقت النار دون تأخير. طرحت الزنديق أرضاً بأول طلقة. أصغيت السمع. كان الخنزير يتمرّغ في الأرض. يطلق حشرجة ويصدر نخيراً. ومن شديد إصابته كان يحفر التراب بمنخريه مثل أية جرافة. كان ينفث أنفاساً بسمك عضد الرجل، كأنها وابل من النار تحرق أوراق الشتلات. وما إن رأيت هذا المشهد حتى قلت بيني وبين نفسي: خلاص هذا تم القضاء عليه. أمّا ما كان من أمر زوجتي هذه وشقيقتها، ففي أثناء ذلك كانتا تولولان، تتقافزان كالقرود وتصيحان: لقد أصيب! لقد أصيب الخنزير!

سكت (زبير) فجأة والتفت لينظر بغضب إلى زوجته وشقيقتها.

- أي وماذا حلّ بالخنزير؟ هل نفق؟ - سأله (جاويد).

فقال زبير وهو يتأفّف:

- وهل يموت الخنزير إذا أقامتْ زوجتي وشقيقتها الدُّنيا.

- وما علاقة هذا بذاك يا صاحبي؟ - قالها (جاويد).

كان (زبير) قد استشاط غضباً - قال:

- هنالك علاقة! فإذا أصدرت صوتاً أو ولولة فإنّ الخنزير يتشبّث بالصوت وينهض مهما كانت جراحه. ولن يموت! فعندما ترميه ويسقط، عليك ألّا تصدر أي صوت.

- يا إلهي! - قالها خالي (وقاص) - لم أسمع بهذا من قبل!

- الأمر هكذا! - قال (زبير): بعض المخلوقات لا تموت متأثرة بجراحها، بل يقتلها الإهمال.

نظر محدقاً باتجاه زوجته وشقيقتها مرة أخرى وهو يقول هذا الكلام.

بعد ذلك أخذَ أوارُ الحديث يخبو شيئاً فشيئاً، والكلمات أخذت

تقصر، والوجوه تشحب، والنظرات تتفرّق. بعدها قام جميع من حضروا إلى هنا قومة رجل واحد، وهم يقولون: لقد تأخّر الوقت. ثم مرّوا بالتناوب من تحت متسلّقات الكروم والبرقوق وتفرّقوا في جوف الظلام.

حينما فرغ البيت من الضيوف بدت الجدران وكأنها تنفست الصعداء. حتى الستائر خفّ انسدالها، والأضواء كأنها أينعت من جديد. أما أبي فقد دفع البطانية برجله إلى طرف السرير، وطافت عيناه لبعض الوقت في أرجاء الغرفة.

– أيُّهَذا! قالها أبي: الكلام الفارغ يتسبب في تيبس الحلق، ولا فائدة ترجى منه.

– ماذا تقول يا رجل! قالت أمي وهي تلملم أقداح الشاي وتضعها على الصينية.

– لا أدري لماذا يأتي هذا الجمع الغفير؟ تساءل أبي وهو يلوّح بيده. رأسي صار مثل قِدْرٍ مَغلي.

فأحنت أمي رقبتها وظلت لبعض الوقت تنظر إليه وهي صامتة. ثم التفتت إليَّ وقال:

– هذا أبوك يا ولدي! عندما لا يأتي أحد، يتشكّى ويقول: «لم يعد يعتبروننني موجوداً على قيد الحياة. لقد وضعوني في عداد الأموات لذلك لا أحد يأتي لعيادتي». وعندما يحضرون يقول: «ها إنهم يتهافتون عليَّ. وقد غدا رأسي مثل قِدْرٍ مَغلي».

أبي استرق النظر إليها وظل لبعض الوقت يحدّق فيها بغضب. ثم تمسّك بالحبل المتدلي من السقف بكلتا يديه وهو يتأوّه، ثم انقلب على جنبه. أراح رأسه على الوسادة ومن بعد ذلك أرخى بدنه بتؤدة. فاقتربت أمي إلى سريره من ناحية قدمه وغطته بالبطانية.

– هل تريد مني أي شيء؟ – سألته أمي وهي تغطيه.

فلم يَحِرْ أبي جواباً. لم يتكلم ولكنه رسم بيده إشارة دلالة على أنه لا

يريد شيئاً. ارتفعت أصابعه ويداه ذات البقع القهوائية وبعد أن لوّح بهما لأمي، عاد وأراحهما على الوسادة.

أما أنا فذهبت إلى الخارج في أثناء ذلك. مررت من تحت متسلقات الكروم والبرقوق ويمّمتُ صوب باب الحديقة الخارجي. كانت الأزقة والبيوت وفناءاتها قد غالبها النعاس، والبلدة برمتها كانت غارقة في صمت عميق. لا يسمع في الأرجاء أي صوت سوى غمغمة جبل (بيشبارماك). ولم تكن تلك الغمغمة تسمع إلا بالكاد، وذلك عندما يطيل المرء النظر في الجبل. يشعر بها المرء بوضوح عندما يتأمل الجبل. في تلك الليلة وجدت نفسي قد أشعلت سيجارتي ورحت جالساً على الصخرة المركونة لدى باب الحديقة، وأنا أطيل النظر قُبلاً باتجاه الجبل. وبينما كنت كذلك فكرت بالصبي ذي القميص الأبيض، ذلك الصبي الذي كان يتراءى لي بين الفينة والأخرى. بعد ذلك تذكرت أنني كنت مولياً ظهري إلى البلدة، مستقبلاً الجبل، بالضبط مثل ذلك الفتى، فنهضت من مكاني.

في تلك اللحظة بالضبط خرج أبي من باب المنزل، مرّ من تحت المتسلّقات، وهرع إليَّ من فوره، كأنه يركض، تبدو على وجهه أمارات الاضطراب. على الرغم من أنني ومنذ سنوات طويلة أدخّن وهو يعرف ذلك، سارعت إلى إخفاء سيجارتي عندما رأيته. طويت ساقيَّ ووضعت السيجارة تحت الصخرة.

– هيا بنا هيا! – قال أبي عندما اقترب إليَّ: هيا بنا يتوجب علينا أن نعثر على (نجاتي)!

– تقصد ابن عمتي؟ سألته وأنا أتفحّص ملامح وجهه باستغراب.

فأخرج أبي مظروفاً من جيبه، مدّه إليَّ ثم سحبه.

– نجاتي حاز على قبول في الثانوية البحرية. قالها بصوت مضطرب. عليه أن يتواجد في اسطنبول يوم غدٍ. هيا تعالَ معي!

فانطلقنا أنا وأبي كأننا نسابق الريح في انحدارنا صوب سوق البلدة.

قمنا بتشغيل الـ(ميني باص) الذي كان مركوناً عند شجرة الجمّيز. ولم نتلكّأ طويلاً حتى خرجنا عبر طريق (داغال) إلى شارع (أوشاك) الأسفلتي الذي كان يمتد في قلب السهل المنبسط. كنت أجلس إلى يمين أبي في المقعد الأمامي، وأحدق في الشارع الأسفلتي الممتد إلى أعماق الوحشة. حينما اجتزنا (جيتاك) كان القمر قد غاب، وخيّم على الهضبة ظلام دامس.

- أبي! - قلت: أين هو المعلم نجاتي؟

- في (جيفريل) - قالها أبي: يقال إنه يعمل هنالك منذ عشرة أيام في موقع للبناء. خالتك وزوجها لا يعرفان القراءة والكتابة يا ولدي. رميا المظروف الذي جاء به ساعي البريد إلى جانب. اليوم علمنا بالأمر.

- حسنٌ، كيف سنجده في (جيفريل)؟ هل لموقع البناء من عنوان؟

لم يجبني أبي. عيناه كانتا شاخصتين على الطريق. لاذ بالصمت لبعض الوقت.

- ليس له عنوان ولا أي شيء يدلّنا إليه يا ولدي! - قال: ولكننا سنجده. إذا اقتضت الضرورة سنقلب عالي (جيفريل) سافلها. لا بد لنا أن نجده لأن مستقبل الولد (نجاتي) موجود هنا في جيبي. فمن أجل أن يسجل اسمه في البحرية يجب عليه أن يحضر غداً في تلك المدرسة في (بكلربكي)[39] اسطنبول.

- أفهم ذلك! - قلتُ لأبي.

بعد فترة وجيزة اجتزنا قرية (يامانلار) ودخلنا (جيفريل). هناك بدأنا نتجوّل في أزقّة مبلّطة بالأحجار، مضاءة بمصابيح صفراء. وفيما

39- قصر (بكلربكي) يقع في حيٍّ يحمل الاسم نفسه، يطلّ على (مضيق البوسفور) في الجانبِ الآسيويِ من اسطنبول. شمالي الجسرِ المعلق. بوشر ببنائه سنة 1860. صمّمه المعمارِي (سركيس باليان) على الطراز الباروكيّ. انتهت أعمال البناء فيه سنة 1865. في العهد الجمهوري شغلته دوائر حكومية مختلفة. في السبعينيات من القرن المنصرم شغلت الثانوية البحرية جزءاً منه، حيث تخرّجت دورات عديدة فيها - المترجم.

كنا نجوب الأزقة بشكل عشوائي بدأنا ننظر يمنة ويسرة لعلنا نرى موقع بناء. وفي هذا الهزيع من الليل كانت (جيفريل) غافية، الأزقة خاوية. توجه أبي بحافلته الـ(ميني باص) إلى الأزقة الفرعية، سالكاً طرقها غير المعبَّدة. بعدها أخذ يخوض الطرقات الترابية التي تمرّ من بين كتل الأشجار المظلمة في بساتين الكروم والتفاح. هنالك قضينا بعض الوقت نجوب الأرجاء يصحبنا حفيفٌ مظلم، تحتكّ الأغصان والأوراق الرطبة بزجاج حافلتنا، وبعد أنّ أمضينا وقتاً غير قصير في تجوالنا توقّفنا وسط شجيرات يكاد يبلغ طولها طول واحد من البشر، مدعومة بأعمدة خرسانية. ترجّلنا من السيّارة، وأخذنا نركض في طريق محفوف بأكوام من البلاطات المكسّرة ثم دخلنا موقع بناء.

– هل هنالك أحد هنا؟ نادى أبي: هل يوجد أحد ما هنا في موقع البناء هذا؟

فلم يكن هنالك من مجيب في الموقع. ثم صاح أبي:

– نجاتي! أيُّهَذا يا نجاتي!!

ظهر أحدهم من الطابق الثاني في موقع البناء هذا. وكان رجلاً شبه عارٍ. يرتدي سروالاً أبيضَ. جاء إلى حافة الطنف الممتد إلى خارج مساحة البناء ثم بركَ هناك ظناً منه أنه سيكون في وضع يمكنه رؤيتنا عن كثب.

– يا ابن بلدي! هل يعمل عندكم شخص اسمه (نجاتي)؟ – سأله أبي.

– لا... لا... قالها الرجل من فوق بنبرة يقطر منها النعاس. ومن بعد ذلك نهض من مكانه وغاب في دياجير الظلام.

صعدنا إلى الحافلة مجدداً ومضينا نتقلّب بين الحفر المنتشرة على الطرق الترابية بحثاً عن موقع بناء آخر. ومن موقع بناء إلى موقع آخر. في تلك الليلة وجدنا في بعض تلك المواقع من العمال من صرخ في وجهنا

بغضب، لأننا أيقضناه من النوم. هناك منْ قال لنا: ليس عندنا شخص بهذا الاسم، ومن صاح بنا كأنه ينبح في وجهنا. إلى جانب هذا صادفنا من لم يسمع سؤالنا ولم يَحِرْ جواباً، بل اكتفى بأنْ عاد القهقرى إلى نومه. وفي إحدى المرّات خرج إلينا عامل كان شبه عارٍ أيضاً، ويلبس سروالاً مثل الرجل الأوّل الذي لقيناه قبل هذا، ولكن صاحَبَ ظهورَ هذا العامل صوتٌ أنثويٌّ من أعلى قمّة في موقع البناء، ما لبث أن انتشر في الجوار. حتى كان يخيل للمرء أنَّ الصوتَ راح يلحسُ الشجيرات كلها ويقبّل الأوراق. حينها لم يدرك العامل هل يتوجَّب عليه أن يخاطبنا أم يجيب على ذلك الصوت النسائي. فجأة راح يكلّمنا من بعيد ويلوّح بكلتا يديه وكأنه ينشر علينا شيئاً ما:

- أخي لا يوجد هنا لا نجاتي ولا غير نجاتي! - قالها ثم صرخ: هيا انقلعوا من هنا، هيا.

وبعد أن قضينا وقتاً طويلاً في تجوالنا في الجوار وصلنا إلى منطقة (كزل سويوت) حيث كانت تعلو مواقع بناء عديدة. فوجدنا (نجاتي) في موقع بناء كان عبارة عن هيكل شُيِّد بين أشجار النُّبْق. كان (نجاتي) يغالبه النعاس. لم يأبَهْ به أبي. بل اقتادناه عنوة، صعد إلى الحافلة معنا بغبار ملابسه. سقنا الحافلة دون أن يحدِّث أحدُنا الآخر، حتى بلغنا شارع (أوشاك) المبلَّط بالأسفلت. وعلى مدى الهضبة لم يرفع أبي رجله من على دواسة البنزين. فكانت حقول الزفت السوداء تنشق عن يميننا وعن شمالنا، وتنساب كسيل من القطران يسمع شهيقه. وبعد أن اجتزنا بلدة (دنيزلر) وتقاطع طرق (تشال) نزلنا عبر المنحدر من بين تلال (زيبار) حتى صارت (كاكليك) قاب قوسين أو أدنى منا. كانت حافلتنا الـ(ميني باص) تلتهم الطرقات وكأنها قد استعادت حيويتها على غير عادتها. وما هي بعض دقائق انقضت حتى سمعت جعجعة وأصوات اهتزازات كأن زلزالاً ضربنا. حتى أضواء السيارة اهتزت سوية مع اهتزازنا. ثم امتلأ حوض السيارة الداخلي باستغاثات أبي الذي كان يصيح ويتأسّف قائلاً:

«أواه أيُّهَذا! يبدو أننا دخلنا في قطيع من الغنم. أتمنى ألا يكون الراعي قد سُحِقَ تحت العجلات».

بطبيعة الحال أنا و(نجاتي) لم نكن نفهم ما كان يحصل. مددنا رقابنا ونظرنا حولنا. أنا لم أرَ شيئاً ولم أسمع سوى بعض الأصوات التي تشبه الثغاء. وما إن سمعت ثغاء الأغنام حتى جُلْتُ ببصري في الجوار فلم أرَ أيَّ شيءٍ يُذكر.

في تلك الليلة لم يوقف أبي الميني باص واكتفى بالقول: «أتمنى أننا لم ندهس الراعي»، وواصل السير بنفس سرعته. وبعد مسيرة خمس أو ست دقائق وصلنا إلى (كاكليك) ووقفنا في مدخل محطة وقود كائنة في الجانب الأيمن من الشارع. فأخرج أبي المظروف من جيبه وقدمه إلى (نجاتي). وبينما كان يمدّ المظروف قال له:

- مستقبلك موجود في هذا المظروف يا ولد، حافظ عليه، إيّاك أن تضيّعه.

- شكراً لك يا خالي - قالها (نجاتي).

ثم أخرج أبي محفظة نقوده وأعطاه أوراق نقدية كثيرة وقال:

- حالما تصل إلى اسطنبول اشتر لنفسك ملابس جديدة. لا يمكنك أن تقابل الناس بهذه الملابس. اقْسُ على الفلوس، ولا تأخذك رأفة بدموعها. عندما تصل إلى هناك، أوّل ما تقوم به هو أن تستقلّ سيارة أجرة وتذهب إلى المدرسة الموجودة في (بيلر بيي).

نظر (نجاتي) إلى وجه أبي بانكسار، وقال:

- دُمتَ لي يا خال!

- لا تضع المبلغ كله في جيب واحد من جيوبك - قالها أبي - هنالك الكثير من النشّالين في المكان الذي تذهب إليه. قم بتوزيع المبلغ إلى جيوبك الأخرى.

فأخرج (نجاتي) المبلغ كلَّه وقسَّمه إلى جيوبه. ثم راح أبي يدفعه أمامه واجتاز معه إلى الجانب الآخر من الطريق واضعاً يده على إحدى

كتفيه. وأوقف إحدى الحافلات القادمة من دنيزلي والذاهبة باتجاه اسطنبول. ومن بعد ذلك صعد إلى حافلتنا. جلس خلف المقود وأدار المحرِّك عائدين أدراجنا إلى بلدتنا.

قبل أن نصعد منحدر (زيبار) أوقف أبي الحافلة في المكان نفسه الذي دهسْنا فيه بضعة خرفان من قطيع الغنم. ترجّل من السيارة وراح يصيح بعلوّ صوته: «أيّها الراعي! أيها الراعي ي ي ي!». كانت نبرات صوته تنم عن طلب مساعدة. أو تشبه صوت من يتوسّل إلى المنادى عليه. ولم تمضِ مدة طويلة حتى ظهر الراعي وبيده عصاه. ظهر من جوف العتمة رجل أسود، متيبّس البشرة مثل أبي. وكان بعمره تقريباً.

- هل أنت الراعي؟ - سأله أبي بقلق - أنت على مايرام إذن، أليس كذلك؟

- لا ليس بي شيء!

- أنا من عمل الحادث قبيل قليل! - قال أبي - شكراً لله أنك لم تُصب بسوء!

كان الرجل قد ثبت عصاه في الأرض، وراح ينظر إلى أبي.

- كم خروفاً دهسْنا؟ - سأله أبي.

- أربعة نفقت على الفور، واثنان مجروحان. كُسرت أرجلُهما، قابعان هناك.

أخرج أبي محفظته ودفع للراعي مبلغاً عن جميع أضراره. قال له:

- أرجو أن تبرِّئ ذمَّتنا يا رجل!

فوضع الراعي عصاه تحت إبطه وراح يعدّ الأوراق النقدية على ضوء مصابيح الحافلة.

- أَبْرئ ذمَّتنا يا رجل! - قالها أبي ثانية.

- أنت مُبرَّأ الذمّة يا رجل. ولكنّك دفعت لي عن الخروفين اللذين كسرتَ قوائمهُما. يمكنك أن تأخذهما معك. تذبحهما عندما تصل إلى بيتك.

– لا – قال أبي – بل اذبحْهما أنت، إن كان وضعهما صعباً، وفرّق لحمهُما على الفقراء.

– ممكن! – قالها الراعي وهز رأسه علامة عن رضاه، وتبدلّت تعابير وجهه لعدّة مرات.

وهكذا تركنا الرجل في مكانه نفسه. صعدنا الـ(ميني باص) وسلكنا طريقنا ثانية. ومن بين التلال المظلمة واظبنا على الصعود والنزول حتى وصلنا إلى تقاطع (تشال). وبعد نصف ساعة من هناك دخلنا البلدة.

ظل أبي طوال الطريق يغمغم بينه وبين نفسه: «من محاسن الصدف أننا لم ندهس الراعي... حسنٌ أننا لم نسحقه».

حينما وصلنا إلى البيت، عمدت على التلكُّؤ والمشي خلفه لأنني كنت أشعر بالحاجة إلى التدخين.

بدا لي وكأنه لم يشعر برغبتي هذه، بيد أنه صعد المنحدر بخطى مسرعة ودخل البيت. وما إن دخل أبي البيت حتى رحت إلى الصخرة الموجودة أمام الباب الخارجي. جلست على مهل ثم أنحنيت لألقي نظرة تحت الصخرة. فالسيجارة التي وضعتها تحت الصخرة كانت في المكان نفسه، وما زالت مشتعلة.

-9-

كنت قد غادرت البلدة، وعدت إلى (أنقرة).

بطبيعة الحال كنت مضطرب النفس. عندما أفكر في الموضوع كانت تراودني هواجس مزعجة، لذلك درجت على أن أخابر والدتي كل يوم والتحدث إليها سائلاً عن أحوال أبي: «كيف هو الآن؟». في كل مرة كانت والدتي تقول: «كيف تريده أن يكون! لنقُلْ لا بأس به! قبل قليل شرب قطرتين من الماء. بعد نصف ساعة سأسقيه أدويته». وكانت تقول إنه لا يستطيع النوم ليلاً من شدة آلامه. كانت تتحدث إليَّ وكأنها قد حفظت هذا الكلام عن ظهر قلب. حرصت على تكراره كنصٍّ ثابت وإلقائه على مسامعي. كانت تتغابى عن بعض أسئلتي ولا تجيب عليها. وإذا أجابت تكلمت عن أمور أخرى لا علاقة لها بأسئلتي.

عندما خابرتها في اليوم التاسع كان صوتها سيئاً للغاية.

- يا ولدي! - قالت بعد أن بلعت ريقها بخفة وتنهدت بعمق - سوف تسمع بهذا الخبر عاجلاً أم آجلاً، ومن الأفضل أن أنقله إليك الآن؛ قبل يومين فقدنا العمة (كولفم).

عندئذ جاءت العمة (كولفم) وتجسَّدتْ أمام عينَي بلحمها ودمها. اقتربت إليَّ وهي تتعكز على عكازتيها. وقفت خلف سياج الحديقة ونظرت إليَّ بعينيها الصفراوين، فتصادى رجع صوتها المرتجف في أذني وهي تقول: «هووو! أيها الأُخرَوِيّ![40]».

40- عكس الدُّنيويّ - المترجم.

قلت:

- ارقدي بسلام في عالم النور! - قلت وكأن العمة (كولفم) سوف تسمع صوتي الذي ظل يتردّد ويتصادى.

- في الواقع، في اليوم نفسه الذي توفيت فيه العمة (كولفم) ظهرت علائم غريبة على أبيك - قالتها أمي واستمرت في الكلام: لا أدري ما سبب ذلك. هل لأن ملك الموت كان يحوم حول دارنا. بالطبع بدأ الناس يتجمهرون وقت الضحى أمام بيت المتوفّاة. كان هنالك الكثيرون ممن جاؤوا من الأرياف ومن مناطق نائية أخرى بعرباتهم. عندما شهد محيط البيت حركة وازدحاماً مُطَّرِداً، وراحت ترتفع ضوضاء مكتومة قبالة المنزل صار أبوك كالملدوغ. غادر فراشه وهو يتأوّه مستعيناً بالحبل المتدلي من السقف. «ماذا تفعل يا رجل؟»، سألتُه، «إلى أين أنت ذاهب؟»، فلم يجبْني. ظلَّ لبعض الوقت متكوّماً على الأرض، يتفصَّد عرقاً. يتنفس بصعوبة وكأنه يقذف حمماً من فمه. ثم راح يتلوّى ويزحف على الأرض، فوق السجادة، لأنه لا يقوى حتى على الحبو. وبعد جهد جهيد استطاع أن يتشبث بالأريكة الملاصقة للنافذة المطلة إلى الخارج، ويصعد عليها ويضع ذراعيه على الطنف الإسمنتي. ثم ألصق وجهه وأنفه إلى زجاج النافذة، ومن مكانه هناك ظل طوال نهاره ينظر إلى الزحام أمام منزل العم (أيوب). وفيما حمل المشيِّعون جنازةَ العمّة (كولفم) راح يبكي بحرقة وينشج في البكاء. أما عمّك (أيوب) فقد عاد إلى البيت، ليقضي بقية حياته لوحده.

- أمرٌ صعب يا أمي - قلت - الله يصبّره على مصابه.

- ليس أمراً سهلاً يا ولدي - قالت وهي تنشج وتتنفّس بصعوبة.

بعد بضعة أيام وبصوتها الحزين الواهن كأنه قادم من قعر بئر أخبرتني والدتي بأن وضع أبي قد تردّى بشكل عام. ساورني القلق بطبيعة الحال، فاتصلت على الفور بأخي (نهاد) الموجود في (تاواس). استغرقنا بعض الوقت في الكلام، لا ندري ما يتوجب علينا القيام به. إلا أننا قضينا

معظم الوقت في سكتات طويلة تتخلّلها جملٌ قصيرة. وبالأحرى لم نكن نعرف ماذا نقول في مواقف كهذه وبقينا نتضوَّر في ألم الحيرة. ومن بعد ذلك قرَّرنا عرض الوالد على الأطباء هناك، من أجل التخلّص من الشعور بالذنب. فاتفقنا على أن نذهب به إلى مركز الأبحاث الطبية التابع لمستشفى جامعة (باموق قالا).

بعد أن تمكَّنتُ من الحصول على موعد مع طبيب هناك، خرجت مرة أخرى إلى الطريق قاصداً (دنيزلي). إلى أن وصلت تقاطع (سيوري حصار) لم يخطر ببالي أن أستمع إلى أية مقطوعة موسيقية. وعلى مدى ساعتين ونصف ظلت الريح تمرّ من جانبَي السيارة، يتّحد صوت هبوبها مع هدير المحرك ليلامس زجاج السيارة ويتلاشى باتجاه الخلف. وما إن وصلت قرب قرية (آشاغي كبان) ومن أجل تنشيط انتباهي، بدأت أستمع إلى الأغاني كما كنت أفعل فيما مضى من الأيـام. ولكنني أستمعت إلى بعض تلك الأغاني ولم يسعفني الوقت في أن استمع إلى القسم الآخر منها. على سبيل المثال استمعت إلى (بكجي بكير) وهو يغني: (مرَّ فارس من هنا، داس على جرحي ومضى). واستمعت إلى (أركان أوغور) ثم إلى (قزانجي بديه) وهو يقول: (أنا كنت يعقوباً في حالي...)، و(سخاء أوكوش) وهو يغني: (يذرف العندليب دموعه ساعة السحر، ليثقب بها صفحة المرمر). وبعد خمس ساعات ونصف، حين مررت بالقرب من (آجي كول) وصرت قاب قوسين أو أدنى من (جارداق) سمعت صوت (نشأت أرتاش) يتناهى إلى سمعي وهو يشدو بأغنيته: (كنت جاهلاً، غرّتني الحياة بألوانها...)، بصوت جميل يفيض مشاعر جيّاشة. بعد ذلك مددتُ يدي وأغلقت الموسيقى لأنني وصلت إلى المكان الذي غاب عني الحصان فيه آخر مرة. ذلك الحصان الذي وصفه العم (أيوب) بأنه حصان (الأجل)، وبدأ قلبي يدقّ بشكل مسموع. لذلك مررتُ بتلك الدكاكين والبيوت المنتشرة على الطريق كما لو كنت أشقّ طريقي من بين نبضات قلبي. وما إن صرت خارج منطقة (جارداق)

حتى زدْتُ من سرعتي وتحاملت على دواسة البنزين بكل ما أوتيت من قوة. من سكة الحديد التي ظلت ماثلة إلى شمالي. كانت ثمة قاطرة طويلة تطقطق وتمشي ببطء باتجاه (آفيون). هذه القاطرة البطيئة ربما هي القاطرة نفسها التي كان أبي يشبِّهها ببغلة (خليل الطحَّان). كلما نظرتَ إليها خيّل إليك أنها تريد التوقُّف ولكنها لا تتوقَّف، حالها حال العربة التي تجرُّها الثيران.

وهكذا بعد أن استرقت النظر إلى القاطرة بطرف عيني استدرت إلى الطريق الذي كان ماثلاً أمامي، وما إن استدرت حتى تقابلت مع ذلك الحصان. كان واقفاً على حافة وادٍ سحيق بكل هيبته وبياضه الأخّاذ الذي يبهر العين. بالطبع مررت بسرعة من جانبه دون أن أنظر إليه. وما إن ابتعدت قليلاً حتى أخذ يتبعني كما في كل مرة. كان يتبعني حيناً ويركض حذوي بنفس السرعة، يكاد يلتصق بالدعامية الأمامية لسيارتي، وحيناً يلاحقني من الخلف وهو يعدو خبباً، تاركاً بينه وبيني مسافة خمسِ أو ستِ خطوات. يصهل على نحو متقطع، يتفصد جسمه الأبيض الحليبي عرقاً ويفيض رغوةً. عندما يقترب إليَّ كنت أسترق النظر إليه أحياناً بطرف عيني، عبر الزاوية البعيدة للزجاج الأمامي، فكنت أرى عرفه المتطاير ورأسه الذي كان يرتفع ويهوي مثل مطرقة. وكانت المساحات الشاسعة من الأراضي والحقول والتلال البعيدة والقرى والقصبات المنتشرة على سفوحها تظلّ دوماً تحت فكّه السفلي. حينها كنت أتخيّل رأس الحصان النازل والصاعد كأنه مطرقة عظيمة تهوي على سطح الأرض.

بعد قليل اجتزت قرية (علي قورت) وكانت تشبه صرة صغيرة لُفَّ فيها الصمت. فجاءني تل هادئ، وافر الشمس، تقدمت على سفحه فاقتربت إلى (كاكليك). وما إن استدرتُ من تقاطع الطرق ودخلت في الطريق المؤدّي إلى (أوشاك) حتى استدار الحصان معي وظل يسايرني بنفس السرعة. ظل يتبعني إلى أن وصلت إلى المكان نفسه الذي دهسنا فيه أنا وأبي بضعة خراف قبل سنوات عديدة. فكان أن توقَّف فجأة في

مكانه. أنا أيضاً أخذت جانب اليمين من الطريق. خفّفت من سرعتي ثم دستُ على الفرامل ووقفت. أدرتُ رأسي لأنظر إليه، فوجدته قد توقّف في ذات المكان. وفي النقطة نفسها، حيث وقف أبي قبل سنوات عديدة، وراح ينادي في جوف الظلمة: «أيها الراعي! أيها الراعي ي ي!». وعلى الرغم من توقف الحصان عن الجري إلا أن عرفه كان يتهادى مثل الأمواج وشعر ذيله الشبيه بريح بيضاء ما زال ينتشر، وكأنه لم يتوقّف عن الجري قَطّ. وما زالت أعضاء بدنه في حالة جري. من يدري! ربما كان يتراءى لي أنه واقف، إلا أنه ما يزال يعدو في عيون الآخرين. وهكذا فكلا الحالتين ربما تمثّلان تسرّباً من زمنين فيهما شرخ في مكان ما، ظلّا ينضحان ويختلط بعضٌ منهما ببعضهما الآخر. أخذ الحصان يعتلي على قائمتيه الأماميَّتين ويصهل بمرارة وكأنه يريد أن يحلّق في السماء. ثم غاب فجأةً، ولم يبقَ بعد ذلك من شيء سوى ألقٍ أبيض وصدى صهيله. وبصحبة هذه الأشياء صعدتُ منحدر (زيبار)، وبعد مسافة نصف ساعة دخلتُ البلدة وأنا متعبٌ خائرُ القوى.

في الحقيقة كان أبي في وضعٍ يُرثى له كما قالت والدتي. فعندما دخلت البيت كانوا قد جمعوا الوسائد عن يمينه وعن شماله، وهو جالس في الوسط لا يسمع له نَفَسٌ ولا نطق. لم يبقَ أيُّ أثرٍ من بروز منكبيه. ملامح وجهه غارت إلى الداخل، أما ذراعاه فقد ضعفتا إلى حدٍّ لا يصدَّق. أدركت حينئذ بأن إخراجه من البيت صار مسألة صعبة، والأصعب من هذا هو إركابه في السيارة. ولأنه لا يسمح لي أن أحمله في حضني وأوصله إلى السيارة اضطُرِرتُ لجلب الكرسيّ المتحرك. فقلعتُ البطارية الملحقة بالكرسي وجئت بالكرسي إلى مكان قريب من فراشه. وبعد جهد جهيد استغرق أكثر من عشرة دقائق تشبَّث أبي خلالها بالحبل المتدلي من السقف بيدٍ، وباليد الأخرى استعان بذراعي حتى تمكَّن من الجلوس على الكرسي، والوصول إلى باب الحديقة. ومن ثَمَّة استغرق حمله من الكرسي وإجلاسه في المقعد الأمامي في

السيارة أكثر من نصف ساعة تقريباً. في أثناء ذلك جاءنا (زبير) ومسك الكرسي لئلّا يتزحلق، وهرع خالي (حسين) ليمدّ يد المساعدة فمسك باب السيارة. أما أنا فذهبت إلى داخل السيارة واستندتُ بركبتي على مقعد السائق. ومددْتُ يديَّ لكي أتلقّى ثقل الجسم عندما يدخل من باب السيارة. وعلى الرغم من مساعدة أمي، وهتافات عمتي (هجران) التي كانت تشجعه قائلة: يا الله! هيا شدّ حيلك يا رجل! لم يستطع أبي النهوض من فوق الكرسي. وهكذا خذلته قواه وظل في مكانه متكئاً إلى ظهر الكرسي، يتفصّد عرقاً. طوال هذا الوقت كانت يدا أبي ذات البقع القهوائية ترتجف مع كل حركة من حركات جسمه. قالت أمي:

- يا رجل! شد حيلك قليلاً لكي يرفعوك ويضعوك في السيارة.

فلم يَحِرْ جواباً، بل راح ينظر إلى بعيد، من مكانه على الكرسي المتحرك، إلى نهاية الزقاق، وكأن هنالك من يراقبه من بعيد. وبينما كان ينظر إلى تلك النقطة في البعد ظهر ذلك التقعر نفسُه على خدّه. كان أشبه بحفرة صغيرة، أو لكأنه كان ظلّاً محدود المساحة لجناح ارتعش لعدد من المرات.

في ذلك اليوم، وبعد محاولات عديدة تشجّع أبي واستطاع أن يتزحزح من مكانه، وأن يركب السيارة لوحده، من دون تلقي أية مساعدة من أحد. وهكذا انطلقنا سالكين الطريق إلى (دنيزلي) والجميع يشيّعنا بأدعيتهم.

وصلنا إلى جامعة (باموق قالا) نحو الساعة التاسعة صباحاً. وكانت الشمس قد ارتفعت عن الأرض مقدار رمحين تقريباً. وبرغم ذلك كانت برودة الصباح تحتفظ بنضارتها، في حين كانت سفوح الجبال المحيطة بالمدينة تشع ضباباً كثيف الوفرة، يتصاعد كالدخان أخضرَ. حتى لكأن الجبال بسفوحها وصخورها الظاهرة بأشجارها وأجمتها وغاباتها الكثيفة، المكونة من أشجار الصنوبر كانت تتحرّك في مكانها ذاته. لهذا السبب كانت تتشكل على صفحات الجبال مُلاءات مخملية تتشظّى،

تأتلقُ وتتمايل في تلوّنها بين اللون الرصاصي البراق وبين الذهبي. فكانت الأشعة الذهبية تفور وتتحوّل إلى خضرة مشعة، والخضرة يشتد فورانها فتنقلب إلى لآلئ مذهَّبة في بعدٍ ساحر لا متناهٍ، يتماوج بين السطوح الإسمنتية لمساكن المدينة مثيراً حميّة الناظرين.

– هل وصلنا؟ – قالها والدي فجأة: أهذا هو المكان؟

– هو يا أبي – قلت.

كان (نهاد) قد أخذ كرسياً متحركاً من المستشفى ووقف ينتظرنا على الرصيف أمام قسم الأورام.

أنزلنا أبي من السيارة وأجلسناه في الكرسي المتحرك وذهبنا به من فورنا إلى الداخل، ثم استخدمنا المصعد في الصعود إلى الطوابق العلوية. بطبيعة الحال كان من الصعوبة بمكان أن تجد موطئ قدم في الردهات والمصاعد المزدحمة التي كانت تغص بالبشر. ومن حين لآخر كانت تمر عن يميننا أو عن شمالنا نقالات عليها مرضى تصاحبهم ثلة من أقاربهم. بعض المرضى كان يرفع رأسه وينظر حوله، وتجد بعضهم الآخر يتضور من شدة الألم، وآخرون كانوا يستلقون على النقالات بلا حركة ومن دون أن يصدر منهم أي صوت.

على أية حال وجود أخي (نهاد) معي سمح لي أن أسترق بعض الوقت، من حين إلى آخر، وأنزل إلى الأسفل، إلى الحديقة لأجلس هنا أو هناك في ظلال أشجار الصنوبر، لأدخن سيجارة. فكنت ألتهم السيجارة على عجل وأصعد إلى فوق من جديد، وأجد أن الدور لم يأتِ علينا بعد، لأن المستشفى مزدحمة بأعداد كبيرة من المرضى والمراجعين. وكلما مرّ الوقت على أبي ولم يأت دوره ازدادت حالته سوءاً. كان يدور برأسه وينظر إلى الجوار بنظرات خاوية. وفي كل مرة كان يغمغم كاشفاً عن تذمُّره.

جاءتني فرصةٌ مؤاتية للحديث مع شقيقي (نهاد). سحبته من ذراعه، وانزويت به على بعد عدة خطوات بعيداً عن أمي وأبي. همست في أذنه:

– حينما ندخل إلى الطبيب تعرف بالطبع أنك لن تتحدث إليه عن التشخيص الذي توصّلوا إليه في (مستشفى دنيزلي الحكومي). ولكن دعنا نتحدث عن ذلك بيننا وبين الطبيب لئلّا يسمعنا أبي. هل فهمت؟

– نعم فهمت، قالها (نهاد) وظلّ لبرهة من الوقت ينظر في وجهي بعينين مترعتين بالخوف.

وعندما حان دورنا في المعاينة أوصانا الطبيب بضرورة تزويد أبي بقنّينة دم. لهذا السبب خرجنا بسرعة مثلما دخلنا، وهرعنا أنا وأخي على جناح السرعة، نحمل ورقة تؤيد ذلك معنونة إلى مركز الدم الكائن في الركن البعيد من المبنى. العاملون في المركز أخذوا الورقة منا وقالوا: «نعم نحن سنرسل الدم إلى هناك». وما إن قالوا لنا هذا حتى عدنا أدراجنا إلى قسم الأورام وبقينا ننتظر لدى باب الغرفة الزرقاء المتاخمة لغرفة العلاج الكيميائي، حيث يدخل ويخرج أناس منهكون، أو تخرج نقالات عليها مرضى يبدون وكأنهم في الرمق الأخير من حياتهم. هنالك ظلّ العاملون في الغرفة الزرقاء يحقنون الدم في جسد أبي حتى حلّ العصر. وبعد تلك الساعة لم يكن الطبيب يستقبل أحداً من المرضى لذلك اضطررنا إلى العودة إلى البلدة.

وفي صباح اليوم التالي نقلنا أبي إلى السيارة بصعوبة بالغة وذهبنا به إلى جامعة (باموق قالا). أمضينا معظم ساعات النهار ونحن نتراكض من هذا المختبر إلى ذاك المختبر، لإجراء التحاليل أو من أجل الحصول على تصاوير إشعاعية. نتلكأ هنا وهناك في الردهات المكتظّة أو في الزحام والتدافع الذي تشهده بوابات المصاعد. كنا نحس بالخدر يتسرب نازلاً إلى سيقاننا من طول الوقوف في تلك الصالات. كنا نشعر بالدوار فيها، ويخيّل لنا أن الزحام الذي تغصّ به تلك الصالات ما هو إلا ضوضاء فارغة.

وفي اليوم الثالث، وعلى الرغم من تمرُّد أبي ورفضه العودة إلى المستشفى وهو يصيح: «كفى لم أعد قادراً على الذهاب إلى هناك!»، إلا

أننا أقنعناه في الذهاب معنا إلى مستشفى الجامعة مرة أخرى. أخذنا معنا أفلام التصاوير الإشعاعية ونتائج التحاليل المختبرية وذهبنا إلى الطبيب. تركونا ننتظر إلى أن خَلَتْ عيادة الطبيب من المراجعين فأدخلونا إليه نحو الظهر. بدا لنا الطبيب رجلاً عطوفاً، تبدو عليه علامات الرِّقة. استغرق بعض الوقت يفكِّر ثم رفع رأسه، وبعد أن نظر ملياً في وجه أبي، طلب إلينا أن نجري له (خزعة)[41] مرة أخرى. وما أن طلب إلينا ذلك حتى انطلقنا على الفور للاستفادة من الوقت القليل المتبقي لدينا من هذا اليوم. أخذنا نجتاز الأبواب والصالات والردهات بسرعة وكأننا نسابق الريح من أجل الوصول إلى (قسم جراحة المسالك البولية) ولكنهم ضربوا لنا موعداً للمراجعة بعد يومين. وهكذا اضطررنا للعودة إلى البلدة بعد الظهر.

وفي نهاية سباق الأيام الثلاثة هذه حصل أبي على نتيجة سيّئة للغاية، وهي أن التعب نال منه تماماً، إلى درجة أنه لم يعدْ يقوى على تحريك حتى إصبع من أصابعه. وعندما يريد أن ينظر في وجوهنا يزوغ بصره، فيلوي عنقه ويميل برأسه على صدره. ثم تتسارع أنفاسه، تصاحبها حشرجة متقطعة. كان ينتابني شعورٌ بالذنب كلما وقعَ بصري عليه، وهو على هذه الحالة. لهذا السبب وحده وجدتُ فرصتي السانحة، وللخروج إلى الشرفة واستدعيت أخي (نهاد) معي. هناك قضينا معاً بعض الوقت ونحن واقفين جنباً إلى جنب، لائذين بالصمت، متَّكئين إلى حائط الشرفة. وبالأحرى باشرتُ أنا بالتدخين على عجل وكأنني خارج من مجاعة. أما (نهاد) فطأطأ رأسه وانتظر عسى أنْ أبدأ أنا بالكلام. بدأتُ بالحديث وأنا أنظر إلى زوجة خالي (عزت) التي كانت قبالتنا. قلت:

– لقد نال أبي خلال هذه الأيام الثلاث ما يكفيه من تعب ونَصَب. صحيح نحن نسعى من أجل معالجته، إلا أننا نجرجر به هنا وهناك بلا طائل. تُرى هل نحن على خطأ فيما نقوم به؟

41– وهي أخذ عينات من الخلايا النخعية لغرض معرفة إن كان الورم خبيثاً أم حميداً – المترجم.

قال (نهاد):

– ماذا يمكن أن نفعل من أجله يا أخي الكبير؟ هنالك بصيص أمل، ربما سيظهر لنا بعد استلام تحليل الخزعة.

لم أقل له أنت مُحقّ! وكذا لم أستطع أن أقول أنت غير محق! بل اختلطت عليَّ مشاعري، واكتفيت أخيراً بالنظر من فوق السطوح باتجاه الهضبة.

قال (نهاد):

– يا أخي الكبير علينا أن نعمل ما بوسعنا من أجله، حتى وإن لم يكن هنالك أي أمل في شفائه.

– أعرف! – قلت له.

وهكذا انتظرنا في البلدة لمدة يومين، كنا خلالها ندور حول أبي لتلبية احتياجاته كافة. كان بيتنا يمتلئ بالزوار. يمتلئ ثم يفرغ باستمرار. لم يشهد البيت أنْ مَرَّ عليه يوم كان فيه فارغاً من الزائرين. زاره الكثير من أهل البلدة. حتى جاءه الناس ممن كانوا يسكنون في وادي (كوك بينار) الواقع في الطرف القَصِيّ من البلدة. وفي خلال هذين اليومين حضر جمع غفير من محيط (تَكّه) ممن لم يستطيعوا زيارته. اصطفوا لدى الباب ومروا من تحت المتسلقات متناوبين على إبعاد أغصانها عن وجوههم، مالئين الغرفة. ثم دعوا له بالشفاء وخرجوا واحداً تلو الآخر.

في اليوم الثالث توسّلنا به ورجوناه أن نذهب به إلى الموعد، فأركبناه إلى السيارة نحو الظهر، تماماً عندما كانت الشمس تحرق الأرجاء من حولنا، وانطلقنا في طريقنا باتجاه (دنيزلي).

لما وصلنا إلى (قسم جراحة المجاري البولية) استقبلنا العاملون ذوو الوجوه البشوشة وأجروا الفحوصات اللازمة لأبي على الفور، ثم أدخلوه إلى غرفة زرقاء واسعة. قالوا يتوجب عليه أن يبقى الليلة هنا. في بادئ الأمر استغربنا جميعاً لأننا لم نفكّر أنَّ المسألة سوف تصل إلى هذا الحد. ثم أعطونا رزمة من الأوراق لكي نسجل معلوماتنا من أجل تنظيم

«طَبَلَة» لأبي. أخذنا بطاقة الهوية التابعة لأمي، ونزلنا أنا و(نهاد) إلى أحد الطوابق السفلية. في الحقيقة لم ننزل فوراً، لأن المصعد الكهربائي الذي دخلنا فيه كان يتوقف في كل طابق. ثم أن المصعد أخذنا إلى فوق طابقاً طابقاً. ينفتح إلى آخره في كل طابق ليتيح لنا رؤية كلِّ رُدهة إلى آخرها. يمتلئ بعدد غفير من الناس ثم يفرغ، يمتلئ ثم يفرغ حتى تحوّل من الصعود إلى النزول. وفي حالة النزول أيضاً كان يتوقّف في كل طابق ويمتلئ ويفرغ. وما إن وصل إلى الطابق المعني غادرنا المصعد بشِقِّ الأنفس. هنالك قابلتني امرأةٌ شابة، ذات وجه ضعيف. جمعت شعرها وأطلقته إلى الخلف مثل ذيل حصان. في الحقيقة كانت الشابة تقف وسط الزحام لدى الباب، ولكنها انفصلت عن الزحام وتوجّهت نحوي. بادرتني بنبرة مبهجة:

- مرحباً.

فقلت مرحباً!

قالت الفتاة:

- أنا اسمي فيروزة! عندما رأيتُكَ استغربتُ كثيراً، لم أتوقع أبداً أن أراك هنا في يوم من الأيام.

كان صوتها دافئاً.

- أشكركِ - قلت لها.

أبدت المرأة الشابة آراءً جميلة عن أعمالي وقالت إنها قرأت كل رواياتي. ثم بادرتني بالسؤال:

- خيراً! ما الذي جاء بكم إلى هنا؟

فقلت لها إننا جئنا بأبي من أجل عمل خزعة له، وسوف يرقد في (قسم جراحة المسالك البولية) لليلة واحدة.

- عنده الصحة والعافية! قالت بصوت رؤوم، إذا احجتم إلى أية مساعدة أرجو أن تبلغني. أنا أعمل في الطابق العلوي في قسم العيون.

- أشكركِ - قلتُ لها.

قال الواحد منا للآخر (طاب يومك) ثم افترقنا.

كان هنالك صفٌّ من المراجعين أمامنا، يبلغ حوالي خمسة عشر أو عشرين شخصاً، ولهذا السبب استغرقت معاملة تنظيم الطَّبَلَة أكثرَ من نصف ساعة. وما إن أنهينا التسجيل حتى بدأنا نمشي الهُوَينا وكأننا أنا و(نهاد) اتفقْنا على ذلك دون أن يُسِرَّ أَحَدُنا بذلك لأخيه. نزلنا على مهل عبر السلالم إلى الحديقة. أنا لم أُطِقْ صبراً فأشعلت سيجارة وامتصصت دخانها قبل أن أجلس. مررنا بالقرب من موقف السيارات وتوجَّهنا إلى المحلّات التي كانت موجودة في الرصيف المقابل من الشارع، ثم دخلنا إلى أحدها واشترينا مناشف جاهزة ومحارم ورقية. قنينة كولونيا ومناديل رطبة وعدداً من قناني الماء. فكرنا ربما يشعر والدانا بالجوع ليلاً فماذا يأكلان! لذا اشترينا بسكويت وكعكة جاهزة وأنواعاً من عصائر الفواكه. وبعد مرور مدة من الوقت، بلغت نحو ساعة واحدة تقريباً عدنا إلى الغرفة حاملين معنا عدداً من أكياس نايلون مليئة. وجدنا أبي متكئاً إلى الوسائد يبكي وينشج في بكائه. بالطبع لم نفهم ما الذي حصل هنا. نظرنا إلى وجه الوالدة بدهشة.

– ليس هنالك من خطب يا أولاد – قالت أمي – أبوكم يبكي من شديد التياعِه.

– ما الذي حدث يا أماه؟ لماذا التاعَتْ مشاعرُه؟

قالت أمي:

– قبل قليل جاءت إلينا فتاة رائعة كالماء الرائق، تحدثتْ عنك. قبّلت أيدينا وأخذت تَجبُر خاطرنا. سألتْ إن كان هنالك ما ينقصنا. فأثارت مشاعرَه، فلم يتحمَّل أكثر وأسلم نفسه للبكاء.

وبينما كانت أمي تُسهبُ في وصف حالته، كان أبي يشعر بالطمأنينة تعود إليه شيئاً فشيئاً، اهتزازات كتفيه توقَّفتْ، ونشيجُه كان قد قلَّ. في أثناء ذلك مدَّ يدَه، وأراد أنْ يريَني الأزهارَ التي كانت قد وُضِعَتْ في المزهريّة فوق الكومودينو. لم أنتبه للأزهار لو لم يُشرْ إليها. كانت هناك

أزهارٌ تتدفّقُ من المزهرية، بمختلف ألوانها، كبيرة الأحجام. دنوت منها والتقطت الكارت المرفق مع الأزهار. كانت ثَمَّة عبارةٌ مكتوبة: «العم (عزيز) أتمنى لك الشفاء العاجل - فيروزة».

أنا أيضاً تأثرت في تلك الأثناء، فأشحتُ وجهي باتجاه النافذة، واستغرقتُ بعض الوقت أتأمّل الجبال التي كانت تأتلق تحت أشعة الشمس.

قرّرنا ألّا نبتعد كثيراً عن محيط المستشفى، خشية أن تفتقدنا الوالدة أو تحتاجنا في أمرٍ ما لأنها لا تجيد القراءة والكتابة. أو ربما احتاجت إلى أي شيء، لهذا السبب كتبنا أرقام هاتفينا على قصاصة ورقية وتركناها على سطح الكومودينو. ثم نزلنا تحت إلى الحديقة لننتظر هناك. جلسنا إلى أحد المصاطب المثبَّتة جنب الحائط، فرأينا أن المستشفى قد فرغت تماماً قبل حلول المساء. ليست واجهة المبنى وحدها هي التي فرغت وحسب بل حتى الردهات وصالات الانتظار، ولم يبقَ أيُّ أثرٍ من الضوضاء والصخب الذي كان يعجّ به المكان. وخيَّمَ على الأرجاء صمتٌ يؤثِّرُ في الأعماق. لم يستمر هذا الصمت سوى نصف ساعة. إذْ ظهر عددٌ غفيرٌ من البشر. جاؤوا من كل حدبٍ وصَوْب، تقاطروا إلى المستشفى حتى ملؤوا حديقتها. أناسٌ ذوو ملابس رثّة، يبدو الواحد منهم أكثر ضِعةً من الذي يأتي من بعده. أناسٌ يرتدون أرديةً ملوَّنة، تدلُّ مِشيتُهم على مدى فجورهم. تتبعهُم ثُلَّة من الأولاد والأطفال يحملون صرراً ملأى سلالاً، وفي أحضانهم البطّيخ...

- من يكون هؤلاء؟ - سألتُ (نهاد).

- لا شكَّ أنهم غجر - قالها أخي (نهاد) - مشرَّدون لا مأوى لهم. يأتون إلى هنا كل مساء. أظن أنني رأيتهم قبل هذا.

في أثناء ذلك دخل هؤلاء إلى الحديقة وداسوا على نجيلها، ثم انتشر بعضٌ منهم على الأرضية الرملية لموقف السيارات واحتمى آخرون عند الجدران، تحلق بعضهم حول أحواض الزينة. وامتلأت الأرجاء

بأطفال ظِراف وأولاد يافعين، لوَّحتْ أشعّة الشمس وجوههم. ونساء مترهلات تتدلّى أثداؤهن حتى تصل إلى ركبهن، يصاحبن شبّاناً ذوي زينة مبهرجة، مبالغ فيها لا يضاهيهم أحدٌ من أترابهم، فيما بالغوا فيه. ورجال سِمان لهم كروش عظيمة، وفتيات ناعسات الطرف كأنهن أغصان بان. تتطاير تلابيب أثوابهن. إنهم أناس تطبَّعوا بطباعٍ غريبة لأنهم طووا الجانب الحادّ من حياتهم، وجعلوا من الأحزان كرَةً يطبطبونها ويستهزؤن بالحياة وصروف الدهر. فقد خرجتْ المستشفى من صفتها كونها مستشفى وتحوَّلت إلى مكان أشبه ما يكون بمتنزه صاخب، تُنشَد فيه أعذب الأغاني. وبينما كنت أتأمّلهم وأنا غارقٌ في أفكاري رأيتهم قد قطعوا البطيخات وفتحوا الصرر التي جاؤوا بها وأخرجوا خبزاً وجبناً، ومن دون عجالة، راحوا يتناولون طعامهم وهم يرقصون ويتضاحكون.

وما إن شبعت بطونهم حتى ألقى الأولاد بأنفسهم إلى أحواض الزينة وأخذوا يرقصون ويتقافزون حول نافورات الماء، وبعد ذلك صاروا يتزاحمون فيما بينهم ويتدافعون ثم أخذوا يتصارعون. يريد الواحد منهم مسك صديقه من منطقة الحزام وبطحه أرضاً في مياه الحوض. وفي هذه الأثناء تعالى صراخهم وعويلهم حتى بدأ ينعكس على صفحة الماء ليبلغ عنان السماء. وهكذا بهذه الطريقة كانوا يبرّدون أجسامهم، ويرفّهون عن أنفسهم باللعب والتراشق بالماء. ومن أجل إثارة غضب الآخرين من بني جلدتهم وممازحتهم، كان الأولاد يتعمدون أن يصل شيء من تلك الرشقات إلى كبار السن الجالسين في محيط الحوض.

وما هي لحظات مرَّتْ حتى رفع واحد من الرجال عقيرته وأخذ يغني أغنية: (تسمع في السماء أصوات الغرانيق، وأجنحتها مطويّة). كان رجلاً متيناً، عريض المنكبين. شارباه كثيفان تجاوزا حدود خديه حتى وصلا إلى أذنيه. ظلّ ممسكاً بشريحة البطيخ التي اقتطع منها قضمةً كبيرة. مسك بها قريباً من فمه وكأنها لاقطة ميكروفون. كان الرجل يؤدي الأغنية بشكل جميل لا يوصف. يعتني بجرس الكلمات ومخارج كل

حرف من الحروف، كان يعرف كيف ينوّع طبقات صوته، وفي أي زاوية من زوايا حنجرته يهز نبراته. ارتسم الفرح على مُحَيَّاه كتعابيرَ لطيفة. كأنّ صوته قد تحوّلَ إلى بساط للريح، يجلس هو عليه ليحلق عند قمم الجبال العالية، متموجاً في طيرانه، شاقاً الغيوم بكتفيه.

سألت أخي (نهاد):

– هل تعرف هذه الأغنية يا (نهاد)؟

قال:

– نعم.

كلانا كنا ننظر إلى ذلك الرجل الضخم ذي الشاربين الطافحين خارج خديه.

قلت بيني وبين نفسي:

قبل أربعين سنة كانت تنظم مهرجانات الكرز في بلدة (هوناز). كنا أنا وأبي نشتغل هناك، في نقل الركاب من (دنيزلي) إلى تلك البلدة. بالطبع يومها كان أبي شاباً في أواسط العقد الثالث من عمره. يهتم بأناقته أيَّما اهتمام. كان شعره أسودَ فاحماً، يبلِّله كل صباح ويقف أمام المرآة ليمشطه باعتناء. في الشتاء كان يرتدي معطفاً قهوائي اللون ذي ياقات عريضة أما في الصيف فكان يغطي منكبيه بقميص فضفاضٍ مطوي الردنين. يمكن القول وباختصار إنه كان شاباً فارع الطول، وسيماً، مشرق الجبين. في تلك الأيام كنا نشتغل بالميني باص في نقل الركاب على خط (دنيزلي – هوناز) كنا ندور بحافلتنا في دنيزلي وأخرج أنا رأسي من نافذة السيارة وأنادي: «هيا! واحد، اثنين إلى هوناز. إلى هوناز، واحد، اثنين!». كان عليَّ أن أنادي هكذا لأن أبي بالذات هو منْ علمني على هذه المناداة. كنا نتجول في محيط الكراج، وحول ملاهي الأطفال، وبعد أن ندور في (دليكلي جنار) عدة مرات ونملأ الحافلة بالعدد المطلوب من الركاب كنا ننطلق إلى (هوناز). يومئذ كان الطريق المؤدي إليها ترابياً غير مُعبَّد. تثير السياراتُ التي تشتغل على هذا الخط

ترابَه فتتكون كغيوم عظيمة من الغبار. وتبدو السيارات وكأنها تنبثق من غبار الحكايات. غيومٌ ما كانت تتبدّد بسرعة، بل كانت تنثال على رؤوس الأشجار، وعلى سطوح المباني، وتظل عالقة في الجو لمدة طويلة. فإذا كانت السيارات تسير متقاربة لا تفصل بين كل اثنين منها مسافة طويلة كان الرُكّاب يشعرون أنهم لا يستقلّون حافلات بل يركبون زوبعة من الغبار. يومها سمعت لأول مرّة تلك الأغنية! بينما كنت على وشك الاختناق في الغبار داخل الميني باص. كان أبي يستمع إليها في كاسيت وضع في جهاز المسجِّل النقّال الصغير، وقد ثبّت المسجّل على طبلون الحافلة. لا أتذكَّر من كان المغنّي! ولكنه كان أفضل من أدَّى تلك الأغنية وهو طالب أوزقان.

كان (نهاد) يصغي إليَّ من جانب ومن جانب آخر كانت عيناه تركّزان على المغنّي. فجأة سألتُه:

- في (دنيزلي) هل عملوا شيئاً من أجل (طالب أوزقان)؟

- شيء!؟ مثل ماذا؟ - قال (نهاد).

- لا أدري! - قلت. مثلاً كأن تكون جائزة ما تمنحها أية جهة، أيّاً كانت! أو لوحة أو قطعة باسمه للدلالة على طريق ما. أو احتفال سنوي لتخليد ذكراه أو ما شابه ذلك!

- حسب علمي ليس هنالك شيء يذكرمن هذا القبيل - قال (نهاد).

- اصرف نظر عن الموضوع - قلت - له بصوت حزين. سؤالي عن هذا لم يكن في محلّه.

- لِمَ تعتبره خطأً يا أخي الكبير، ولماذا قلت هذا إذن؟

كان الرجل الغجري قد أنهى أغنيته، وبدأ بقضم ما تبقى من شريحة البطيخ بشهية أكبر من السابق.

- هل ترى تلك الجبال يا (نهاد)؟ - قلتُ وأنا أمدّ يدي اليسرى - فإذا تسلَّقتَ جبل (جان كورتاران) واجتزتَ تلكم المرتفعات سيواجهك مزار (كازاك عبدال) تعرف أن سقف المزار موشكٌ على الانهيار وكذلك

جدرانه. السؤال الذي طرحته قبيل قليل كان خطأً بطبيعة الحال إن كان ذلك المزار يوشك على الانهيار والتحوّل إلى أطلال.

كان الرجل الغجريّ قد أتى على شريحة البطيخ بالتمام ومسح فمه على عجل، إلى الكم الأيمن لقميصه. وأخذ يشحذ أسنانه ويكشف عن صدره كما يفعل المصارع في العادة عندما يبحث عن خصم ينازله، بينما كانت عيناه تجولان في الأرجاء. وفجأة هرع الرجل إلى الأولاد الذين كانوا يلهون في أطراف الحوض، وأخذ ينادي عليهم بصوت جهوري: هيا يا أولاد النعال! هيا! لم أنتم واقفون هكذا؟! وما إن سمع الأولاد صوته حتى تهيَّأوا، وراحوا يتدافعون مع أترابهم الذين خرجوا من الحوض وشكَّلوا حلقةً كبيرة، فجاء الرجل إلى وسط الحلقة. في بادئ الأمر وقف في الوسط دون حراك. وضع يديه على خصره ثم دفع برأسه إلى الوراء، وأظهر صدره إلى أمام. أولاً أزجى بعض الوقت بلا أي حراك، وأخذ يجول ببصره على الأولاد من فوق عظمَتَي وجنتيه. ثم رفع يديه إلى أعلى وبحركات متمايلة راح يرقص ويغني أغنية:

نصبتُ خيمةً على السطح
فلتأتِ فاطمة ظهراً...
كيف تعلّمتْ فاطمة
أن تُخرج ساعدَها اللؤلؤي من تحت الملاءة.

حتّى أن الرجل كان يميل بجسده بغنج ودلال ويتحوَّل إلى (فاطمة) يخرِجُ ساعدَه مرَّات ومرّات ملوِّحاً بها في الفراغ وخاصة عندما ينطق كلمة (المُلاءة). فكان الأولاد يصفّقون له ويترنّحون بأجسادهم ويتضاحكون بمِلء أشداقهم.

– يا أخي الكبير أنا أشعر بالجوع! – قالها (نهاد).

– أنا أيضاً أشعر بالجوع! – قلت – هلمّ بنا إذن لنتناول بعض الطعام.

قمْنا من مكاننا، من فوق المصطبة التي كنا نجلس. مررنا بمحاذاة موقف السيارات ثم مشينا عبر الشارع إلى الرصيف المقابل. بدا الرصيف مقفراً من المارة، والشارع خالياً بسبب تناقص عدد السيارات. فالضوضاء والصخب كانا في الأسفل، في الطريق المؤدي إلى (تاواس). لا يوجد هنا زحام قلنا وصعدنا إلى أعلى قليلاً. فتراءى لنا مكانٌ نظيف ومرتَّب، تحيط به الأشجار وتحفُّ به المتسلقات. جلسنا في مكان يطلّ على منظر خلّاب.

– وضعُ أبي الصحّي لا يبشِّر بالخير – قالها (نهاد) حين كنا نشرب الشاي بعد تناول الطعام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– هذا صحيح مع الأسف.

ثم سكتنا نحن الاثنين.

وفي أثناء ذلك بادرت إلى القول:

– حتى الوالدة صارت مضطربة، مرتبكة بعد أن سمعتْ بالحلم الذي رآه (بكير).

أومأ (نهاد) برأسه وهو ينظر إلى جهة المستشفى، أما أنا فأشعلت سيجارة في أثناء ذلك.

– حسنٌ هل تحدَّثتْ أمي إليك عن الحلم الذي رأته؟ – سألني (نهاد).

قلت له:

– لا لم تتحدَّثْ.

– عجيب! كنت أتصور أنها أحاطتك علماً بذلك. كانت أمي ترى أحياناً فيما يرى النائم طفلاً ذا قميص أبيض يطوف حول المنزل. طفلٌ ذو بشرة شمعية. كان ينظر من بعيد لبعيد، ويتحاشى الاقتراب كثيراً. كان يحتفظ بمسافة محدّدة لا يتعدّاها قطّ. قالت إنها ربما رأت ذلك الصبي ولكن لا تعرف من هو وأين رأته قبل هذا. ولكنها كلما أرادت أن تسأله ابتعد أكثر.

- هكذا إذن! - قلتُ - بهمس.

انتابتني حالة من الاضطراب ولكنني حرصت على ألّا يشعر بها أخي (نهاد). ولم أكشف له عن سرّي هذا، ذلك أنني أرى الصبي جهاراً. ولم أقل له بالطبع أنني أراه رأي العين. ففي اللحظة التي أبوح بهذا السر خفت أن أطّلِعَ على عالم أمي الداخلي، وخشيت لئلّا أكون شخصاً غريباً عنها. لهذا السبب ابتلعتُ كل الكلمات التي كانت على طرف لساني.

- أمي تشعر بالارتباك - قلت - ربما تظن أنها قصت عليَّ الحلم.

- هكذا هو الأمر بكل تأكيد - قالها (نهاد).

حينما تركنا هذا المكان وذهبنا إلى حديقة المستشفى كان الليل قد أرخى سدوله، فكان المكان يغصُّ بأضواء متلألئة، تتناهى تلك الغمغمات المكتومة من حين لآخر، وغرقت الجبال القريبة في ظلام دامس. عندما يلتفت المرء لينظر إليها يخيَّل إليه أنَّه ينظر في حفرة لا قرار لها، تعجّ بالمَرَدة، تكوَّنتْ بفعل أمواج ميتة وطقطقات تائهة. حتى الجبال كان يُسمَع لها شهيقٌ وزفير، إلا أننا لم نكن ندري إن كان هذا حقيقة أم هو ضربٌ من ضروب الخيال.

عندما جلسنا إلى إحدى المصاطب قال (نهاد):

- يا أخي الكبير دعنا ننام بالتناوب، لكيلا يسهر كلانا إلى انبلاج الصبح.

قلتُ له:

- اذهبْ أنت ونَمْ داخل العربة. سآتي لأوقظك في الساعة الثالثة. أنا يكفيني إذا نمت من الساعة الثالثة إلى السابعة.

- حسنٌ يا أخي - قالها (نهاد) وذهب باتجاه موقف السيارات بخطى وئيدة، واختفى هناك.

بعد أن دخنت بضع سيجارات نهضت من مكاني على المصطبة ورحت أتجوّل في الحديقة. تارة أمشي بهذا الاتجاه وتارة بذاك الاتجاه.

الناس الذين جاؤوا إلى هنا كمرضى، وكنا نراهم في الردهات، أُدخلَ

أغلبهم إلى المستشفى، ومن جاء معهم راحوا يغفون في الداخل وهم جلوس على كراسي في صالات الانتظار أمام التلفاز. منهم من وجد لنفسه مكاناً ليتشبَّثَ به في النوم، ومنهم من فضّل قضاء الليل هنا في الحديقة، مستلقياً على إحدى المصاطب.

عندما أشرفَت الساعة على الثالثة فجراً كنتُ على وشك الانهيار. ومن شدة التعب أكاد أقع من طولي وأستلقي لأنام على المصطبة مثل أي هِرّ. نهضت من مكاني بوهن ورحت إلى (نهاد) لكي أوقظه. مشيت بتثاقل صوب موقف السيارات. كانت يداي وساقاي كأنها تخدَّرَت. كلما مضيت في المشي كانت أوصال جسمي تنصهر، وفي كل خطوة أنقلها كانت تتمزق وتخرج من كونها أجزاءُ تنتمي إلى جسمي. كنت في طريقي إلى التفكُّك، كأنني موشكٌ على التبعثر، تكاد أشلائي تتناثر في الجوار. وما راعني إلّا أنْ سمعت أحدَهم يسعل. وقفتُ ونظرتُ حواليّ يميناً وشمالاً، فلم أرَ أحداً. خطوت عدّة خطوات أخرى نحو السيارة فهشهشت الرمال تحت قدميَّ بصوت أسود.

سمعتُ هاتفاً من جوف العتمة، ومِن بين تلك الهشهشة مَن يقول:

– الآباء هم العزلة التي كتبت على صفحة أقدارنا. هذه الجملة سُطّرتْ في أحد كتبك. أليس كذلك؟

-10-

في صباح اليوم التالي وضعوا المسبار لأبي. ونحو الظهر شكّلوا له أنبوباً مطّاطيّاً دقيقاً لسحب إدراره في كيس جانبي، ثم أذنوا له بالخروج قبل أن يحين موعد الغداء بقليل. عندما أخرجناه من غرفته احتار ماذا يفعل بالكيس، من شدة شعوره بالخجل. حاول أن يغطيه بيديه، لما رأى محاولاته هذه قد باءت بالفشل طأطأ رأسه وراح ينظر إليه بين الفينة والأخرى.

نزلنا جميعاً بصحبة أبي من مبنى المستشفى إلى مكان تواجد السيارة. نقلناه من الكرسي المتحرك إلى المقعد الأمامي في السيارة بصعوبة بالغة. كان طول الوقت يتأوَّه ويتضوَّر من شدّة الألم. عندما جلس إلى المقعد تنفس بعمق:

- أيه!! - قالها ثم سألنا: بعد خمسة أيام هل سنأتي ثانية إلى هنا لاستلام نتيجة التحليل.

- لا! - قالها (نهاد) - أنا سآتي لاستلام نتيجة الخزعة، وبعد ذلك سوف نحضر إذا توجَّب ذلك.

فأومأ برأسه وكأنه يقول «نعم فهمت».

وهكذ ودّعنا (نهاد) وذهب إلى (تاواس) أما نحن فرجعنا إلى البلدة في هجير النهار.

أول ما دخلنا البيت - لا بد أنهم علموا بمجيئنا من صوت محرك السيارة - جاءنا خالي (حسين) يركض وهو يتنفّس على نحوٍ متقطِّع، ومن

بعده جاءت العمة (هجران) بصحبة حفيدَيها. حضر بعدها (زبير) الذي شاهد الزحام لدى الباب فحضر مع زوجته وأخت زوجته، ومن بعد هؤلاء جاء خالي (وقّاص) يسعى، وهو ينفخ خدَّيه، وقد ازداد وجهه احمراراً أكثر من ذي قبل، عندما حضر الجيران والأقارب نساءً ورجالاً. فاحتار أبي! لا يعرف ماذا يفعل! كيف يخفي كيس الإدرار الذي كان في حضنه. برغم أن الكيس لم يكن يُرى إلا أنه ظلَّ متشبِّثاً بالبطانية المُلقاة على ركبتيه. ظلَّ يجرجر بها حتى سحب طرفيها وثبتهما بإحكام خلف ظهره. ثمّ قال:

- لا أدري ما السبب! خُيِّلَ إليَّ كأن الحياة عادت إلى ركبتي. ترى هل كان ذلك بسبب حقن الدم في جسمي.

- لا تيأسْ من رحمة الله يا صهري. قالها خالي (حسين): ستشفى بإذن الله.

نفس الكلام ردَّدَتهُ عمَّتي (هجران) أيضاً، ولكن بصوتٍ أعلى.

نظرت أمي إلى أبي على نحوٍ كئيب وهي تبلعُ ريقها بصعوبة، وكأنها فقدت الأمل في شفائه. أما أبي فقد استدار إلى شماله فجأة وأخذ نفساً عميقاً، وظل ينظر ويطيل النظر إلى الجبال.

- يا صاح! - قالها بصوت مرتعش: حتى العم (مهمت) المرحوم راح في شربة ماء.

فسأل (زبير):

- مَن هو العم (مهمت) هذا؟

فلم يَحِرْ أبي جواباً، بل التفتَ ونظرَ ثانيةً إلى الجبال التي بدتْ أنها تغلي غلياناً.

قالتْ أمي:

- إنه يتذكَّر الماضي بشكلٍ جيد. ألا تتذكّرون العمّ (مهمت) الذي ضاع في الجبل قبل ثلاثين سنةً.

قال أبي:

- كان أذان العشاء يرفع حين أعلنوا أن العم (مهمت) لم يرجع من

الحطب. كان قد ذهب في غبش الفجر على متن حماره حاملاً فأسه الصغيرة، فكيف لا يعود عندما يحين وقت العشاء؟ حين سمعنا الخبر فخرجنا جميعاً إلى الجبل. كنا خمسين أو ستين رجلاً. ألقينا أنفسنا إلى شعاب الجبال للبحث عنه. كنا ننتعل أحذية مطاطية. منا من جاء متلفلفاً ببطانية، ومنا من كان يرتدي معطفاً سابغاً، ومن وضع على منكبيه قفطاناً قصيراً، ومن جاء يحمل لباداً أو خرقة سميكة من الخيش، لأننا كنا في عز الشتاء، ولم يكن لدينا خيار آخر سوى اتّقاء لسع البرد. كانت الثلوج تغطي السفوح والأودية حتى وصل ارتفاعها بعلوّ ركبة الإنسان. كما دفنت نباتات الخلنج والسفندر. حتى العرعر الجبلي لم يكن يرى منه سوى نصف قامته. كانت أشجار العرعر ناشبة هنا وهناك، تتراءى كأنها أشباح ضالّة تعترض طريق بني البشر. كانت هنالك ريح هوجاء في تلك الليلة تهبّ بجنون، تزلزل المحيط كله، تجعله يئن من شديد قسوتها. وبعد أن تهز الأشجار تشحذ أسنّتها على الصخور الحادة ثم تتسلط علينا. تكاد تمزق أيدينا ووجوهنا كما تفعل الكلاب. كنا نبحث عن العم (مهمت) بفوانيس لا تضيء إلا بالكاد بسبب السخام المزمن المترسِّب على زجاجها منذ سنة. يومئذٍ لم تكن المصابيح ذاتُ البطاريات قد اختُرِعَت بعد. كنا نبحث عنه ونحن نحمل قطعاً من حطب راتينجي أو مشاعلَ يتراقص لهيبها مثلما تتراقص آذان العجل، مرة بهذا الاتجاه ومرة بذاك الاتجاه. ثم علمنا الأماكن التي كان يذهب إليها ليجمع الحطب. قالوا اعتاد المرحوم أن يذهب على الدوام إلى الجانب السفلي من معبر (إيكي قابيلي) ويحتطب هناك.

– إذن كان يأتي بحطب من أشجار العرعر – قالها خالي (وقاص) – فتلك الأنحاء لا تحتوي على أشجار الصنوبر.

– نظرنا – قال أبي – بحثنا في أسفل (إيكي قابيلي) شبراً فشبراً. نظرنا إلى كل حفرة وكل تجويف. فتشنا كل الزوايا الظليلة في الجبل ونحن ننغرز في الثلوج ونخرج. لم نجده هناك، فمضينا قدماً في تلك النواحي. هل رأيتم ذلك الغار الكائن فوق تلك الخنادق؟

ارتبك الجميع أمام هذاالسؤال الذي لم يكن في محلّه ولا في أوانه.
كان أبي قد بسط يده ومدّها إلى الفراغ وكأنه سيتلقى الجواب بكفّه.
– نعم سمعنا به! – قالت أمي.
– أَيُّهَؤلاء! – قال أبي وهو يمر بنظره على كل الوجوه بسرعة، وهو يعيد بسط كفه – أما سمعتم في سالف الزمان عن الدراويش أو الأولياء الصالحين الذين اختلوا فيه. لا يخرجون منه ما لم يقضوا فيه أربعين يوماً وأربعين ليلة. أما سمعتم بوجود تلك الأماكن التي يُطلق عليها تسمية غار النفس؟
– نعم يا صهري. قال خالي (حسين)
– هيه! قالها أبي وأردف: وهكذا في تلك الليلة الليلاء، حين ارتأى دليلنا أن نبحث في الطرف الآخر ابتعدنا عن (إيكي قابيلي) ومشينا باتجاه غار النفس. كان الواحد منا يتبع صاحبه مثل ظلّه، خشية أن يتزحلق واحد منا، أو يقع أرضاً، أو يطير إلى الوادي. في أثناء ذلك كان ابن المرحوم يمشي حذوي وهو يحمل قطعة من حطب راتينجي. ظل ملازماً إياي لا يبتعد عني أبداً. إذ كنت أراه على ضوء المشعلة التي يحملها. كانت تعابير وجهه مضطربة للغاية، وكانت أسنانه البيضاء تطقطق، يضرب بعضها بعضاً من شدة البرد. وبعد أن مضينا في طريقنا نبحث يمنة يسرة ونفتش هنا وهناك فجأة رأينا في أعلى أحد الخنادق حمار العم (مهمت). وجدناه قد انتصبت أذناه إلى أعلى، لا يأتي بأية حركة. ينظر إلى أمام بنظرات تجمَّدت على نقطة ما. وفي الحال أدركت أنني سأجد المرحوم في مكان قريب، ولكنني لا أدري على أية وضعية سأجده. لذلك صرفت ابنه. قلتُ له هيا يا ولد اذهبْ وفتِّش في ذلك الاتجاه. وهو ليس بأبله، استجاب لكلامي على الفور. فقفزْتُ إلى الجهة التي كان الحمار ينظر. كان العم (مهمت) يلوى عنقه إلى شماله، وقد انزوى خلف صخرة. كان المسكين متجمّداً في جلسته. حتى أنفاسه كانت قد تجمَّدت، وتدلَّت من فمه ومن أنفه ثلوج مستدقة بطول مسامير كبيرة. رحت جالساً إلى

جانبه وأخذت أنظف الثلوج العالقة به. فكرت: «حسناً فعلتُ إذ أبعدتُ الولد عن أبيه». قلتُ في نفسي: «حسنٌ أنه لم يرَ أباه على هذه الحالة. فمن الأفضل للولد عدم رؤية أبيه وهو على هذه الحالة».

كانت عينا أبي قد اغرورقتا بالدموع، فأشاح بنظره وراح يرنو إلى الجبال البعيدة.

– لقد تعبت! – قالها ثم فجأة أغضى من صوته: أرجو المعذرة أنا سوف أستلقي.

فنهضتْ أمّي مسرعةً وراحت تغطّيه بالبطانية. ولكيلا يسحق كيس الإدار تحت جسمه، سحبته أمي إلى جانب تحت البطانية. وفي أثناء ذلك خيّم صمت عميق على الغرفة. عادت أمي على مهلها إلى المكان حيث كانت تجلس قبل هذا، وهي تشق هذا السكون بتنهيدة عميقة. كان وجهها مكفهرّاً. جلست على الوسادة عند البوتوجاز وقالت:

– ها إنه بدأ يتذكر الماضي. لا أدري ماذا يتوجب علينا القيام به، وإلى أية جهة نولّي وجوهنا؟

– دعيه يتذكّر – قال خالي (وقاص) – وماذا في ذلك؟

– ليس جيّداً – قالت والدتي وهي تهزّ رأسها إلى الجانبين – ليس جيداً إذا بدأ يتذكر الأيام السالفة.

بينما كانت أمي تتكلّم، اعتلى فجأة رنينُ هاتف خالي (حسين) بصوت الصهيل. أزعجني سماع الصوت فانتابتني رعشة خفيفة حين تذكرت الحصان الذي كان يرافقني عند منحدر (زيبار). مال خالي بكامل جثته إلى شماله على مهل، ومن دون أن يجد ضرورة للاستعجال، مثلما كان يفعل في كلّ مرة، مدّ يده إلى جيب بنطلونه ببطء ليخرج الهاتف. أخرجَ الهاتف ثم لوى عنقه ونظر إلى الشاشة بحزن. رفع الهاتف إلى أذنه وقال لمحدثه: «ألو! كفى يا هذا! الآن نحن في بيت خالتك. اتصل بي بعد قليل أيضاً، لا تنسَ. هل فهمت!».

كانت نظرات أمي تتركز على خالي، كما لو كانت تنظر في الفراغ.

لذلك عندما أغلق خالي هاتفه الجوّال ووضعه في جيبه ثم استعدل في جلسته كما كان في أول مرة، تقابل الشقيقان عيناً بعين.

– لا! – قالت أمي – عودته إلى الماضي بكل هذه القوة أمرٌ لا يبشّر بالخير.

– لا تتشائمي هكذا يا أُختيّتي! – قال خالي: فصهري لا يخرج من البيت أبداً ليرى أحداثاً جديدة، فماذا يقصّ علينا غير الماضي؟ بالطبع سيتحدث عن الماضي.

أخذت تضرب على ركبتها بإحدى يديها وتهز رأسها إلى الجانبين، وكأنها لا تسمع كلام خالي.

بعد يومين، وقت العصر، فيما كان البيت مزدحماً سأل أبي بنبرة معاتبة:

– أنتم لا تخبروننا، أي! هل الزرع يحصد على الهضبة؟ – سأل وهو يميل بجسمه إلى أمام من فوق السرير، وينظر إلى الوجوه عسى أن يجيبه أحدٌ ما منهم.

فقال (زبير):

– نعم يُحْصَد يا عم (عزيز) الناس جميعهم خرجوا، صغاراً وكباراً، بقضّهم وقَضيضِهم. تقاطروا إلى الهضبة وهم يبذلون قصارى جهدهم.

أخذ ينظر بعين الاعتبار إلى أهل البلدة الذين جاؤوا للسؤال عن صحّته، وإلى (زبير) الذي أجابه على سؤاله. ثم أومأ برأسه على نحوٍ متكرِّر.

– في سنة ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، في خمسة وأربعين أو في الستة والأربعين! قالها وتلكّأ بعض الشيء ثمّ أضاف: كنا نأخذ نصف عدد الأكياس التي وضع فيها المحصول بعد الحصاد. وقبل أن يراها أحدٌ حملناها على ظهورنا لنخفيها في الوديان.

– يا إلهي! – قالت أمي وهي تغمغم: أخذ ينبش الماضي مرة أخرى.

واصل أبي الكلام وأخذ صوته يتكسّر ويتفتت في وسط الغرفة قائلاً:

– كنا نأخذها إلى الوديان لنخفيها. ونغطّيها بالدّغل والأعشاب لكيلا تكتشف بسهولة. وكان جنود الدَّرَك ومعهم مختار المنطقة يفتشون في كل الأرجاء لمصادرة النصف من كل نوع من أنواع الغلال. في الجبال والوديان وحتى الكهوف. فلا يتركون بيدراً إلا داهموه ولا جرناً أو مستودعاً في أي بيت إلا فتّشوه شبراً فآخر. يفتشون في كل حفرة من الحفر الموجودة في فناءات البيوت وفي أقفاص الدجاج والإسطبلات وحتى فوق السطوح. رجال الدَّرَك الذين كانوا يجوبون البلدة من أقصاها إلى أقصاها كانوا يحملون على أكتافهم بنادق تلتمع الحراب في نهاياتها. يأتون في موسم الحصاد تحت آباطهم سجلّات سوداء، يصادرون النصف من كل أنواع المحاصيل. ومن أجل ألّا نقضي الشتاء ونحن نتضوّر جوعاً، ومن أجل ألّا نطلب حاجتنا من الغرباء نتصرّف قبل أوان قدومهم. وما إن نقوم بتهريب نصف محاصيلنا من بين أيديهم، كانوا يأتون ويصادرون نصف ما يتبقى ويذهبون.

– نعم هكذا كان الأمر. قالها خالي (وقاص).

ثم لوّح أبي بيده بغضب، وكأنه يهشُّ على تلك الذكريات التي ظلّت عالقة في ذهنه، ليدفعها بعيداً عنه.

– أين بقي؟ – قالها والتفت إليَّ – أين هو (نهاد)؟

– غداً سيأتي يا أبي – قلت له.

في اليوم التالي بعد صلاة العصر بقليل جاء (نهاد) وبيده حقيبة صغيرة. كان قد أرسل إليّ برسالة على هاتفي الجوال يعلمني بقدومه، ويطلب إليَّ أن آتي إلى سوق البلدة. فذهبت بسيارتي لاستقباله هناك.

فتح باب السيارة وقال لي وهو يجلس إلى جانبي في المقعد الأمامي:

– أرجو المعذرة يا أخي الكبير. ضربت لك موعداً هنا لأننا لا نستطيع التحدُّث في البيت على راحتنا.

– إذا جلسنا إلى أي مقهى سوف لن نحظى بخلوة مع بعضنا بعضاً – قلت له.

– أنت محق! – قال: لا بد سيأتي أحد ما ليجلس معنا.

– ولا يمكن أن تقول لمن يأتي ليجلس عندك، انهضْ من هنا لا نريدك بيننا.

– طبعاً لا يمكنك أنْ تقول هذا لأحد – قال (نهاد).

ففي أثناء ذلك أدرتُ محرك السيارة، وتركت البلدة، واضعاً الأرض اليباب تلك وراء ظهري. ثم غَيّرت مبدّل الحركة إلى الرقم الثاني وسقت سيارتي على مهل، سالكاً الطريق من بين حقول الكروم صوب نبع (كوك بينار). لم يكن قد بقيَ أي أثر يذكر من هذا النبع الذي كان محط أنظار الجميع، حين كان الشبان والصبايا يرتدون أحسن ما عندهم من ملابس ويأتون إلى هنا لكي يحظوا بشرب الماء البارد الجاري في أخاديد مصنوعة من خشب. ولم يبق أي ذكر للأعشاب التي كانت تنمو في محيط الأحواض. ولا لطنين النحل ذي الأجنحة الصفراء والخضراء، أو نقيق الضفادع المنتشر في الجوار، في الأرض المعشوشبة الواقعة قرب النبع، ولا أثر لأشجار الجمّيز والحَوْر الأبيض التي كان العشاق يحفرون فيها صور قلوبهم، والأحرف الأولى من أسمائهم. ولم تعد تُسمَعُ سقسقة الطيور أو زقزقة العصافير على أغصان هذه الأشجار. واستُعيض بدلاً عن الأرض المعشوشبة ما يساويها بالأبعاد مساحة ليست مسطحة تماماً سويت بالإسمنت ووضعت إلى جانبها مصطبة لها قوائم من حديد. وفي مكان يقع أسفل المصطبة نبعٌ متعب انقطع صوت خرير مائه، ولم يكن يجري في أخدوده سوى خيط رفيع من الماء أشبه بخيط من نسالة قطن من ستارة. لم يكن يسمع صوت خريره، وكان على وشك الانقطاع. أطفأت محرك السيارة وأردت أن أترجل من السيارة، إلا أنني بقيت أتامّل المنظر الذي كان يدمي القلب.

سألني (نهاد):

– لم جئنا إلى هنا يا أخي الكبير. لدينا كلمتان اثنتان! كان باستطاعتنا أن نقولها في الطريق ونحن ذاهبين إلى البيت.

- صدقني أنا الآخر لا أدري لم جئنا إلى هنا - قلت له.

ثم لُذنا بأذيال الصمت لبعض الوقت.

- أي ي! - قلت بعد مدة: ما هي نتيجة الخزعة؟

- لا تسلني يا أخي، فالنتيجة سيئة للغاية!

- هل هو ما كنّا نخشاه؟!

- نعم!

- هل اقترحوا اتباع أي وسيلة للعلاج؟

- لا لم يوصونا بأيّ علاج! قالها (نهاد) وهو يتنهد. ولكنني بعد أن خرجت من قسم جراحة المسالك البولية، رحت والتقيتُ بالطبيب الأخصائي في قسم الأورام. فهمت أنه ليس هنالك ما يمكن القيام به مع الأسف. قال لي لا تعذّبوا مريضكم أكثر من هذا. فمن الأفضل أن تعتنوا به في البيت، وأن تبذلوا ما بوسعكم من أجل التخفيف عن معاناته.

قلت بهمس:

- فهمت! - قلتها وبلغ قلبي حنجرتي.

دون وعي رفعت رأسي ونظرت إلى النبع الذي كان ماثلاً أمامي بالضبط. فكان يعتصر أواخر قطراته. هو الآخر نظر إليّ نظرة قاسية كأنه يعيش أواخر أيامه. شغّلتُ محرك السيارة ودرت بالسيارة حول أشجار الجمّيز التي كان حفيف أوراقها مسموعاً، عائداً إلى البلدة عبر الطريق الوعرة.

تقدم (نهاد) بخفّة وقبّل يد أبي. وبادر إلى القول:

- يا أبَتِ! لا داعي لمراجعة المستشفى بعد هذا. قال (نهاد) لكي يقطع الطريق على تساؤلات أبي.

- حسنٌ ماذا سيحدث بعدها؟ - سأل أبي.

لم يعرف (نهاد) بماذا يجيب على سؤال أبي. ظلَّ لبعض الوقت يفرك باطن كفّه بكفّه الأخرى. ثم عاد القهقرى على نحو بطيء وجلس إلى الكنبة.

- يا أبَتِ! - قالها (نهاد) ثم غيّرَ من نبرات صوته وكأنه ليس هنالك

أي شيء: مرة واحدة في كل خمسة عشرة يوماً يتوجب تغيير المسبار (الصوندة)، هكذا قالوا لي. فلا تهتم من أجل تغيير الصوندة لن يتوجب علينا الذهاب إلى المستشفى بعد هذا. بل سوف يأتيك الموظف الصحّي ويغير لك الصوندة في البيت.

فهزّ أبي رأسه على مهل.

في أثناء ذلك مرّ قطيع من الخراف تناهى صوت أجراسها من الطريق المار أمام المنزل. بعدها مرّ جرّار أحمر يسحب خلفه مقطورة حمل. ثم دخل خالي (حسين) عبر الباب. وما إن مرّت عشر دقائق على مجيئه حتّى حضرت العمة (هجران) تحمل كأساً من السوتلاج[42] ومن بعدها جاء (زبير) بصحبة زوجته وشقيقة زوجته. ومن بعدهم جاء خالي (وقاص) وهو يحرك رسغيه إلى الخلف بسرعة، ثم تبعته خالتي الصغيرة وزوجُها (متين). وبعد رفع أذان المغرب بمدّة قصيرة جاءنا (جاويد) يتبعه (بكير). (بكير) لم يزل يشعر بالذنب. كان يلوي رقبته لينظر إلى الأرض ويلهي نفسه بتمرير أصابعه على نسيج السجادة لكي يتهرب من النظر بوجه والدتي.

خيم الصمت على المكان. حتى لكأنه اتفق الحاضرون على ألّا ينطق أحد منهم بأي كلام في هذا الوقت بعينه. بالطبع احتار أبي واستغرب سبب هذا الصمت المطبق فلملم أطراف البطانية خلف ظهره، وراحت نظراته تجول على وجوه الجميع في الغرفة، ثم رفع صوته قائلاً:

– هي ي ي أيَّتها الدنيا الفانية. سيكون هذا حالنا في قادم الأيام.

فالتفت (زبير) إلى أبي وقال:

– عمّي عزيز! المرحلة التي تشهد تصغير احتياجاتنا الكبيرة، وتهويل احتياجاتنا الصغيرة تسمى مرحلة الشيخوخة. ماذا نفعل؟! علينا أن نرضى بما قُدِّرَ لنا.

– ومن زاوية أخرى – قال (جاويد) الجالس لدى الباب: الشيخوخة

42– سوتلاج: نوع من المهلّبية تعمل بالأرز والحليب – المترجم.

تعني أنه قد آن الأوان لرؤية المسافات القصيرة على حقيقتها، كم هي قصيرة وكم هي بعيدة.

فأخذ أبي ينظر بشزر إلى هذين الشابين النزقين اللذين تنقصُهما الخبرة وكأنّ به يقول لهما: «أنا أعيش الشيخوخة! أما أنتم فتجلسون قبالتي، تفلسفون الأمور. وتقطعون أحكاماً جاهزة بمحاولات تلخيص الحياة بطولها وعرضها بجملة واحدة مزوَّقة لحشرها في قالب ضيق». لا أدري ربما تهيّأ لي أنّ أبي نظر إليهما هكذا. ولربما أنا الآخر قمتُ بتقليد أبي حين التفتُّ إلى (جاويد) و(زبير) ونظرت إليهما شزراً. أشبه بنظرات أبي. فلاذا بالصمت ولم يفتحا فمَيهما بعد ذلك.

وبعد أن ساد الصمت قال أبي:

– في يوم من الأيام، بعد صلاة العشاء، شدَدْنا الرِّحال وخرجنا من (دنيزلي) إلى (أنقرة) في ليلٍ بهيم.

– آه يا ربّي! – غمغمت أمي وقالت: عاد ثانية إلى تذكر الماضي!

– أخذتُ (إدريس) ابن خالي إلى جانبي. قلت له تعالَ معي، بدلاً من أن تتقافز هنا وهناك دون شغل ولا عمل. سأكلّم مالك الشاحنة لتعمل معي معاون سائق. فجاء معي. أي أنه كان معاوناً لي. هذا يعني كلانا كنا نعمل أجيرَين عند رجلٍ آخر. عليك أن تتصور ما معنى العمل لدى (الغير)! ليس سهلاً أن تعملَ كأجير تحت رحمة (الغير)... وهكذا، كما قلت قبل قليل، كنا قد شددنا الرحال وخرجنا إلى الطريق بعد صلاة العشاء. كنت أسير في المنعطفات بحذر شديد في تلك الليلة. فقد كانت أحمالنا ذات تحويلة[43]. كنا نسير في الشارع وكأننا نكنس النجوم أمامنا. على أي حال وصلنا إلى (بولاتلي) مع شقشقة الفجر. شربنا الشاي وتناولنا سميطاً ثم واصلنا المسير ثانية. حين خرجنا من المدينة كان هنالك طريق يتفرَّع نحو (هيمانا).

43– هنالك نوعان من توصيف الأحمال: الأول توصيل البضاعة المنقولة والنوع الثاني هو تحويل. أي يكون الناقل وسيطاً بين المجهز وبين ناقل آخر – المترجم.

عندما وصل أبي إلى هذه النقطة في حديثه، التفتَ إليَّ. ثم ضيق ما بين جفنيه. نظر إليَّ وكأنَّني واقفٌ على مسافة بعيدة عنه.

– أنت تعرف تلك المنطقة. قال: حيث تتواجد محطة للوقود في العطفة. بالطبع في تلك السنوات التي أتحدث عنها لم تكن هنالك محطة وقود. بل كانت تلك البقعة مثل غابة كثيفة الأشجار. على أيّة حال خرجنا من مركز المدينة واقتربنا إلى مفرق (هيمانا) هناك في تلك اللحظة خرج جرّار أحمر، منطلقٌ بسرعة جنونية، يتقافز مثلما يفعل الجمل أثناء المسير، حتى صار أمامنا. صرخنا «يا الله يا الله!». في أثناء هذا الاهتزاز كان سائق الجرار أيضاً يهتز بشكل عجيب. رأسه يغيب مرة بين كتفيه ومرة أخرى يظهر إلى العيان. يظهر ويغيب.

نهضت أمي فجأة وانطلقت إلى الخارج. ثم عادت بلمح البصر، تحمل كأساً فيه ماء. قدمتْهُ إلى أبي. فلم يقلْ لها أنا لم أطلب منكِ ماءً بل تناول الكأس بيديه الراجفتين وشرب ما فيها. بعدها أخذ يشرب ويشهق. يشرب ويشهق حتى استلقى وأراح رأسه على الوسادة، مطبقاً جفنيه ببطء. ظلَّ مستلقياً على هذه الحالة حتى بدأ ينسل صوب عالم النوم بوجهه الشاحب.

نهض الجالسون من حوله، كلٌّ يقول: «لنذهب فقد تأخر الوقت علينا». وخرجوا من الباب من تحت متسلقات الكروم والبرقوق كصفٍّ واحد. مرّوا فرادى ومثنى وانتشروا في ثنايا الظلام.

على الفور بدأت أمي تلملم أقداح الشاي المتناثرة هنا وهناك. نقلت كل الأقداح إلى المطبخ ثم عادت. وجلست كما كانت تفعل دوماً. جلست على الوسادة الموجودة عند البوتوجاز. أنا و(نهاد) كنا على الكنبة المواجهة له، كنا نلوي عنقينا ونحن ننظر إلى أبي بذلّة.

فجأة سمعنا صياح طائرٍ ما، من نوع لم نعهده، قادماً من الخارج. سمعنا الصوت وكأن بعيداً يوحي لنا أنه قريب. قريب وكأنه بعيد كل البعد عنّا. فزعت أمي عندما سمعت صوت ذلك الطائر، وغيَّرت من

هيئة جلوسها وتوجهت بالنظر إلى النافذة. فأعاد الطائر الكرّةَ مرة أخرى حين نظرت أمي في ذلك الاتجاه. لم يكن ذلك صداحاً وحسب، بل كان مثله مثل صراخ رجل يتضور ألماً أو يتنازع الروح. أو لكأنه صراخ امرأة حامل جاءها المخاض.

حينئذ مدَّت أمي كلتا ذراعيها باتجاه النافذة واضعة رأسها على ساعديها وبصوتها المرتعش الكئيب قالت:

– هيا اذهبوا إلى هذا الطير الملعون واطردوه... هذا الوقواق اللعين.

أنا و(نهاد) نظر كل واحد منا إلى صاحبه. كانت أمي قد جحظا عيناها كأنهما على وشك الإفلات من محجريهما. صاحت:

– لماذا تقفان هكذا مكتوفَي الأيدي! هيا اذهبا واطردا ذاك المنحوس.

– أماه! من يدري على أيّ غصن يحطّ؟ وفي أي تجويف شجرة يختفي الآن؟ – قال (نهاد) – تعرفين طائر الوقواق لا تُسمَع رفرفةُ جناحه، فكيف نجده في هذا الليل المظلم؟

– ليأخذ كل واحد منكما عصا لإثارة ضوضاء، اضربوا عصيكم هنا وهناك يميناً وشمالاً. حتى إذا تعذر عليكم العثور عليه فإنه سوف يشعر بكم. لا أريد لهذا الوقواق اللعين أن يجوب حول بيتنا في هذا الليل. لا تدعوه ينعق!

إنْ لم نلبي ما طلبَته أمي إلينا لأخذَتْ على خاطرها ولأصيبت بالأرق. لهذا قمنا نحن الاثنين، خرجنا إلى الحديقة ورحنا في بادئ الأمر نبحث هنا وهناك في الظلام عن عِصيّ. لم نعثر على أي شيء ينفعنا في مهمتنا، ثم نزلنا إلى الطابق السفلي من البيت حيث كانت تنتشر فيه أدوات احتياطية للسيارات. التقط (نهاد) سلكاً كهربائياً غليظاً يبلغ طوله نحو مترين، وناولني أنبوباً صدئاً من أنابيب العادم يبلغ الطول نفسه تقريباً.

من مكانه المجهول صاح الوقواق مرة أخرى بألم وبصوت مخنوق. فقلت لأخي (نهاد):

- يا هذا هل فقدنا عقولنا؟ ما الذي ننوي القيام به الآن؟

التفت (نهاد) ونظر إليَّ، ثم قال لي:

- يا أخي لا تتصوَّر أنك أنت بل تخيّل أنك ذراع أمك. نحن الآن ذراعا أمّنا. تخيّل أننا لسنا نحن! ومن يقوم بطرد الوقواق هي أمّنا. فإذا أخفقنا في مهمتنا، وظلّت هي تسمع ذلك الصوت فإنها لن تذوق طعم الراحة. أنت تعرف ذلك.

- أعرف! - قلت له.

وهكذا صرنا ندور في أرجاء الحديقة ونضرب جدار السياج والأغصان بما نحمل في أيدينا. حتى أننا أحياناً كنا نتولى الفراغ بعصينا، نشبعه ضرباً ونهشم فمه وأنفه. ثم أخذنا نجوب حول المنزل وكأننا نرقص أو نلعب لعبة.

على قدر ما كان الخوف يفرض هيمنته على أمي، كان هذا المكان يهيمن علينا، ويجعلنا صغيرين في أعيننا، كما لو كنا مجرد ألعوبتين. لذلك حينما كنا نضرب تلك الأماكن بما كنا نحمل في أيدينا. كنا نتصور أننا نضرب ذلك الخط الفاصل بين أفكار الوالدة وبين أفكارنا. فالسلك الغليظ الذي يحمله (نهاد) يئز مثل السوط كلما ضرب به، أما الأنبوب العادم الصدئ الذي كنت أحمله أنا وأضرب به فكان يصدر رنيناً عجيباً. يتردد في جوف الليل ويتصادى رجعه كلما طوّحْتُ به هنا وهناك. كنت أتخيَّل أنني إنما أضرب ذلك الطائر المسكين بالأنبوب. كنت أتألّم وألوم نفسي خشية أن تطاله ضربةٌ واحدة من ضرباتي سهواً.

وعلى هذا المنوال طُفنا حول المنزل عدّة مرّات، ولا أدري كم مرة بحثنا في أرجاء الحديقة، ولكننا أثرنا جلبةً كبيرة وبالغنا في افتعال الضوضاء بشكل يكفي لأن تتصوَّر الوالدة أننا قد أدَّينا ما علينا وأكثر. وخُيِّل لي أننا نجحنا في طرد هذا الوقواق المتطفّل، وتلقِينه درساً بليغاً سوف يكون رادعاً له ولبني جنسه لكيلا يقتربوا بعد هذا إلى هذا المنزل أبداً.

بعد كل هذا الإنجاز هرعت بأنفاس متقطعة وجلست على الصخرة الموجودة أمام باب الحديقة وأشعلت سيجارة. كانت إحدى يديَّ ترتاح على ركبتي وما زلت ممسكا الأنبوب بها. أما يدي الأخرى فكنت أمسك بها سيجارتي التي يتصاعد منها دخان يتلبد مع ما كنت أنفث من دخان عن طريق فمي.

- يا أخي الكبير! - قالها (نهاد): يبدو أن الضجيج الذي أثرناه قد أخاف الوقواق كما ينبغي، وأكملنا مهمتنا مثلما طلبتْه أمنا. اسمع لقد انقطع زعيق الوقواق تماماً.

- حقاً! لم يعد يسمع له صوت - قلت له ذلك ثم ملت إلى أسفل الصخرة لكي أطفئ سيجارتي. فكان (نهاد) يقف على بعد بضع خطوات عني وهو يصغي إلى الجوار. بعد ذلك نهضت من مكاني، ونزلنا أنا وأخي معاً إلى «البدروم» حيث تراكمت هنالك الأدوات الاحتياطية. رمينا الأنبوب والسلك هناك، ثم مررنا من تحت متسلقات الكروم والبرقوق ودخلنا البيت يتبع أحدنا الآخر.

كانت والدتي جالسة إلى جانب أبي، تضع إحدى يديها على الأرض وكأنها متأهبة للنهوض في أية لحظة. وحالما وقع علينا بصرها سألتنا:

- هل طردتم ذلك الطائر النحس؟

- لا تقلقي لقد طردناه! قال (نهاد).

نظرت أمي باتجاه أبي وتحسّرت على نحو عميق. لم تتفوّه بأية كلمة. بأنفاس مكبوتة وبعينين مترعتين بالخوف ظلّت تصغي إلى الخارج. وهكذا قضت الليل بطوله تصيخ السمع لطائر الوقواق سيزعق أم لا؟ في اليوم التالي نحو المساء، فيما كان أبي يغطّ في نومه ناداني أخي (نهاد) إلى الخارج.

- أخي الكبير! لقد ازدادت أعداد الضيوف مع ازدياد حالة أبي سوءاً. أنا برأيي أن نقوم ببتر متسلقات الكروم والبرقوق هذه، فقد أصبحت عائقاً.

كنا نقف على قارعة سواقي الطماطم المتاخمة لباب الحديقة.

– قلت له: أنت تعلم أن أبي لا يوافق على قطعها.

– ولكنها ليست مناسبة في ذلك المكان يا أخي – قالها (نهاد) مصرّاً على كلامه – الضيوف يدخلون ويخرجون من البيت بصفّ واحد وهم يحتكّون بالجدران. هذا مشين للغاية. ثم أننا لن نخبره بذلك فكيف سيعرف أنّها قُصَّتْ؟

لم أستطع أن أجيبه إزاء كلامه هذا فطأطأت رأسي وعدت لأجلس على الصخرة أمام باب الحديقة. أما (نهاد) فقد وجد منشاراً ووقف هنالك عند أصل المتسلقات ينظر إليَّ لبعض الوقت. كنت قد أشعلت سيجارةً وأدرت ظهري إلى البلدة وأنا أنفث دخان سيجارتي صوب الجبال. أحياناً كنت أراقب (نهاد) من بين دخان سيجارتي المتطاير، وأنا جالس هناك. أحبس أنفاسي. فما كان إلا أن قُطِعَتْ المتسلقات. بالطبع لم تسقط المتسلقات إلى الأرض حين قُطِعَتْ لأنها كانت متعلّقة من فوق بخيوط قوية إلى مسامير في السقف، بل تضعضعت من مكانها قليلاً، فمسك (نهاد) بما تبقى منها معلّقاً في واجهة الباب، وقام بقطعها الواحدة تلو الأخرى. أما حين أطفأت سيجارتي وأشعلت سيجارة أخرى باشر (نهاد) بقطع نبتة البرقوق. فكان أن تجلجلت كلما عمل فيها بمنشاره. ارتجفت كل أوراقها واهتزت برمتها ثم انهارت على الأرض على نحو مفاجئ. شعرت بالألم في كل أنحاء جسمي في تلك اللحظة، وقد خيّل إليّ أن أبي هو الذي انهار وسقط على الأرض لا شجيرة البرقوق تلك.

في صبيحة اليوم التالي عدتُ إلى (أنقرة).

-11-

من دون أن أتناول فطوري الصباحي ركبت سيارتي وسلكت الطريق باتجاه (دنيزلي).

البسكويت الذي أحضرته لي (سحر) كان مرمياً على المقعد الأمامي الواقع إلى يميني. قالت وهي تدعس مغلف البسكويت في يدي: «خذ هذا وكل منه متى ما شئت، فلا تسق سيارتك وأنت جائع». حينما دخلت إلى الطريق الحولي تعلقت نظراتي بقطع البسكويت لعدة مرات ولكن انتابتني الحيرة، لا أدري لمَ لمْ أنتبه إلى تلك المغلّفات منذ أول وهلة! ولم ألمسها قط. كانت قد وضعت لي (سحر) كمية كبيرة منها، أضعاف مضاعفة مما يمكنني أن أستهلكه. علبتين من النوع المملَّح وأربع علب من النوع المطّعم بالبندق وخمس علب من المطعَّم بالجبن. ولم تكن من نوع العلب الصغيرة بل كانت علباً كبيرة. عندما ألتفت كي أنظر إليها أجدها مضحكة بعض الشيء وأرى أن هنالك مبالغة جدية في حجمها. حينما بلغت أول الطريق المؤدي إلى (أسكي شهر) بدأت أفكر في السبب الذي دفع (سحر) للمبالغة في وضع البسكويت في علب بهذا الحجم. ولكنني لم أتوقف عند ذلك أكثر مما ينبغي، واكتفيت بالقول بيني وبين نفسي ربما أفلتت (سحر) بيضة القبّان. حتى أنني التفتُّ إلى المقعد الكائن على يميني كما لو كنت ألقي نظرة إلى شعبة مضيئة عامرة بأنواع البسكويت في (مول) كبير. وفي أثناء ذلك رسمت ابتسامة خفيفة على فمي.

ما إن ابتعدتُ عن (أنقرة) حتى وجدت في نفسي رغبة في الاستماع

للأغاني مثلما هو دأبي في كل مرة. فامتدَّت يدي إلى مسجل السيارة ودُستُ بإصبعي على زرّ التشغيل وأخذتُ أستمع إلى صوت (حاجي تاشان) المتألّق الذي يلج في قلوب مستمعيه بلا استئذان، بأغنيته (موكب العروس آتٍ من أسفل الوادي، فهل زوّجوكِ يا مليكة روحي) بعد ذلك صدح صوت (أوكان مراد أوزتورك) بأغنية: (امتلأت الوديان بالثلوج، تعقّب الصيادون الآثار. رمتني عروسٌ بسهام لحظها فأصابتني وشدّت صبية أخرى جراحي). ومن بعد ذلك جاء الدور على (أنور دميرباغ) وأغنيته: (تشتعل القناديل في المنارة العالية)، وهكذا كنت أقضي ساعات طويلة وأنا أشقّ طريقي في عالم الأغاني، أتسلّق المرتفعات وأهبط، آخذ قسطاً من الراحة وفي آخر المطاف، نحو العصر، بلغت مفترق (كاكليك) مختتماً هذه الرحلة الطويلة بأغنية: (طيب كلامك يراودني في الليل، وفي النهار يلهج لساني بذكركِ) للمغني (ندا آتش).

من هناك يمّمت وجهي صوب طريق (أوشاك)، بالطبع شعرت بالقلق حين وصلت إلى المكان نفسه الذي اختفى فيه الحصان. بِتُّ أجول ببصري هنا وهناك وأسأل نفسي: ترى هل سيظهر لي الحصان هنا؟ في هذه الساعة كنتُ أشقُّ طريقي وسط حقول مترامية الأطراف، زُرِعَ فيها القطن، ومساحات أخرى زرعت كروماً. تتخلّلها منازل ذات طابق واحد وبيوت ذات طابقين، صبغت باللون الأبيض. أخذت أشق طريقي بين هذه المزارع، وأتقدم مسافة ما حتى خلفت الجسر المشيّد على مسيل نهر جاف. ومن ثمة رحت أصعد باتجاه تل (زيبار). لا أدري ما سبب احتجاب الحصان عن الظهور رغم أنني وصلت إلى مفترق (تشال). كنت أترقب ظهوره بحمية وأخشى أن يظهر فجأة وهو يصهل بمرارة، لذلك كنت أراقب المرايا الجانبية. أنظر هنا وهناك فيما كنت أمضي في طريقي وكأنني أمشي على أشواك. عدلت وضع جلوسي وتنفست الصعداء وأنا أفكر أن الحصان ربما لن يظهر. إلا أن شعوري بالراحة لم يدم طويلاً، إذ انتابني الخوف حين خُيل لي أن الحصان ربما فقد صبره وملّ من طول الانتظار لذلك سبقني إلى البلدة. حين بلغت البلدة كان حلقي قد تيبس تماماً، وقلبي ينبض بقوة، وكأنه يوشك على الإفلات من

قفصي الصدري. أطفأت المحرك وترجَّلتُ من السيارة على الفور. مشيت بخطوات مرتبكة نحو باب الحديقة. كانت الأرجاء برمتها غارقة في سكون مطبق، يدفع المرء إلى الحيرة وإلى السؤال عن سبب هذا الصمت.

لم يكن هنالك من أحد لا في الأزقة، ولا أحد يقف لدى الأبواب أو يطل من خلف الشبابيك. حتى جبل (بيشبارماك) كان صامتاً. يقف بكامل أبهته تضاريسه الوعرة المتباينة تحت أشعة الشمس. الوحشة في هذا المنظر أثارت هواجسي. ترى هل حدث مكروه ما لأبي؟ هرعت إلى الباب داخل المنزل. شعرت أن دمائي نزلت إلى ساقيَّ، وصارت أنفاسي مثل كرة من النار تحرق وجهي. مددتُ يدي المرتعشة إلى الباب، أدرت المفتاح ثم دخلت. لم أجد أحداً في الداخل. كان فراش أبي فارغاً، ليس عليه سوى تلك البطانية المقلمة بأشرطة صفراء وزرقاء. حينها قلقت أكثر ولم أعرف ما يتوجب عليَّ القيام به. أمضيت بعض الوقت واقفاً لدى الباب. ومن أجل أن أتحرى عما جرى هنا جلست إلى الكرسي البلاستيكي بالقرب من أكياس كانت مطروحةً هناك، وخابرت خالي (حسين). رنّ هاتفه وظلَّ يرنّ ويرنّ ولا مجيب. يبدو أنه كان عليَّ أن أقوم بهذا العمل منذ البداية. خابرت أخي (نهاد) ظل الهاتف يرن ويرن ولا أحد يجيب. لا أدري ما السبب.

انطلقت إلى الخارج والهاتف بيدي. وقفت عند باب الحديقة نظرت يمنة ويسرة فلم أجد أحداً غير الصمت الذي كان يخيم على الجوار. صمت يقوّمَ الأسيجة الخارجية للمنازل، يسيل على امتداد الزقاق. يتحوّل إلى برك في فناءات البيوت. ينبجس من هناك ليصل إلى حافات السطوح، ويتدفق عالياً نحو السماء مصطبغاً بزرقتها وخضرة الأشجار. كان هذا الصمت يكبر كلما واصلتُ النظر إليه. يكبر ويتوسع هنا وهناك. فانطلقت إلى بيت خالي (حسين) الكائن في الزقاق النازل إلى الوادي المتاخم للمقبرة. أخذت ألاكم البوّابة الخارجية المكوّنة من درفتين، المصبوغة بالأزرق. بعد ذلك بدأت أهزّها من جذورها فلم يأتِني أحد. ومِن ثَمَّة انتقلت إلى بيت خالي (وقاص) ثم إلى بيت عمي (أيوب). ناديت مراراً: «خالي حسين! خالي وقّاص، عمُّ

أيوب!»، فلا مجيب. صعدت المرتفع بأنفاس متقطعة وأنا أعدو قاصداً منزل (زبير). دخلت البيت، مررت بجانب السلال التي كانت مليئة بعناقيد العنب ووصلت إلى الباب في الداخل كانت قواي قد انهارت، ولم تعد ساقاي قادرتين على حمل جسمي. قضيت بعض الوقت متماسكاً لئلّا أسقط من شدة الإعياء. التفتُّ بين الحين والآخر لأنظر إلى سلال العنب. أمطرتُ البابَ بضربات من قبضات يديَّ فلم يفتح لي أحد. ناديت «يا أخي (زبير)» مراراً، بصوتٍ لم يكن يشبه صوتي لا من قريب ولا من بعيد، ولم يأتني جواب من الداخل. بل لم أسمع ولا نأمة حتى. بل جاءني ثغاء أحد الخرفان قادماً من زريبة الأغنام المحددة بالطوب. وبعد الثغاء أخرج الخروف رأسه من بين الألواح الخشبية التي كانت تغطي سقف الزريبة، ونظر باتجاهي. أخذتُ أخطو باتجاه البساتين، لا أدري إن كان هذا من شديد يأسي أم لسبب آخر! غادرت فناء بيت (زبير) هائماً على وجهي أمضي بلا هدف. ليست لي أية فكرة عن وجهتي. كنت على وشك الانهيار. دخلت البستان من فتحة واطئة في الجدار. تلك الفتحة المتاخمة لأشجار الكمثرى. وما إن نقلت بضع خطوات حتى وجدت أبي جالساً هناك عند إحدى السواقي، يحتضن كيس الإدرار. مطأطأ الرأس يتأمَّلُ التربة التي يجلس عليها. تحيط به أوراق كبيرة وصغيرة مختلفة الألوان، ضاربة إلى الأخضر. ناديت عليه: «يا أبي!»، فرفع رأسه إلى أعلى لينظر إليَّ من دون أن تظهر عليه علامات الاندهاش.

– ماذا تفعل هنا؟

– لا تسلْني يا ولد! تركوني هنا. قال.

جلست عنده وأنا حائر لا أدري ماذا أقول. كنت منزعجاً للغاية.

– حسناً... لماذا جاؤوا بك معهم إلى هنا؟

فنظر في وجهي بنظرات خاوية من أيّ معنى، ثم قال بصوت ينمّ عن مدى اندحار صاحبه:

– لو كنت أعرف جواباً لسؤالك لأجبتك!

– هيا – قلت: تعالَ لأحملك على ظهري ونذهب.

– على ظهرك!؟ – سألني ثم أشار بنهاية ذقنه إلى كيس الإدرار – غير ممكن! ربما يفلت الأنبوب المطاطي من الكيس ونتسبب في إثارة مشكلة. من الأفضل أن تحملني في حضنك.

– حسناً – قلت له – ليكن كذلك.

ثم استدرت إلى جهته الأخرى، وضعت إحدى يديّ خلف ظهره، واليد الأخرى تحت ساقيه ثم رفعته إلى حضني ونهضت على مهلي، رويداً رويداً. في هذه اللحظة بالذات خُيّلَ إليَّ أن كل السواقي الترابية نهضت معي نهضة رجل واحد. حتى الشتلات من الحُمّاض والعلّيق واللوز والهليون والأعشاب وكل أشواك الأرض التي كانت تحف بالبستان نهضت نهضة رجل واحد. وما إن نهضت حتى استوت كلها تحت السماء كطبقة واسعة كابية اللون مكونة من أغصان وأوراق متشابكة وبدأت كلها تغمغم بصوت واحد. وفي الحقيقة لم تكن هذه غمغمة وحسب، بل كانت الأرجاء برمتها ترتدي ثوب الحِداد وتنتحب. ومن رؤية ظلالها الساقطة على الأرض يخيّل للمرء أنها كائنات ترتعش، لها أوردة وشرايين، وأنها تبكي وتتوسل بلغة غير مفهومة على الإطلاق. هنالك قال أبي:

– ما هي هذه الأصوات؟

التفتُّ إلى البستان وأنا أحمله في حضني، وفي نفسي رغبة جادّة، ربما سوف لن تتهيأ له فرصة مؤاتية أخرى لرؤية هذا المكان، أردت أن أريه كل تلك الأغصان التي كان يقلّمها وقد قام بتقليمها مئات المرات، وتلك الشتلات التي غاص بمعوله إلى أسفلها مرّاتٍ عديدة لكي يوصل إليها الماء، وقد لمس لحاءها مرّات ومرّات. وبينما كان الرجل يمتّع نظره برؤية البستان حرصت أنا على إتاحة الفرصة للبستان أيضاً بأن يلقي نظرة على هذا الرجل الذي أحمله في حضني. وفيما كنت غارقاً بهذه الأفكار أدور به ليرى الأرجاء كلها، والأرجاء تراه، بدا لي أنني بدأت أفقد توازني فندّت عني صرخة أفقتُ على أثرها وثُبْتُ إلى رشدي.

كان العرق يتفصَّد على جسمي كله. ما زلت أشعر بثقل أبي على ذراعَيَّ،

وكانت نبضات قلبي متسارعة بشكل جنوني. نهضت من فراشي، تناولت علبة سجائري وقدّاحتي وهرعت إلى الشرفة.

في تلك الأثناء كان الفجر على وشك الانبلاج وقد استنارت الأرجاء برمتها، الأزقّة والسيارات التي ركنت إلى جانبي الرصيف قبالة العمارات. حتى أشجار الصنوبر في مجمعنا السكني قد أضيئت. لم أستطع الجلوس على الكرسي في الشرفة لأن الجو كان بارداً، فاكتفيت بتدخين سيجارتين، الواحدة تلو الأخرى، وأنا واقف. وبينما أنا أدخن سيجارتي كنت أرنو إلى طريق اسطنبول الواقع خلف (كوكسوبارك) والسيارات التي تسلك الطريق كانت تقترب تارة وتبتعد أخرى. يخيل لي أنها كانت تشق طريقها في السماء وهي تزمجر. حتى أن الهدير الذي كانت تثيره كان كافيا ليزلزل شرفتنا أحياناً. هرعت إلى الداخل وكأنني شعرت بالبرد قليلاً، فرحت من فوري لأخذ حمام ساخن. ثم بدأت بتهيئة حقيبتي ذات اللون اللازوردي.

استيقظت (سحر) على صوت جرارات الملابس التي كنت أفتحها وأغلقها. غمغمت قائلة (صباح الخير) بوجه ناعس. ذهبت إلى المطبخ ثم عادت بعد وقت قصير وهي تحمل فنجانَي قهوة. سحبَتْ منضدة صغيرة من إحدى زوايا الغرفة ووضعته أمامي ثم جلست لِصْقي لتشرب القهوة معي. وما إن أخذتْ رشفتين من فنجان القهوة رُحتُ أقصُّ عليها بصوتٍ يغالبه النعاس الحلمَ الذي رأيتُه. قصصتُ عليها الحلم وأردتُ أن أفسِّر بنفسي بعض ما رأيت، ولكنني تمالكت نفسي ولم أقم بإبداء رأيي في ذلك. فكرت أنني إذا قمت بتفسير ما رأيت من مشاهد الحلم سوف أكون في موقفِ من يستخفّ بقابليات زوجتي وذكائها. وفي الحقيقة خشيت أنها ربما ستشعر أنني أنتقص من شأنها. لهذا السبب تركت بعض المشاهد مثل رؤيتي لعلب البسكويت، والبوّابة ذات الدرفتين في دار خالي (حسين) والسلال المليئة بعناقيد العنب في فناء بيت (زبير) وثغاء الخروف الذي رفع رأسه من الزريبة ونظر إليَّ. كما تركت كل ما جرى معي في البستان على حاله من دون إضافات أو أي تأويل. قلت لزوجتي (سحر):

- يتوجب عليَّ أن أكون هناك عند والدي. لا أشعر بالراحة قط.

- أنت أدرى - قالت وتناولت الفنجان مني - ما دمت لا تشعر بالراحة فاذهبْ وكن إلى جواره.

وضعتْ يدها على ركبتي.

فجأة شعرت بالحزن إزاء تصرفها هذا. بعدها ذهبت إلى غرفة (آيبري) ملأت أنفي بعطر شعرها، وطبعتُ قبلةً على خدها بتؤدة لكيلا أتسبب في إيقاظها. ثمّ ودعت زوجتي (سحر) وغادرت البيت.

حينما استدرت من تحت الجسر الكائن على طريق (سيفري حصار) لأدخل الطريق المؤدِّي إلى (أفيون) كانتْ قد انقضت ساعتان على سفري على هذا الطريق، والشمس كانت تشرق لتوِّها. وتأكَّد لي أنني قد قطعت مسافةً س لا بأس بها في برد الصباح. حينما بدأ الجو يسخن شيئاً فشيئاً، في وقت الضحى، كنت قد وصلت إلى مفرق (كاكليك).

ومن ثَمَّة حينَ بلغتُ طريق (أوشاك) ووصلت إلى المكان حيث غاب عني الحصان. انتابني القلق بالطبع. بدأت أفكر هل سيظهر لي الحصان في الواقع كما كان يظهر في رؤياي. نظرت بطرف عيني يمنة ويسرة، وإذا بهسيس يصاحبه غبار أخذ يتصاعد من داخل البستان الواقع على يميني. بدا لي أن أرومات الأشجار تهتز في أماكنها، والأغصان صارت كأنها تتلاطم والأوراق كأنها تتطاير. حتى لكأن البستان برمّته ضربه زلزال. وفجأة ظهر الحصان من بعد ذلك، قافزاً من فوق السواقي حتى وصل إلى حافة الطريق، وأخذ يعدو خلفي بكل ما أوتي من قوة وهو يصهل بمرارة. هذه المرة وجدته أكثر إصراراً وعنفواناً، فضلاً عن أنه كلما كان يعدو كانت كل أجزاء بدنه تنفث الأبخرة. أما صهلاته البادية كرغوة ناصعة مثل بياض الأسنان فكانت تهب مثل ريح عاتية تهزّ غابة الصنوبر. رجعها يسمع متصادياً على سفوح التلال عند منحدر (زيبار). من هنا كنت متشبّثاً بمقود السيارة بقوّة، ومن هناك كنت أحرص على النظر إلى الطريق الممتد أمامي. وفي الوقت نفسه أتابع النظر إلى المرايا. ينتابني الخوف فأشعر بقشعريرة خفيفة لأن الضياء

الأبيض الذي يلاحقني كان يملأ السيارة من الخلف، وبسبب قصر المسافة بيني وبين الحصان، كنت أفكر أنه سيظل يتبعني لحين وصولي إلى البلدة هذه المرة. وهكذا صعدنا معاً من بين المرتفعات الموحشة التي تشكّل منحدر (زيبار) الذي بدا ملتمعاً في ذلك اليوم مثل الزمرّد. واجتزنا مفترق الطرق في (تشال) ثم هبطنا سوية إلى سهل (باكلان) وتركنا بلدة (دنيزلر) خلف ظهورنا يسابق أحدنا الآخر على طول الشارع الإسفلتي. بعد ذلك أبطأتُ أنا من سرعتي لأنحرف عن الطريق المؤدي إلى (أوشاك). وما إن بقيت مسافة أحد عشر كيلومتراً حتى تسمّر الحصان في مكانه. وظلّ لبعض الوقت يرنو إليَّ من بعيد، ويشيّعني من الخلف ويصهل صهيلاً ينمّ عن مرارة وألم، ثم اعتلى على قائمتيه الأماميتين وغاب عن الأنظار.

وبعد سبع أو ثمان دقائق قضيتها وأنا أشقُّ طريقي على شارع يمتد في أراضيَ يكسوها زرع مصفرّ وصلت إلى البلدة. عندما أطفأتُ المحرّك وترجّلتُ من السيارة كان صدى الصهيل لا يزال يرنّ في أذنيَّ. أما البياض الذي مازال ماثلاً أمامي فكان يدور معي ويتشظى أمام ناظري أينما وليت وجهي. وكأن الحصان ما يزال يعدو في داخلي دون أن يبطئ من سرعته. ربما لهذا السبب كنت أتصرف ببطء وخاصة حين تناولت حقيبتي من فوق المقاعد الخلفية واتجهت إلى البيت. اجتزتُ الحديقة على مهل، وصعدت التسريحة أمام الباب. وبنفس البطء أدرت المفتاح الموجود على الباب وفتحتها.

عندما دخلت وجدت أبي نائماً، يتغطى بالبطانية الزرقاء ذات الأشرطة الصفراء، ساحباً إياها إلى رقبته، مولياً وجهه صوب الجبال التي كانت تتراءى عبر النافذة. أما أمي فكانت في مكانها نفسه على وسادتها جنب البوتوجاز. وعلى بعد شبرين منها تجلس العمة (هجران) مغطية رأسها بفوطتها البيضاء ذات الحواشي المطرزة. وعلى الكنبة الواقعة على آخر طرف من الصمت كان يجلس خالي (حسين) مع أخي (نهاد).

وبعد اجتياز مراسيم إلقاء السلام من قبلنا، وإبداء آيات الترحيب من قبل الحاضرين، جلست على الطرف القصيّ من الكنبة على مهلي. سألت:

- أمّاه كيفَ هو أبي؟

- كيف يكون! - قالت وهي تلوي عنقها: أخذت صحته تتدهور يوماً بعد يوم. بدأ يذوب مثل الشمعة يا ولدي، ولم تعد له طاقة على التحمّل. يجد صعوبة بالغة في التقلب على فراشه حتى بمساعدة الحبل المتدلي من السقف. حين يشتد به الألم يناجي الله وعيناه شاخصتان في السقف، وكيس الإدرار في حضنه، بينما يتمسّك بالحبل بكلتا يديه. يقول: «أدرك أنّك تريدُ أن تعذّبني، ولكن ما ذنبُ عائلتي، لِمَ تعذّبُهم أيضاً؟»، فأقول له: «على رسلك أيّها المسلم! الله هو الذي قدّر لنا هذا، نحن لا نعرف عن ذلك شيئاً». وفي كل مرة أقول له لا تتكلّمْ هكذا لأنك سوف تُعتبَر عاصياً. أليس كذلك يا ولدي؟ كيف يعصي العبدُ ربّه؟ - ثم أردفت أمي قائلة: كل ليلة يسألني عن (سعاد)، فما مرّتْ علينا ليلة لم يسألني فيها عنه. يغفو مثل العصفور لمدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة. يستيقظ بعدها ويسأل عنه، ثم يغفو مرة أخرى ويعود بعدها إلى السؤال عنه. يلقي عليَّ السؤال نفسه ويطلب إليَّ أن أقصَّ عليه الحادث. فلمْ يكن لي خيارٌ آخر سوى أن أعيد رواية ما حصل من البداية. كيف لي أن أكسر خاطره في هذه الدنيا الفانية؟

- إذن يبدو أنه قد حزن كثيراً - قالت العمة (هجران).

فالتفتت أمي لوهلة ونظرت إلى أبي.

- ثم صار يسأل بإلحاح عمَّن كانوا حاضرين في مراسيم التشييع، هل كان (فلان) حاضراً و(علّان) هل حضر أم لا؟ ومن دون أن يشعر بالحرج كان يسألني عن أسماء الحاضرين واحداً تلو الآخر. كيف لي أن أتذكّر أسماء من كانوا حاضرين في مأتم مرّت عليه مدة طويلة تربو على الخمسين سنة. وهل ذاكرتي هي سجل لكي أدوّن فيه كل الأسماء لكيلا أنساها؟

- حتى لو جاء هذا أو ذاك فما الجدوى! - قالها خالي (حسين) وهو يقلب مسبحته من هذا الجانب إلى جانب آخر. وبينما كان خالي يهز مسبحته على هذا النحو ظهرت مسبحة أخرى حولها أكثر بريقاً. حتى أن بريق الحبات الصفر للمسبحة الثانية بدا أنه ينتشر على السجادة.

– أرجو ألا يعتبر هذا ذنباً عند الله – قالت أمي: كل ليلة حتى حلول الصبح كنت أقص عليه مجريات الأمور، وأعيد عليه ذكر أسماء الحاضرين واحداً تلو الآخر.

جاءت خالتي الوسطى مع ابنها وكنّتها، ومن بعدهم جاء (زبير) مع زوجته وشقيقتها. بعد ذلك جاءت خالتي الصغرى ومعها خالي (وقاص) الذي كان يشهق ويزفر وكأن صدره منفاخ حداد. عندما فتح أبي عينيه كان قد حل المساء وشهد حضور (جاويد) و(بكير) معاً.

غرق أبي في الصمت لمدة طويلة، لم يتفوّه خلالها بأي كلام. ولكنه كان يقلب عينيه الخضراوين من هنا إلى هناك لينظر في وجوه الجالسين حول سريره. وبعد طول تحديق في الوجوه قال:

– أين هو (إدريس) ذلك المعتوه لم لا يأتي؟

وفجأة ساد الصمت المكان.

همست أمي قائلة:

– يظن أن أدريس ما زال على قيد الحياة. وإلا لِمَ يسأل؟

لم يسمع أبي ما قالته أمي.

– توقّفي – قالها خالي (وقاص) – ثم مال برأسه فوق كرشه العظيم لينظر إلى أمي: دعيه يتصوّر! لا تتكلّمي.

فارتبكت أمي واحتارت فيما تقول فأخذت تفرك يداً بيد.

– يا صهري! – قالها خالي (وقاص): إدريس كان هنا قبل يومين. حتى أنه جلس عند قدميك على طرف السرير، وسأل عن صحتك. هل نسيت؟

لم يَحِرْ أبي جواباً. ولكنه أخذ يهرف في الكلام وكأنه يتكلّم بينه وبين نفسه:

– عندما سجل أسمه في الشركة نفسها التي كنت أعمل فيها قلت له «انتبهْ إلى هذا الأمر وهو أن مهمة المعاون في السيارة هو أن تكون عوناً للسائق وتبقي عينيه مفتوحتين على الطريق. وفيما أنتم في حالة سير عليك ألا تجلس مثل جرّة فارغة، هذا يعني أنك يجب أن تشغّل فكيك. ليس فكيك وحسب

بل وتعرف كيف تجعله يثرثر معك طوال الوقت». ثم قال مستهزءاً: هيه هه!! أما ابن خالنا المتأنق فلم يفعل أي شيء سوى الاعتناء بشعره ودهْنِ قَذَالَه. ثم إنني لمست أنه لا يحسن الكلام، فضلاً عن جهله التام بطرق استفزاز السُوّاق لكي يدفعهم إلى الثرثرة طوال الطريق. وما إن نخرج إلى الطريق حتى يضع رأسه على وسادة الكسل، ويغط في نوم عميق على أنغام هدير محرك السيارة. يذهب في نوم عميق وطويل لا آخر له، لا يتأثر باهتزاز العربة ولا بميل العربة في المنعطفات الحادة. يخيل إليك أنه قد تسنّم مقاليد النوم، وأخذ على عاتقه أن ينام بدلاً عن الآخرين. فلم يعمّر طويلاً في هذا العمل، إذْ تمّ تسريحه دون هوادة. في ذات مرة حين تعطّلت السيارة التي كنت أقودها أرسلوه مع سائق آخر في سفرية طويلة. فعاد السائق إلى رب العمل ونقل إليه الخبر وهو كون (إدريس) يحب النوم. قائلاً: «يا معلم هذا الولد يكثر من النوم، وروحه ثقيلة مثل كيس من البطاطا. بمجرد أن نخرج إلى السفر ينام». بالطبع سرَّحُوه رأساً من دون أن يكترثوا لتضرّعاته. قطعوا له تذكرة العودة واستغنوا عن خدماته. طبعاً هذا هو العمل لدى الغير. أنا جرّبتُ العمل لدى الغير. ليس هناك شيء أفضل في هذه الدنيا السافلة من الابتعاد عن باب الآخرين، وألا تكون بحاجة إلى معونتهم. عندما تقول: الحاجة إلى الغير! عليك أن تتوقّف وتفكّر مليّاً. يمرض أحد من عائلتك فلا تستطيع الذهاب إليه، أو تكون هنالك حالة ولادة في العائلة فلا أحد يسمح لك بالذهاب. أو يموت عندك شخص عزيز عليك ولا تستطيع الحضور إلى مراسم العزاء. حتى أن أخباراً كهذه قد لا تصل إليك حتى... ملخَّص الكلام، فالعمل لدى الغير مرارة وألم. إذا كنت تملك دكّانة صغيرة وتدير عملاً بسيطاً فيها فحافظ عليه بالنواجذ واحرص عليه مثلما تحرص على عينيك. فعلى سبيل المثال إن كان لديك حمار تذهب به إلى الجبل لكي تحتطب وتبيع الحطب لتقيم أودك بهذا العمل، فاحرص على ألّا تلفّ بك المقادير فتكون في يوم ما بحاجة إلى الوقوف بذِلَّة لدى أبواب الغير. ومن أجل ذلك يجب أن يكون عندك حمار آخر احتياطي. وإذا كنت حريصاً أكثر من هذا ولا تريد أن تذلّ في أعتاب الأبواب فما عليك إلا أن توفّر لحمارك الاحتياطي حماراً بديلاً.

- أوهو! - صاح (زبير) - انظروا إلى عمّي عزيز! من يستطيع أنْ يتحمّل كل هذا؟ هذه الحمير بحاجة إلى علف ونعال ومسامير. سوف تكون بأمسّ الحاجة إلى حمار آخر لتصرف من كدّه على هذا العدد من الحمير.

نظر إليه أبي مطولاً ثم أسند ذقنه براحة يده ومال نحو ركبتيه. قال:

- يا زبير، لكم تبدو نيِّئاً مثلما خلقك الله! حينما نضرب مثلاً، فهل تتصور أننا نعني الحمار بعينه؟ فالحمار الذي سوف تشتريه بمبلغ جاهز عندك بإمكانك شراؤه متى ما أردت، فلا تفكّرُ بتوفير العلف له ولا تحتارُ بتبديل أنعله. إنما قصدت أنك تحتفظ بثمن حمار آخر تحت وسادتك. حتى أنك عندما تنام تريح رأسك على الوسادة وتحتها المبلغ. فالفلوس هي الحمار، هذا ما كنت أعنيه.

فابتسم (زبير) وهو يومئ برأسه دلالة أنْ «فهمتُ الآن ما كنت تقصد!». ابتسم بشكل غريب وكأنه لم يتحدَّث قَطّ عن كيفية احتضار الخنزير وكأنه لم يصطدْ أيَّ خنزير طيلة حياته.

بينما كان (زبير) يبتسم، تعدّل أبي في جلسته على الفراش وسحب نفسه إلى الخلف مع البطانية واتكأ على الوسائد خلف ظهره. نشر يديه إلى الجانبين واضعاً إياهما على ركبتيه، ثم استغرق بعض الوقت وهو ينظر في وجه (نهاد).

- يا ولدي! - قال: أين سنذهب هذه المرّة إنْ شاءَ الله؟

فبُهِتَ (نهاد) وظلَّ واجماً يقطرُ الحزنُ من وجهِه، لا يعرف ماذا يقول.

- نحن هنا يا أبَتِ! - بادرت إلى القول حين لمست عجز (نهاد) عن الكلام.

أمي أيضاً انبرتْ قائلة:

- ما زلنا هنا. لم نذهب إلى أي مكان.

هز أبي رأسه. فالتفتَ إليَّ خالي (وقاص) وقال هامساً: «تصوّر نفسه جالساً في السيارة». ثم عضَّ على شفته السفلى وأطرق رأسه واستغرق في التفكير لمدة معينة هرع بعدها واقفاً على قدميه. فنهض الجميع ووقفوا حين

رأوه واقفاً. قال كل واحد منهم: «لقد تأخر الوقت علينا». وخرجوا تباعاً عبر الباب وغاصوا في لجة الظلام. تلكأ (جاويد) بعض الوقت عن الجماعة حين أخذ يوحي للرائي أنه يبحث عن فردة حذائه ويفسح الطريق للآخرين الذي كانوا يسارعون في المغادرة، وأخذ يشغل نفسه لدى الكرسي البلاستيكي المركون عند الأكياس. حينما خلا الجو من الازدحام قال جاويد:

– ملَكَة العقل بدأت تتذبذب عند خالي (عزيز)! فمن الصعوبة أن نصرّح بهذا ولكن يتوجّب علينا أن نتهيّأ لما هو أسوأ.

احترتُ ماذا ينبغي عليّ أنْ أقول، ولكنني أومأت برأسي دلالة على أنني أتفق معه فيما ذهب إليه.

نظر (جاويد) إلى وجهي ثم انتعل حذاءه ومشى على نحو متردد صوب الباب، مثله في ذلك كمثل من أدى ما عليه من واجب عيادة المريض، ولكنه نسي أن يتم المهمة التي جاء من أجلها. لقد كان متردداً بعض الشيء في مشيه، تكاد ساقاه تلتف ببعضهما. كنت قد خرجت من بعده كي أودعه، وقفت لدى الباب في الفراغ الذي خلفته المتسلقات واضعاً إحدى يديَّ على جنبي. فالتفت (جاويد) بخفة على غير المتوقع من جثته الغليظة وسحبني إلى أسفل الصعدة المبنية لدى الباب، ممسكاً بجانب من رسغي بخفة. ثم اصطحبني إلى مكان بالقرب من سواقي شتلات الطماطم. لما وصلنا إلى هناك أسبل يده وأطلق يدي ثم وثب بخفة سنجاب من جانبي الأيسر وصار قبالتي بالضبط.

– انظرْ! – قالها لي بمرونة، وكان مثله في ذلك مثل طالب يغش ويعطي المعلومة إلى صاحبه من وراء ظهر المدرس، خافضاً صوته إلى آخر حد ممكن: هذه المرأة المضحِّية والدتُك! أقول طوبى لها! يشهد الله أنها قد تفانت في خدمة خالي. بين يوم وآخر تمسح كل جسمه من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين بمناديل مشبعة بالصابون، تقلم أظافره، تعطيه دواءه وماءه في أوقات منتظمة، ولم تبخلْ عليه بالغذاء وقدّمت إليه أقداح الشاي. لقد كانت ترعاه مثلما ترعى طفلاً صغيراً وتمدّده على فراش يضوع عطراً،

فطوبى لها. بينما كانت تقوم بكل هذه الأعمال لم تتذمَّر يوماً، ولم يسمع أحدٌ كلمةَ أفٍّ منها. ولم يظهرْ ذلك على وجهها على الإطلاق. أنا أذكر لك هذه الأمور لأنك تقيم في (أنقرة) ولم تنتبه لهذا الأمر في مجيئك وذهابك. فأنا من واجبي أنْ أنقل إليك هذه المسائل. أما إذا كنت تعرفها فتقبّلها مني من باب التذكير ليس إلا.

- أعرف ذلك يا معلم (جاويد) - قلت له.

- ولكن! - قالها (جاويد) ومال برأسه إلى أقرب نقطة إلى أذني وهو ينظر إلى مدخل المنزل لئلّا تسمعه أمّي: بدأ عقل خالي يختلّ بعض الشيء. يجب الاستعداد لذلك.

أنا سكتُّ. بعد ذلك خرج (جاويد) من باب الحديقة ماراً من تحت عمود المصباح الخارجي في الزقاق واختفى في الظلام.

بعد انقضاء يومين التفتَ أبي فجأة بينما كان يتأمل الجبال، وأخذ ينظر في وجهي بالضبط بنفس الطريقة التي نظر بها قبل هذا في وجه أخي (نهاد) وقال لي:

- هل تسمح لي أن أقول لك شيئاً؟

فقلت له وأنا أظهر أنني أرحب بكل ما سيقوله:

- قُلْ يا أبَتِ!

حينئذ خيّم الصمت على الجميع، وحبس كل واحد منهم أنفاسه. فقال أبي وهو يؤكد على كل كلمة يقولها:

- ما أريد قوله هو إنك بالذات جديرٌ بأن يلعب عليك أحدهم، ولا يليقَ بك شيء آخر. لذلك أنصحك ألّا تسجِّل دعوى. اقعدْ واخرس!

كانت عينا أمي قد انفرجتا على آخرهما.

- أية دعوى يا ولدي؟ - سألتْني بقلق: ماذا يقول أبوك؟

- أماه تلك حكاية طويلة - قلت: قبل أشهر كنا قد تحدثنا في موضوع ما، ذكَّرني به الآن.

هدأ أبي بعض الشيء، وابتعد عنا بعد كلامي هذا على الرغم من قربه

إلينا. ثم أطبق أجفانه، ولوى عنقه على مهلٍ كأي طفل صغير، ولكنه كان طفلاً ذا شعر أبيض، وراح مستغرقاً في النوم وهو جالس على سريره. التفت الجميع وقضوا بعض الوقت وهم ينظرون إليه بتوجّس، ولسبب مبهم لم يتفوّه أحدٌ من الحاضرين. ساد السكون ولم تُسمع أية أصوات ما عدا نباح كلب سمع من بعيد. ثم انتفض أبي فجأةً وظل يتجوَّل ببصره في أرجاء الغرفة. حينها كان مثله مثل رجلٍ دُفِعَ في فراغ هاوية. وصار يبحث عن أي غصن أو أي شيء يتشبث به. ثم مدَّ يديه إلى جوف الفراغ باضطراب واضح يبحث هنا وهناك عن ضالته.

عندما رأى خالي (حسين) ما يقوم به أبي، قال وهو يفتعل السعال: «يا صهري نحن هنا!». فتعقب أبي نبرة الصوت وأخذ يبحث عن صاحب الصوت حتى استقر نظره على خالي. ولكنه لم يستطع التركيز عليه بل راحت نظراته تنزلق نحو حفيد خالتي الوسطى. ثم مال برأسه إلى جانب وظل يطيل النظر إلى الصبي. في تلك اللحظة بالذات صهل هاتف خالي (حسين) وخيل إليَّ أن الحصان الذي توقف هنالك على بعد أحد عشر كيلومتراً عن البلدة جاء وبدأ يدور هنا في الفراغ وسط الغرفة مثل الريح، وينشر عرفه وذيله في الفضاء. بالطبع لم أكن أعرف ما يتوجب عليّ القيام به في مثل هذه الحالات، ولكنني أخذت أنظر إلى وجه خالي بامتعاض، فيما كان يميل بجسمه إلى جانب ليخرج الهاتف من جيبه.

– يا خال! – قلت له: لنغيّر هذه النغمة من هاتفك.

للوهلة الأولى فتح خالي عينيه على آخرهما ثم رفع هاتفه مقرباً إياه إلى أذنه.

– ألو! كفى يا هذا كفى! نحن الآن في بيت خالتك. الجو هنا غير ملائم للأعمال البهلوانية. هيا أغلق الهاتف هيا.

ثم التفت إليَّ والهاتف ما زال في يده.

– ماذا قلت؟ – سألني: ما هو الذي تطلب منّا أن نغيّره؟

قلت:

- نغمة الهاتف!

فانتابته الحيرة وأخذ ينقل نظراته بيني وبين الهاتف.

- هل فقدت عقلك يا ابن أختي! كيف أمضي في حياتي وليس لي حصان؟

قالها وجاء بالهاتف قريباً إلى ذقنه، وكأن به يريد أن يضم حبيبه إلى صدره.

- يا خالي إنه ليس حصانك! - قلتها وأنا أميل إليه وأغضض من صوتي: هذا هاتفك وليس حصانك. فحصانك مات، وأنت تعرف ذلك جيداً.

ظل خالي مبهوراً وهو ينظر إلى هاتفه غير مصدق بما يسمعه.

- ما هذا! - قال أبي: عم تتحدثان؟

رفع خالي هاتفه إلى أعلى ليريه لأبي، ولم يكتفِ بذلك بل ضغط على بعض الأزرار بمنتهى الحذاقة. حتى أنه أذهلني بذلك. وأخذ يرفعه بمصاحبة صوت الصهيل ممثلاً حركة الحصان حين يرفع قائمتيه ويطلق صهيله. في أثناء ذلك كأن الحصان الموجود بداخله قد بدأ يخرج ليسير نحو ذراعه وراح يشرئب ويصهل. تشرئب رقبته في كل مرة يصهل فيها. يرفع رقبته وينزلها، يرفعها وينزلها. وهكذا ظل أبي حائراً بين الصهلات وتلك الرفعات والخفضات. بنظرة خاوية وبوجه شاحب جامد القسمات نظر إلى يد خالي. بالطبع كانت لحركات خالي هذه أبلغ الأثر في نفسي، ومن أجل ألا أرد عليه بكلمات قاسية بمثل كلامه، قمت من مكاني ببطء ماراً من بين الجالسين على السجادة وخرجت إلى الشرفة بحجة التدخين.

حينما خرجت من البلدة كانت الشمس قد غربت، وقد تلبدت عند قمة جبل (جوكالاز) غيوم سوداء لها حافات مائلة إلى الاحمرار، أما الهضبة فكان الضباب يسود في أرجائها مثلما هو عهدها دوماً. في حين كان هنالك ظلام شفيف، يتماوج بين اللازوردي والرصاصي الغامق، يرخي سدوله على الهضبة. فأضواء القرى المنتشرة على أديم الهضبة كانت قد بدأت بالتألق. تارة تبرق وأخرى تخبو. وما إن ألقيت بنفسي إلى الشرفة حتى سارعت إلى

إشعال سيجارة ولكن غضبي لم يكن قد تهاود بعد. أخذت أراقب الأرجاء وأنا متكئ إلى الحائط، وفي الوقت نفسه كان بدني يقشعر، أرتجف بوضوح وفي الوقت نفسه أرتجف بشكل غير واضح مثل أضواء القرى التي كانت تضيء حيناً وتخبو حينا آخر. وفجأة ظهر مرة أخرى ذلك الصبي نفسه ذو القميص الأبيض الذي تراءى لي عند المقبرة في عطفة الزقاق النازل إلى الوادي. أخذ يمشي ويترنح في مشيةٍ خاصة يعرف بها المشردون. يطول القميص ويقصر، ويشع على نحو ينير للصبي طريقه. وعندما يكون بمحاذاة شجرة الجوز الموجودة في فناء بيت خالي (عزت) امتد الشعاع بغتة وصار رفيعاً مستدقاً، يتسلط هنا وهناك على جدران الأبنية، يتسلقها وينير الأشجار والأغصان.

توقف الصبي فجأة، ثم استدار على مهل ونظر إليَّ. بالطبع لم يكن لي متسع لكي أراقبه إلى النهاية. إذ ما زلت غاضباً أفكر في أبي الذي ظل محاصراً هنالك بين الثرثرة والصهيل الذي لا يتهاود. وما راعني أنني وجدت الصبي يعود أدراجه، ويسلك الطريق نفسه الذي جاء منه، وتلاشى بصمت في المكان حيث كان الظلام يتحوّلُ إلى طوب، ويستحيل الطوب إلى ظلام. وبعد أن غاب عن الأنظار تماماً أشعلت سيجارة أخرى. دخنتها وأنا أنظر إلى الهضبة من فوق السطوح الآخذة بالاسوداد.

حينما عدت إلى الغرفة كان أبي قد انقلب إلى جنبه الأيمن ووجدته متّكِئاً على الوسائد بكوعه، يسند صدغه بيده، ساهماً يحدق بالباب. لم أجد مكاناً كي أجلس فتخطيت الجالسين ماراً من بين أذرعهم وسيقانهم واضطررت أن أعود ثانية للجلوس إلى جانب خالي (حسين). وكانت يده منشغلة بالمسبحة بدلاً من الهاتف. وقد استجمع روحه كلها في أصابعه التي كانت تداعب الحبات الصفر التي تصدر طقطقات متناغمة. وكلما انتقلت الأصابع كان يهز رأسه هزاً خفيفاً. أما إلى شماله فكان يجلس (زبير) و(بكير) وجهاً لوجه متقابلين، يناقشان أسعار الأثفال. وفي أثناء الكلام كانا ينشران ذراعيهما على آخرهما وكأنهما يسبحان. كلما احتدم النقاش بينهما

كانا يغيّران من وضعية جلوسهما دون وعي منهما. تارة يطويان هذه الركبة ويضعانها تحتهما وتارة يستخدمان الركبة الأخرى. زوجة (زبير) كانت تجلس على القرب منهما وهي تلصق فمها بأذن أختها. كانت تثرثر دون توقف، بكلام لا يعرف كنهه أحد، فكانت عينا أختها تتجولان على وجوه الحاضرين ثم تتوقفان على وجه صهرها أحياناً. تتنقل عيناها على الجميع وفي بعض الأحيان بدا عليها أنها تكاد تطلق ضحكة إلا أنها كانت تتمالك نفسها. ربما لأنها تدرك أن ذلك سيعد تصرفاً مشيناً. حينها كان بدنها يهتز، وتتلاشى بعض حركات وجهها. وتتركز في عينيها كبريق يشتعل وينطفئ.

أما أنا فكنت أجلس بروح متعبة وبصمت في هذا الوسط الذي يعجّ بالضوضاء.

بغتةً حدث شيء لم يكن بالحسبان، إذ دبَّت الحركة في أبي. إذ راحت يده إلى اليد التي كانت تسند رأسه، مسكت بها وأبعدتها. فظلَّ رأس أبي بلا سند يحمله فسقط على الوسادة. نظر كل الجالسين إليه. شعر بأن جميع من كانوا في الغرفة يراقبونه فرفع رأسه على الفور وتعدّل في استلقائه ثم قال:

- هذا عجيب ظننت أن يدي هي يدُ شخصٍ آخر!

- أحياناً تحدث أشياء كهذه - قالها خالي (وقاص) وكأنه يكلّم نفسه.

- أي نعم ممكن. ممكن! - قالها خالي (حسين) من دون أن يحرك ساكناً، وكأنه يتحدث إلى مسبحته.

فأومأ أبي برأسه بخفّة، وكأن به يقول: «نعم سمعتكم، أنتم محقون!».

بعد ذلك ظهر التجويف ذاته على خده، ولم نجد وجه الشبه بينه وبين أي إيماءة من ايماءات بني البشر. ارتعشت تلك البقعة مرات عديدة كظل داخل ذلك التجويف.

في أثناء ذلك كانت أمي تحدّق بأبي وقد وضعت كفّيها على الأرض وكانت في وضعها هذا وكأنها على وشك أن تحبو. وفيما كانت تنظر إليه على هذا المنوال بدأت شفتاها بالارتعاش فجأة وقفزت اللآلئ إلى عينيها. نهضت من مكانها وخرجت من الغرفة بخطوات سريعة شاقة طريقها من

بين الجالسين. «تُرى ما الذي حدث؟»، قلْنا لأنفسنا أنا و(نهاد) وخرجنا من بعدها. فوجدناها في المطبخ منزوية في الفراغ بين طبليات ترقيق العجين وبين منضدة المطبخ، تبكي وتسفع ركبتيها بضربات من باطن كفيها، تحاول كبح صوتها. تولول وتصيح:

- ياويلتاه على مصابنا، يا ويلتاه!

قلت لها حين دنوت منها وأنا أتوسّلُ إليها:

- اهدأي يا أمي! أرجوكِ اهدأي. ماذا دهاكِ يا أمي! لمَ تبكين؟

- ألا تريان يا ولديّ! - قالت وبدأت باللطم والنحيب: ألا تريان، أنا أبكي من أجل أبيكما!

أنا وأخي (نهاد) نظر كلٌّ منا إلى أخيه.

- أمّاه - قلت لها بنبرة توسُّل: لا تفعلي هكذا. من أين أخرجتِ هذه المسألة الآن؟

كانت قد أقلعت عن النواح والضرب على ركبتيها ولكنها كانت تهرق الدمع الهتون. وفجأة صرخت قائلة:

- اليد التي مسك بها أبوكما يد من كانت! هيه؟

- كانت يده هو بالذات - قال (نهاد) - شعر أبي بالخدر في يده لأنه تحامل عليها، وظن أنها يد شخص آخر.

- هيه! تمام! عندما تنظر إليها من هنا فإنها كانت تبدو وكأنها يدُ أبيكم، ولكن كيف كانت تُرى من الطرف الآخر؟ ياويلنا! ياويلنا! يا أولاد لقد كانت تلك اليد يد عزرائيل! ألم تفهما تلك اليد كانت يد عزرائيل. عزرائيل بعينه!

- رفعتْ صوتها عندما قالت كلماتها الأخيرة، وأخذت ترفع كلتا يديها وتهوي بهما على ركبتيها.

- من أين أخرجتِ لنا عزرائيل هذا يا أمي؟ - قالها (نهاد) - لا تتفوَّهي بكلامٍ كهذا!

ثم مسكت بمنضدة المطبخ وأدارت رأسها إلى جانب آخر وتفرَّست في وجهَينا بعينين حمراوين تتطايران شرراً.

– أنتم! – قالتها بصوت مرتعش: هل تتصوّرون عزرائيل رجلاً ذي لحية بيضاء، يتجوَّل هنا وهناك بعباءة بيضاء؟ أم أنه يهبط متهادياً من بين الغيوم حاملاً كتاب الآجال؟ فلا أحد يدري متى يأتي؟ وبأي زيٍّ يتراءى في عيون من يقصدهم؟ بل يتلوّن بأنواع من الأزياء ويخرج بغتة من حيث لا ندري. يأتيك فجأة دون سابق إنذار، ولا يقول ها أنا ذا قادم!

حتى خالي (حسين) كان قد حضر في تلك الأثناء وأسبل شاربيه الكثيفين ووقف هناك عند عتبة الباب. ينظر إلينا بوجهٍ مِلؤه الحزن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 12 -

بعد انقضاء أسبوعٍ واحد تدهورت صحة أبي بالمرّة، حتى وصل به الحال إلى درجة لم يعدْ يقوى على الكلام، ولا يستطيع نطق أية كلمة سوى (ماء). وإذا أراد أن يتكلم فلم يكن يخرج من فمه أي شيء غير بضعة أنفاس شديدة الجفاف، تشبه إلى حد بعيد هشيش كناسة تذروها الريح. لم تكن أمي تفهم ما يقول على الرغم من أنها كانت تنتبه إليه جيداً، تميل عليه وتصيخ إليه السمع بكل جوارحها.

حينئذ كان ينشر ذراعيه إلى الجانبين وكأن به يقول: «وأخيراً ها أنا ذا قد بقيت وحيداً، مهملاً». ثم راح يلوي رقبته لوياً رقيقاً. يطأطئ رأسه إلى أمام. يتنفس بوهن ليملأ صدره بالهواء. حينما كنا أنا و(نهاد) نشعر أن أبي يريد أن يقول شيئاً ما، كنّا نهرع إليه ونقف عند رأسه ولكننا لم نكن نفهم ما يقول. مهما أردنا أن نسمع ونفهم ما يريد فلم نفلح. حتى أننا حاولنا مراراً أن نقرأ حركات شفتيه، فلم يكن يحرّك شفتيه في أغلب الأحيان. نادراً ما كان يحركها، وكانت تنفرجان بصعوبة وبشكل غير محسوس.

بصوت ضعيف ومتعب يذكرنا بالهمس، قال (ماء) فهرعت أمي من فورها وجاءت بقدح مليء بالماء. أبي لم يتناول قدح الماء من يد أمي. كما هو في أحيان كثيرة حين تمسك له القدح عند فمه، فينفض رأسه إلى الخلف وكأنه يريد القول: لا أريد. بعد ذلك يبدأ بالبكاء حتى أنه كان ينشج في بكائه وتهتز أوصال بدنه. لذلك كنا نرى الوالدة تلف وتدور

حوله طوال النهار مثل فِراشة. تحمل بإحدى يديها قدح ماء، وباليد الأخرى منديلاً ورقياً. في ذات مرة قالت له كأنها تتوسل إليه:

– أَيُّهَذا! أيها المسلم! أما طلبت ماءً؟ ها أنا ذا جئت إليك بالماء، فلِمَ لا تشرب؟

بالطبع لم يَحِرْ أبي جواباً. كان منطوياً على نفسه، حتى صار رأسه عند ركبتيه.

بعد أن انتظرت أمي بعض الوقت ذهبت بالقدح الذي كانت تحمله ووضعته على المنضدة الصغيرة. قال خالي (حسين) بصوت حزين:

– لا تضغطوا على صهري كثيراً. هذه حالات يمكن أن تظهر تأثيراتها على بني البشر! فإلى أن تقومي من مكانك وتذهبي لجلب قدح الماء ربما ينسى أنه طلب الماء منكِ.

– لا أدري! فقد أصابتني الحيرة.

قالتها أمي فيما كانت جالسة على الوسادة جنب البوتوجاز. لم يجبها خالي (حسين). عندئذ رفعتْ رأسها وأزجت بعض الوقت تنظر إلى الحبل الذي كان يتدلى من السقف. فقالت لأخي (نهاد):

– فكَّ هذا الحبل يا ولدي فلا داعي له بعد هذا. على أي حال، أبوك لا يستعمله، فلماذا نبقيه؟ لكي يشمت فينا الناس!؟

فنهض (نهاد) بصمت، صعد على كرسي وفك الحبل.

حينها كان أبي يتكئ إلى الوسائد في وضع كأنه شبه مستلقٍ على الفراش ينظر عبر النافذة إلى الجبال بعينين ساهمتين. كانت هنالك على سفوح المرتفعات الصخرية كتل بيضاء من غيوم ناعمة نعومة القطن المندوف للتو. وكأنها أفلتت من حضن عمالقة يسيطرون على قمم الجبال، تدفع بها الريح، تسوقها نحو اليسار من فوق ذلك الغار الذي سميّ (غار النفس). في حين كانت الجبال تنزاح صوب اليمين رويداً رويدا باتجاه بحيرة (آجيكول).

بغتة قال أبي ثانية وبصوت جاف: «ماء!» – قالها دون أن يلتفت إلينا.

ولكن لم ينقطع عن النظر إلى الجبال التي كانت سائرة باتجاه البحيرة. فهرعت أمي من فورها، وبيدها قدح ماء وقطعة من منديل ورقي. مرة أخرى رفض أبي الماء، بل غطّى وجهه بكلتا يديه وانفجر باكياً. تهتز كل أوصال بدنه. كان بكاؤه هذه المرة عنيفاً بحيث بلغ صوته إلى الجبال وتردد رجعه البعيد في كبد المرتفعات الصخرية. وفجأة خيل لي أن الجبال أيضاً كانت تبكي وتنشج في البكاء. وأصبحت الثلوج التي كانت تكلّل قمم الجبال هي الأخرى تهتز من شدة هذا النشيج المزلزل.

هناك عند جهة الرأس من السرير ظلت أمي حائرة، تنظر في وجهه، لا تعرف ماذا يتوجب عليها أن تفعل.

- ألا تشرب؟ - سألته.

دفع أبي القدح راسماً علامة (لا) بظاهر كفه.

- لا تلحّي عليه يا أختي! - قالها خالي (حسين): كفى إلحاحاً.

- آه لو أعرف لماذا يبكي!؟ - قالت أمي وهي تغمغم بينها وبين نفسها.

ثم التفتت على مهلها، وذهبت إلى المطبخ، تمشي على أطراف أصابعها وكأنها تنقل خطواتها في أرض الحكايات العجيبة المحفوفة بالمخاطر. التي تستوجب أن ينتبه فيها المرء لكل خطوة من خطواته. فنهضت أنا الآخر وتبعتها. وما إن وصلت على مقربة منها قلت:

- يا أماه! عندما يطلب الماء لا تسأليه عن سبب بكائه. لأنك حين تسألينه يتوضح السبب عنده أكثر فيطول بكاؤه. قدمي الماء إليه في كل مرة يطلبه منك ولا تسأليه عن سبب بكائه.

اتكأت أمي على منضدة المطبخ وأخذت تنظر إليَّ بنظرات خاوية من أية معاني. سألت:

- حسناً لماذا يبكي إذن؟

للوهلة الأولى تلكّأت بعض الشيء، ثم فكرت هل أبوح بما ورد إلى ذهني وجاء على طرف لساني أم لا. لم أستطع اتخاذ قراري. ثم قلت لها:

- يا أماه! لقد نطق أبي عشرة مرات وطلب فيها الماء. يرأيي أنه ربما كان يعني الماء فعلاً في الأقل في واحدة من تلك المرات العشرة. أما في التسع الباقيات فكان يلهج باسم ولده (سعاد) ربما كان يتهجَّى المقطع الأول من الاسم ولا تكفي قواه على النطق بالبقية الباقية.

غمغمت أمي قائلة وهي تضرب جبينها بخفة:

- صحيح يا هذا! صحيح! لِمَ لَمْ أفكر بهذا قبل الآن؟

- ليس باستطاعتنا أن نعيد (سعاد) إلى الحياة - قلتها بصوت خفيض واسترسلت في الكلام على المنوال نفسه: كما تعرفين فنحن لا نقوى على إرجاع عجلة الزمن إلى الوراء. ولا نستطيع أن نعيد أبي إلى الماضي، ونجعله يحضر مراسم دفن (سعاد). استميحك عذراً يا أمي لا تسأليه لماذا يبكي حينما يطلب إليك الماء. هل تعديننني بأنْ تلتزمي بهذا؟

- طبعاً يا ولدي! - قالت وهي تومئ برأسها علامة على موافقتها.

في اليوم التالي نحو الظهر جاءنا خالي (حسين) وكان وجهه مكفهراً، حادّ التقاسيم. جلس إلى الكنبة المواجهة لأبي. ومن بعده جاءت العمة (هجران) تحمل طبقاً من «البورك»، ثم تبعها (زبير) وزوجته وأختها. قال (زبير) ووجهه إلى الأرض لا يرفع رأسه:

- كنا ننوي الذهاب إلى البستان، ولكننا لم نقدر على الذهاب. ما دامت صحة عمي (عزيز) متدهورة فلم تطاوع نفس أي واحد منا على الذهاب إلى هناك. غيرنا رأينا.

- لا تسألوني! - قالها خالي (حسين): أنا الآخر كنت أنوي الذهاب إلى المقهى، ولكنني بقيت مدة من الوقت أذرع المسافة بين بيتي وبيت صهري جيئة وذهاباً.

أمي كانت تحمل ملعقة صغيرة وتحاول إطعام أبي بالبسكويت الذي هرسته في الحليب. وفيما كانت تطعمه كانت تتوسل إليه قائلة هيا ملعقة أخرى، وهذه أيضاً... وواحدة أخرى. وما إن أطلق أبي رأسه إلى الخلف كأن به يقول كفى حتى أخذت أمي المنديل الورقي الذي كانت تضعه

على ركبتها ومسحت به فمه. ذهبت إلى المطبخ بالجفنة البيضاء ذات الخطوط البنفسجية التي كانت تضع فيها الحليب ثم عادت لتجلس في مكانها نفسه جنب البوتوجاز. وبمجرد أن جلست حتى استدركت قائلة:

– هيه تذكرت الآن! – التفتت إلينا أنا و(نهاد) – استيقظ أبوكما في وقت متأخّر من ليلة البارحة ورسم بيديه عدداً من الإشارات ولكنني لم أعرف ماذا كان يعني بها.

فانبرى خالي (حسين) وسبقنا إلى القول:

– ماذا فعل؟

لم تستطع أمي أن ترينا كيف كانت تلك الإشارات. رفعت يدها إلى مستوى الصدر، ونظرت إلى أطراف أصابعها ثم فتحت كفها الأخرى وحركت شفتيها كأنها تقرأ الأدعية. وظلت لبعض الوقت تنظر إليه، ثم مالت إلى شمالها باتجاه سريره:

– أيّها المسلم! البارحة قمت ببعض الحركات لا أدري ماذا كان هدفك منها؟ ماذا تريد القول؟ تلك الحركات التي لم أفهم مغزاها. أعدها الآن أمام الأولاد ربما فهموها.

أومأ أبي برأسه وكأنه يقول لها حسناً سأفعل.

قمنا جميعاً، أنا و(نهاد)، خالي (حسين)، العمة (هجران)، (زبير) وزوجته وأخت زوجته نهضنا من أماكننا وتحلّقنا حول سرير أبي.

مدّ أبي أصبع الشهادة وأشار إلى أمي أولاً ثم إلى نفسه، ثم جمع أطراف أصابعه وكأنه يريد القول «جيد! جميل!» رفعها عدة مرات وأنزلها. ثم ضغط على صدره بيده ومسح بها متجها إلى أسفل. بعد ذلك فتح ظاهر يده ورسم بأصبع يده الأخرى دائرة ثم أغلق أصابعه بإحكام على كفّه خشية أن تطير تلك الدائرة منها.

فقال (نهاد):

– هل تقصد نادوا على أمكم واجتمعوا من حولي فعندي كلام مهم أريد أن أسمعكم إياه.

فهز أبي رأسه وكأنه يقول «لا».

– هل تشتهي شيئاً ما يا صهري؟ – سألته العمة هجران: شيء نصنعه من أجلك أو نجده ونأتي به إليك.

مرة ثانية هزّ أبي رأسه علامة على النفي.

– أوّاه يا رب! – قالت أمي وتحسّرت برقة: ترى ماذا يريد أن يقول لنا؟

– أنا برأيي – قالت أخت زوجة (زبير) رافعة صوتها أكثر من اللازم وكأنه خرير الماء: عمي عزيز قد اشتهى خبز الرقاق. يقول اعملوا لي خبز رقاق على وجه السرعة. أريد أن آكله طازجاً. أعطوني إياه حالما ترفعوه عن (الصاج). هاكم انظروا فإنه يرسم خبزاً في كفه ويشير إلى معدته. فنظر (زبير) إلى أخت زوجته بامتعاض وكأن به يقول لها «اخرسي! فقد ثرثرتِ كثيراً».

مرة أخرى هزّ أبي رأسه قائلاً «لا». وكان هذه المرة متذمّراً، يضع يديه على البطانية، يجول ببصره على وجوه المحيطين به بأنفاس متقطعة.

– أبي! – قلتُ له: تستطيع أن تكتب لنا ما تريد قوله، أأعطيك قلماً؟

هز رأسه يميناً وشمالاً وكأنه يقول، «لا يا ولدي لا أكتب».

حينئذ انفضَّ المتحلقون حول سريره رويداً رويداً، وذهب كل واحد منهم ليجلس في مكانه الأول.

– يا إلهي! – قالها خالي (حسين): لم لا نستطيع حلَّ هذه الأحجية؟

بعد كلام خالي هذا رفع أبي رأسه قليلاً عن الوسادة، ثم التفت برأسه نحوي، وأخذ يطيل النظر في وجهي بعينيه الخضراوين. وكأن به يقول لي لِمَ انزويتَ هناك يا ولدي! من يستطيع ترجمة حركاتي هذه إلى كلمات هو أنتْ! فلماذا تقف بعيداً عنّا.

جلست جانبياً قبالته على حافة السرير. وبصوت هادئ قلت:

– يا أبَتِ! هل من الممكن أن تعيد الحركات نفسها على مهلك، وأنا أحاول وضع الكلمة المناسبة إزاء كل حركة. إذا وجدتُ الكلمة المطلوبة تؤيدها بحركة من رأسك. اتفقنا؟

فأومأ برأسه موافقاً.

حبس الجميع أنفاسهم وكانت الأنظار كلها موجهة إلينا بمن فيهم والدتي.

مدّ أبي إصبع السبابة وأشار إلى نفسه ثم إلى والدتي.

- أمك وأنا؟

عمل أبي إشارة (لا) برأسه.

- أمّك معي؟

«نعم»، قالها أبي بإشارة من رأسه ثم جمع أطراف أصابعه فوق، ورفع يده وأنزلها مرات عديدة.

- أمك معي... جيدة جداً؟

استمر أبي بحركاته، فضغط بيده على صدره ومسح بها نحو الأسفل.

- أمك تتصرف معي بشكل جيد وتهتم بي جيداً؟

فتح باطن كفه ورسم هناك دائرة بإصبعه. حينئذ تلكَّأتُ ولم أعد أعرف ماذا يعني بذلك. فحدَّق بي ولسانُ حاله يقول: «هيا استمر! لِمَ توقَّفْتَ يا ولدي». ثم أعاد الكرة وقام بنفس الحركة. رسم الدائرة وأغلق أصابعه عليها.

- أمك اهتمت بيَ بشكل جيد... هنا؟

هزَّ رأسه يمنة ويسرة وكأن به يقول «لا... لا» ثم توجه إلى العمة (هجران) التي كانت جالسة بالقرب من والدتي، فألقى صوبهما نظرات قصيرة. وبعد ذلك التفت إليَّ مجدداً ورسم دائرة في كفه، وأغلق عليها أصابعه بشدة. فالتقت نظراتنا أنا ووالدتي وعمتي لوهلة ما. وكأن نظراتهن تستجديني وتقول لي هيا يا ولدي أضف بضع كلمات أخرى. فقلت على عجل:

- تقول إن أمي خدمتك واهتمت بك جيداً. تدعو لها أن يتحوّل التراب الذي تمسكه إلى ذهب!

فهزَّ أبي رأسه مرات متتالية وكأنه يقول «نعم، نعم...». ثمّ مدّ يده وربّت على يدي. ولم يكتفِ بذلك بل مال برأسه إلى جانب وأخذ يبكي بحرقة. التفتُّ إلى أمي فوجدتها تبكي هي الأخرى. ثم مسحت عينيها بطرف فوطتها ودنت إلى سرير أبي ومسكت يده بحنو.

– انظر أيُّها المسلم! – قالت أمي بصوت مرتعش يخرج من بين لآلئ دموعها: انقضت مدة طويلة تبلغ حوالي سبع وخمسين سنة مذْ جئت إلى هذا البيت بطرحتي. خلال هذه السنوات لم تكسر خاطري أبداً. الله يرضى عنك!

لم أتحمَّل المشهد أكثر فأخفيتُ وجهي بكفيَّ وهرعتُ بخطوات سريعة إلى الشرفة. وما إن أشعلتُ سيجارتي حتى تبعني أخي (نهاد) إلى الشرفة. هو الآخر كانت أجفانه مبتلّة. اتَّكأ إلى الحائط وأخذ يرنو إلى بعيد حيث الهضبة المترامية. ظلّ لبعض الوقت ينظر هكذا دون حراك.

– يا أخي الكبير! – قالها (نهاد) بعد ذلّ: مدة إجازتي سوف تنتهي عن قريب ويتحتّم عليَّ أن أباشر في عملي بعد يومين.

– متى تأتي في المرة القادمة؟ سألتُه.

– انتهى رصيدي من الإجازات. لن آتي بعد هذا.

أدرتُ رأسي بخفة ونظرتُ إلى وجهه:

– إذن في هذه الحالة – قلت: يتوجب عليَّ أن أذهب إلى (أنقرة) وأعود. افترقتُ عن عائلتي منذ ثلاثة أسابيع. فإذا أمكن أن أذهب اليوم وأقضي يوماً واحداً مع عائلتي سوف أعود قبل أن ترحل أنت من هنا. يجب ألا نترك أمي لوحدها عند أبي.

– حسناً يا أخي – قال (نهاد).

بعد أن أخبرت والديَّ بأني عازم على السفر بدأتُ بتهيأة متاعي وخرجت إلى الطريق في مساء ذلك اليوم. طوال الطريق البالغ نحو أربعمائة وستين كيلومتراً لم أنقطع عن التفكير بأبي وأنا أشقُّ الظلام على

هدير المحرك. حينما خلفت (أتيمسجوت) ورائي ودخلت (أريامان) عبر الطريق الحولي كانت الساعة تشير إلى الثانية والربع. لم أستعد نشاطي في نهار ذلك اليوم على الرغم من أنني بقيت نائماً إلى وقت الظهر. حين استيقظت وجدت (سحر) قد غادرت إلى العمل وذهبت (آيبري) إلى بيت جدتها مثلما كانت تفعل في كل يوم. ولم يبقَ في البيت أحدٌ غيري. بعد تناول فطوري الصباحي خرجت أنا الآخر وركبتُ إحدى باصات الأجرة التي كانت تمرُّ قريباً من بيتنا. ذهبت إلى (قزل آي) لقضاء بعض المسائل الصغيرة. وما دمت أنا هناك في السوق فقد قمت بمراجعة مكتبة (إيمجة) الكائنة في زقاق (كونور) فوجدت الشاب الأسمر نفسه الذي كنت أراه هناك دوماً، خلف منضدة الاستعلامات. هذه المرة لم أتمكن من التعرف عليه بسهولة، لأنه أطلق لحية سوداء كثيفة، كأنها مكنسة من نبات الدغل. حتى بدا لي أنه بندقية سحماء ألقمت بدل الخراطيش ظلاماً، فانفجرت في وجهه بصوت شبيه بأزيز الرصاص كما يحدث في الأفلام وحطمت فكه وفمه ومسحت خديه من الوجود. لم يكن يظهر من وجهه غير جبينه وعظمتي وجنتيه. حين دنوت منه وسألته ألم تصل الطبعة الثالثة من كتاب (تريستارام شاندي) لـ(ستيرن)؟ ابتسم للوهلة الأولى ثم راح يحكّ لحيته. نظرت إليه مجدداً وبدقة أكثر. لا أدري إن كان تلكُّؤه هذا ناجم عن عدم تعوّده على اللحية. حين شعر بتسلّط نظراتي عليه أبعد يده عن لحيته وقال بعجالة: «نعم يا سيدي وصلت! كيف لم تصل؟ نعم ذاك الكتاب وصل إلينا. آه! ولكنكم لم تراجعونا مرة أخرى. وصل قبل مدة طويلة». قالها وهرع باتجاه رفوف الكتب. خطف الكتاب وعاد إلى منضدة الاستعلامات وأعاد وجهه بارزاً وسط تلك الكتلة من اللحى. بعد أن دفعت ثمن الكتاب وضعته في حقيبتي وخرجت من فوري. عدت إلى البيت بهدف قضاء أطول وقت ممكن مع ابنتي (آيبري).

ذهبت إلى بيت الجدّة لأصطحب (آيبري) فوجدتها جالسة إلى

أقرب كنبة قبالة التلفزيون. مندمجة مع مسلسل البلدة العجيبة[44]. وما إن رأتني داخلاً عبر الباب حتى فتحت عينيها على وسعهما وأخذت تقصُّ عليَّ في الحال، كيف تمكّن التوأمان (مابيل) و(ديبر) أن يحوّلا (بيل جيفر) إلى حجر بعد أن سرقا الكرة السحرية من عمهما. تماوج صوتها الرقيق أمامي لبعض الوقت وكأنه منديل صغير يتموج في مهب الريح. خرجنا أنا وابنتي من بيت جدّتها ثم نزلنا إلى الحديقة التابعة للمجمَّع السكني. أخذنا نمشي جنباً إلى جنب عبر الحديقة من تحت المتسلقات التي كانت تتشبَّث بالجدران بمخالبها.

بعد أن تقدَّمت (آيبري) نحو ثمانية أقدام تسمَّرت في مكانها ونظرت باتجاه المراجيح وأبراج التزحلق في حديقة الأطفال وإلى المساحة المغطاة بالعشب الواقعة خلف شجيرات الليلك[45] وإلى الفراغات الممتدة بين شتلات الأزهار وبين أشجار الصنوبر. قالت:

- أتدري يا بابا! (جو) مختفي منذ أسبوع.

- لا يا حملي الوديع! (جو) لم يختفِ بل سوف يعود إلى الظهور يوماً ما. سترين ذلك.

لاذت (آيبري) بالصمت ولم تتفوّه بأية كلمة حتى وصلنا إلى المكان حيث نستدير منه لندخل إلى مجمّعنا السكني. لقد كانت صامتة بخطواتها، بفمها، بخديها، بيديها وعلى الأكثر بعينيها أيضاً.

قالت وهي تجلس على إحدى الكنبات في الصالون، وهي تحدّق في عيني:

- أبي! هل تعرف أن (جو) لن يعود!

قلت بيأس:

44- هو المسلسل الكارتوني (غرافيتي فولز) - المترجم.

45- الليلك أو الليلج (Syringa Vulgaris) فصيلة من النباتات تنمو في الطبيعة دون تدخل الإنسان وتنتشر على المرتفعات الصخرية. تنمو بشكل طبيعي في البلقان. يوجد منها 25 نوعاً - المترجم.

- هذا أمر غير معلوم! ربما يعود يوماً ما.
- لن يعود! - أكّدتْ ذلك مرة أخرى.
بعد ذلك تنهّدت برقة.

في تلك الأمسية بحثنا عن كلام ما لنواسي به ابنتنا فلم نجد. وقفنا قبالتها. نتلعثم ولا نقدر على الكلام. شعرت أنّ معرفتي بخبر اختفاء الهر (جو) جعل (آيبري) تعيش ألم إختفائه من جديد، حتى خيّمت على أرجاء البيت مسحة ثقيلة من الحزن مجدداً. أنا و(سحر) كنا نبذل ما بوسعنا من أجل تبديد هذا الفضاء الكئيب. كنت أبحث في القنوات التلفزيونية عن أفلامٍ ربما تكون محل إعجابها. أسألها هل تعجبك هذه؟ أم هذه؟ أمّا (سَحر) فكانت تذرع المسافة بين الصالون والمطبخ جيئة وذهاباً. تجلب المأكولات، الكرزات أو العصائر. تأتي بأنواعٍ من المعجنات أو تجلب المثلجات أو عصير الليمون. وعلاوة على ذلك كنا نمزح معها. ثم وجدنا بالوناً برتقالي اللون في صندوق الألعاب التي جمعنا فيه كل الأشياء المتبقية من حفلات عيد ميلادها. نفخناه بسرعة ورحنا نتقاذفه بيننا أنا و(سحر) ونلعب. وفي بعض الأحيان كنا نتعمد رمي البالون باتجاه (آيبري) فكانت تضرب البالون أحياناً بظاهر كفها لإبعاده عنها، أو إرساله إلينا. وما إن قامت بذلك لمرات عديدة حتى تبدَّدت همومُها وهبّت إلى اللعب معنا. وهكذا صار البالون يرتعش وينتشر شعاعه البرتقالي بيننا نحن الثلاثة. وما إن يسقط أحدُنا البالون إلى الأرض، ويعدّ خاسراً حتى كانت (آيبري) تملأ البيت صراخاً وتهزّ قهقهاتها أرجاء البيت. وفيما كنا في غفلةٍ من أمرنا رَنَّ الهاتف:

- يا أخي الكبير! - قالها أخي (نهاد): لقد فقدنا أبي قبل قليل.
تسمّرت في إحدى زوايا الصالون. فأردف (نهاد) قائلاً:

- اسمعني يا أخي! لا تخرج إلى الطريق لوحدك. لا تجازف بالخروج إلى الطريق وأنت على هذه الحالة. اعثر على صديق له إجازة سياقة ليعينك على الوصول إلى هنا.

- تمام! - قلتُ له.

ارتبكتْ سحر أيَّما ارتباك. وكأنّ مصاباً ألمَّ بها. مسكت يد ابنتها (آيبري) التي تركت البالون على الأرض في مكانه، واصطحبتها على الفور إلى بيت جدّتها. أمّا أنا فالتقطتُ سجائري وقدّاحتي وهرعتُ إلى الشرفة. لم أكن أبكي ولكنني كنت أرتعش. جلست إلى الكرسي الموجود جنب الأصص على أمل أن أتخلص من حالة الارتعاش هذه، ولكنها استمرت لتنتشر في أنحاء جسدي. وبعد أن عادت (سحر) وضَّبنا أنفسنا على عجل وركبنا السيارة دون أن ننبس ببنت شفة. على الرغم من أنّ القشعريرة التي انتابتني لم تكن مثلما كانت عند بدايتها. لم أعد أستطيع التحكم في نفسي. كنت أرتجف وأنا جالس خلف مقود السيارة. ففي تلك الليلة لم أفهم كيف وصلنا إلى (بولاتلي) متى استدرنا من مفرق (سيفري حصار) ولم أكن في كامل وعيي عندما اجتزنا قرية (آشاغي كبن). انتبهت إلى أن السيارات كانت تمر من يميننا ومن شمالنا وهي تصدر هديرها، وتبهر عيني بأضوائها الكاشفة الموجَّهة من الأمام والمنعكسة من المرايا الجانبية. كان السواد الماثل خلف الأضواء يظلم أكثر فأكثر، أما أنا فوجدت نفسي منكبّاً على مقود السيارة، يتركّز كل انتباهي إلى الطريق خوفاً من عمل حادث.

وما راعني إلا أن سمعت صوت أبي قادماً من أعماقي، يقول برقة: «هل اقتربنا إلى (جومو)؟». «نعم!»، قلت له وأنا أمسح عيني بظاهر كفي. قلتها من هنا، ومن هناك أخذت أضغط برجلي على الفرامل ثم أبدلت ناقل الحركة من رقم خمسة إلى أربعة، ومن أربعة إلى ثلاثة. ثم خففت من سرعتي ومررت على مهلي عبر البلدة الصغيرة التي كانت مضاءة على نحو متفرق هنا وهناك. حين بلغنا هضبة (باكلان) بعد أن سلكنا الطريق من بين أشجار الصنوبر السابحة في ظلام هادر عند منحدر (زيبار) كان المؤشر في «طبلون» السيارة يشير إلى الساعة الرابعة والنصف فجراً. بلغنا البلدة بعد ربع ساعة أو أكثر. ترجَّلنا أنا و(سحر) من السيارة وتوجهنا إلى البيت من فورنا من دون أن ننبس ببنت شفة.

كانت أمي في صالة الضيوف، يحيط بها أخي (نهاد) وأصغر خالاتي، خالي (حسين)، عمتي (هجران) وخالتي الوسطى. حتى صهرنا (متين) كان جالساً في الصالة. أما الغرفة الكبيرة فقد كان بابها مفتوحاً. وأبي مُمَدٌّ فيها. مسجَّى بطوله، مغطًّى بشرشف أبيض. دخلت الغرفة وجلست عند رأسه. أزحت الغطاء. قبّلته ثم انفجرت باكياً وأنا أنظرُ في وجهه.

مسكوني من ذراعيَّ ورفعوني مع لمسات حانية مشبعة بإلاشفاق والحنان كانت تجول على كتفيَّ وجاؤوا بيَ إلى الصالة. أجلسوني على الوسائد جنب الحائط. لم يتفوَّه أحدٌ في البيت لمدة طويلة، فخيَّم صمت غريب لا يشبه شيئاً آخر سوى نفسه، طاف في أرجاء البيت وهو يغمغم بمرارة. كل شيء كان يحترق على نحو خفيّ داخل مرآه، ومن دون أن ينقص قيد أنملة من مرآه، أو كأن هناك ارتعاشات في غاية الرقة أعيدت إلى سابق عهدها في تلك الأثناء بعد أن كوّنت غلاظة حين أُخذت خارج حدودها. أو لكأن ريحاً مقدسة ضربت سماكتها وعمقها الدنيا ثم تجمدت هناك. بعد ذلك استنارت الأرجاء شيئاً فشيئاً. وهكذا تمّ لنا دفن أبينا في وقت الضحى من نهار ذلك اليوم.

لم أرْم سوى بضع كيلات من التراب إلى قبر أبي، لأنني لم عد أتحمل أكثر فناولَت المجرفة إلى (موسى) وانسحبت إلى الخلف. جلست على الأرض على بعد خطوات وانفجرتُ باكياً. وفيما كنت أنشج في البكاء خيّل لي أنني أسمع أصوات المجارف وأشمُّ رائحة التراب، وأرى لمعان الصخور، وكل أولئك الناس الذين كانوا ينحنون ويستقيمون كأنني أراهم من خلف زجاج متجمّد.

كنت أرى العالم من داخل دموعي. عالم ثقيل، مبلّل بماء عكر، يرتعش وينفث بخاراً يصاحبه صخب عنيف. ومن مكان جلوسي رأيت ذلك الصبي ذا الرداء الأبيض فنهضت من مكاني على الفور. كان الصبي واقفاً تحت شجرة اللوز، على بعد تسعة قبور، وقد شبك يديه أمامه كأنه يصلي. كان باسم الوجه، ينشق ثغره عن ابتسامة رائعة. شعر بمراقبتي

فبدأ يتماهى بين الظلال وراح يمضي كأنه يتقافز حتى تلاشى أخيراً هو وقميصه المشع مع الهالة المحيطة به في عمق المقبرة. حين اختفى الصبي ذو القميص المشع جاءني خالي وقاص وسحبني من ذراعي:

– تعال! – قالها بصوت خفيض كأنه يهمس في أذني: أنت ونهاد، قفا بهذا الجانب لتوديع المشيِّعين.

أنا و(نهاد) معاً ذهبنا إلى المكان الذي أشار إليه خالي (وقاص) ووقفنا هناك. وما إن رآنا الناس واقفين هناك حتى انفضّوا من حول القبر واصطفّوا في طابور طويل، جاؤوا فرداً فرداً لتقديم العزاء لنا. عندئذ انفجرتُ باكياً، لا أستطيع التحكم بدموعي فكنت أذرف الدمع الهتون، وأشعر أن أبي يموت من جديد كلما واساني أحدهم بقوله: الحكم لله... البقاء في حياتك. وبعد ذلك يأتيني شخص آخر، وآخر... وهكذا كان أبي يموت مرة أخرى إثر أخرى مع كل كلمة عزاء يعزّوني بها.

لهذا السبب بكيتُ كثيراً في ذلك اليوم. وحين عدنا إلى البيت كنت منهكاً أستندُ على ذراع خالي (حسين). حين دخلنا عبر الباب كانت أمي جالسة وسط جمع من النساء في الصالة، تريح ذقنها على راحة كفها، تلف رأسها بفوطة سوداء.

– هل ودعتما والدكما؟ سألتْنا حينما شاهدتْنا.

– نعم ودّعناه! – قلتُ.

أغمضت عينيها بألم ومالت برأسها يمنة ويسرة.

– يا ولدي! قالت: أنت لم تكن هنا، ولَم ترَه. ربما ستفكّر بينك وبين نفسك، ترى كيف لفظ أبي أنفاسَه الأخيرة؟ فلا تتخيَّل أشياءَ مخيفة. لم يتألم ولم يتلوَّ ولا تحشرج، حتى أنه لم يئنّ أبداً، بل أسلم روحه مثل عصفور صغير.

كانت قد أراحت وجهها بين راحتيها، وكانت تنظر إليَّ بعينين داميتين كأنهما جفنتان حمراوان. لولا وجود صهرنا (متين) ربما كان سيتلوّى كثيراً ويتألّم عند النزع.

سكتَتْ لبعض الوقت، ثمَّ أردفتْ قائلة:

– أبوك! كان جالساً على سريره كما هو معتاد، مسنداً ظهره إلى الوسائد. وأنا كنت قريبة إليه. أُنصِتُ بإحدى أذنيَّ إلى الأحاديث الدائرة في الغرفة، وبالأخرى أصيخ السمع لأنفاسه. بعد ثوانٍ فجأةً جاءت ذبابة وحطَّت على صَدغ أبيك. قلتُ لتَعمَيْنَ أيَّتها الحشرة! قلت في نفسي من أين جاءت هذه الحشرة؟ لِمَ حطّتْ هناك؟ وكأنه ليس لها مكان آخر تذهب إليه. كان أبوك مثل مَنْ أغمي عليه لذلك لم يشعر بالذبابة حينها. فأخذتُ أنا قطعة من منديل ورقي لكي أهش عليها. ففي اللحظة نفسها التي أردت فيها أن أطرد الذبابة انغلقتْ يدٌ قويَّة على عضدي. نظرتُ وإذا بصهرك (متين) أيضاً كان يراقب الذبابة، وقد توقَّع أنني بحركتي هذه عازمة على طردها فهرع إليَّ ومسك يدي. ثم رفع إصبع السبابة إلى شفتيه وأومأ لي أنْ «اسكُتي!»، ثم حبسنا أنفاسنا. وقضينا أنا وصهرك بعض الوقت في مراقبة الذبابة التي حطّت على صدغ أبيك. وما راعني هو أن هذه الحشرة مشت نحو الأسفل، نحو ذلك التجويف الذي كان يتكون عند خد أبيك. وقفت في وسط التجويف وحركت جناحيها بضع مرّات.

– أنا كنت أخمّن! وكان توقعي في محلّه! – قالها صهري (متين): كان عديلي يعاني من سكرات الموت في ذلك الوقت.

– نعم! – قالت أمي وأضافت: نعم في الوقت نفسه حين كانت الذبابة تخفق بأجنحتها أسلمَ أبوكَ روحَه. بعدها طارت الذبابة ثم طارت. وبعد أن طافت في فضاء الغرفة مثل حشرة فقدت رشدها، ثم خرجت عبر الباب وغابت.

– هذا تقديرٌ إلهي – قالت العمة (هجران): قد يكون سرّاً إلهيا لا يبلغُه العقل.

هزَّ خالي (حسين) رأسه بينما كان جالساً. يسبّح ويعدّ تسابيحه على عقدِ أصابعه. ولم تكن المسبحة في يده.

- يا لي من بليدة! - قالت أمي وهي تتنهّد: كدتُ أن أطرد تلك الذبابة، كدتُ أطردها.

- كفى يا أمي لا تتّهمي نفسك - قالت خالتي الوسطى وهي تحاول أن تجبر خاطرها: خلاص أنتِ لمْ تطرديها.

- نعم يا أماه! لم تطرديها - قالت (سحر) أيضاً.

نهض بعض الجالسين، وجاء آخرون من أجل تقديم التعازي وحلوا محل أولاء الذين غادروا. ومن بعد هؤلاء حضر أناس آخرون لا أعرف أيّ واحد منهم. وهكذا ظل البيت يمتلئ بأعداد من البشر ويفرغ. يمتلئ ويفرغ حتى حلول المساء. ثم غربت الشمس، وخيم الظلام على المحيط كله تدريجياً. فاختفت البيوت، الفناءات ومن بعد ذلك اختفت كل الأزقة. ولم ينقضِ وقت طويل حتى اختفت كل البساتين المحيطة بالبلدة. وكذلك تلاشى الجبل واختفى سوية مع هديره وانقطعت غمغمة الهضبة. ثم غلف الأرجاء برمتها ذلك الصمت الذي تكوّن إثر اختفاء تلك الأشياء.

نحن أيضاً أنا و(سحر) عدنا إلى (أنقرة).

بمجرّد أنْ وصلنا إلى البيت ذهبتُ إلى الصالون وجلست خلف المنضدة الموجودة في إحدى الزوايا. تناولت القلم اللازوردي. بالطبع كنت أعرف حقَّ المعرفة أنَّ خزان القلم فارغ، التفتُّ إلى شمالي وامتدت يدي إلى المِحبَرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حسن علي طوبتاش

ولد حسن علي طوبتاش في محافظة (دنيزلي) 1958. نُشرت له مجموعته القصصية (هوية الضحكة) سنة 1987. وفي 1990 صدر له كتاب (همس المفقودين). كتاب (الوحدات) مكون من مجموعة من النصوص الشعرية أعدت للمسرح وعرضت على مدى سنوات داخل تركيا وخارجها. 1992 حاز على الأولوية في المسابقة الأدبية التي أقامتها بلدية (تشان قايا) بالاشتراك مع هيئة تحرير مجلة (دامار). أصدر كتاب (زوار الزمن الميت) 1993 ثم صار هذا عنواناً للكتاب الذي صدر بعد 2001 جمع فيه قصصاً مختارة. في العام 1993 حاز على الجائزة التقديرية في المسابقة الأدبية التي أجريت من قبل وزارة الثقافة التركية، عن نصه الروائي (نقطة اللامنتهى). 1994 – 1995 فاز بجائزة (يونس نادي) للنصوص الروائية عن روايته (فاقدو الظلال). تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي على يد المخرج (أوميت أونال) في العام 2009. صدر له كتاب (التخيّلات الضائعة) في سنة 1996. 1997 نشر كتابه الموسوم (أنا غصن من شجرة الشرد). 1999 نال جائزة (جودت قدرت) عن روايته (رغبة تلفّها آلاف الأحزان) الصادرة في 1998. 2005 حاز على جائزة (أورهان كمال) عن روايته (شرق المنامات). 2013 رواية (هباء) حازت على جائزة (سدات سيماوي). في العام 2014 نُشرت الحوارات التي أجريت معه في كتاب بعنوان (أنت وحيد حين تبدأ، وأكثر وحدة حين تنتهي). ترجمت أغلب أعماله إلى العديد من اللغات في العالم، طبعت كتبه ونشرت في العديد من بلدان العالم: أمريكا، انجلترا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، هولندا، فنلندا، سويسرا وكوريا الجنوبية.

ولد حسن علي طوبتاش في محافظة (دنيزلي) ١٩٥٨.

- حاز على الأولوية في المسابقة الأدبية عام ١٩٩٢ التي أقامتها بلدية (تشان قايا) بالاشتراك مع هيئة تحرير مجلة (دامار).

- في العام ١٩٩٣ حاز على الجائزة التقديرية في المسابقة الأدبية التي أجريت من قبل وزارة الثقافة التركية، عن نصه الروائي (نقطة اللامنتهى).

- ١٩٩٤ - ١٩٩٥ فاز بجائزة (يونس نادي) للنصوص الروائية عن روايته (فاقدو الظلال).

- ١٩٩٩ نال جائزة (جودت قدرت) عن روايته (رغبة تلفّها آلاف الأحزان) الصادرة في ١٩٩٨.

- ٢٠٠٥ حاز على جائزة (أورهان كمال) عن روايته (شرق المنامات).

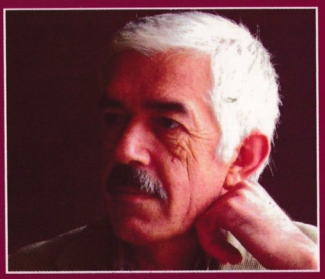

- ٢٠١٣ حازت رواية (هباء) على جائزة (سدات سيباوي).

ترجمت أغلب أعماله إلى العديد من اللغات في العالم، طبعت كتبه ونشرت في العديد من بلدان العالم: أمريكا، انجلترا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، هولندا، فنلندا، سويسرا وكوريا الجنوبية.

كان الصوت الذي يتصادى رجعه في داخلي قد انسحب إلى بعيد. لهذا السبب لم أستطع أن أكتب ولا كلمة واحدة خلال الأشهر المنصرمة. إذ بقيت طوال الوقت متسمِّراً هكذا، جالساً خلف الطاولة. وفي الحقيقة لم أعرف أي هراء أفعل. ثم خُيّل إليَّ أن صوتي كان يراقبني عن كثب. يتأمَّلني. وقد أدرك أنني أنادي عليه بكلمات تكوّنت من تلقاء نفسها إثر حركات بسيطة لا أدري كيف قمتُ بها. أخرجت قلم الحبر ذا اللون اللازورديّ من علبته. فتحت غطاءه ثم أخذت أسحب الحبر إلى داخله رويداً رويداً. رفعتُه إلى أعلى كي أتأكد إن كان خزّان الحبر قد امتلأ أم لا. بعد ذلك التفتُّ إلى دفتري الذي تركته مفتوحاً، وهو باقٍ على حاله هكذا منذ عدة أشهر. وجَّهتُ قلم الحبر باتجاه نصاعة ورقه، فتأكدت من امتلاء الخزان بالحبر. تماماً في تلك اللحظة رنّ تلفوني. فوضعت القلم جانباً وقمت من فوري. وبخطوات سريعة هرعت إلى الركن القصي من الصالة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

470 يوم
غزة

لوحة الغلاف: Mark Anthony King